nesemat.com

نسمات

دراسات حول مشروع **الخدمة**

المسألة الكردية
وجهود «الخدمة» كفاعل مدني
منى سليمان

مواقف في زمن المحنة
قراءة في مرتكزات الخطاب
محمد جكيب

صرخة العندليب
فلسفة الحب من الرومي إلى كولن
كاثرين ب. يوستيس

4

محتويات

4
الإصدارة الرابعة نوفمبر ٢٠١٧م

النموذج الحضاري / نسمات ١

التعليم أساسًا للإصلاح..
تجربة كولن والطاهر بن عاشور نموذجًا / بلال حسن التل ٢

مواقف في زمن المحنة
قراءة في مرتكزات الخطاب / محمد جكيب ١٦

المسألة الكردية
وجهود «الخدمة» كفاعل مدني / منى سليمان ٣٤

الدور الإحيائي لفقه القلب
في الفكر الحضاري عند فتح الله كولن / فايد رمزي ٥٠

البعد الروحي والخطاب الإنساني
في مشروع الخدمة / صابر عبد الفتاح - عبد المجيد بوشبكة ٦٥

سؤال النهضة
الحلقة المفقودة والنموذج المنشود / محمد ياسين..... ٧٨

صرخة العندليب
فلسفة الحب من الرومي إلى كولن / كاثرين ب. يوستيس..... ٩٣

العلماء المدنيون والسلطة
مقاربة فكرية للواقع التركي / محمد عارف ساي ١٠٤

www.nesemat.com
facebook.com/nesematstudies
nesemat@yahoo.com
twitter.com/nesemat_com

النموذج الحضاري

"نسمات" واحدة من الآليات التي تسهم بدور في المشروع الحضاري الإنساني التجديدي الشمولي، بما تحمله من فكر مستنير يروي ظمأ الروح، ويشحذ همم البذل والعطاء وينشر التسامح والإخاء بين بني الإنسان، وتلك غايات نبيلة، حملتْها منهجية النبوة وحذا حذوها مشروع الخدمة.

لقد أثبتت التجارب المتعددة فشل مشروع الإسلام السياسي في الإقلاع الحضاري بمعطياته الراهنة، حيث يرى السلطة سبيل الإصلاح الوحيد، بغض النظر عن إشكالية علاقة السياسة بالأخلاق ومبادئ العدالة الإنسانية، ومن ثم يأتي المقال الأول لبلال حسن التل، يؤكد فيه على أولوية التعليم في عملية الإصلاح، فأول مؤسسة أقامها رسول الله ﷺ كانت تعليمية وليست اقتصادية أو عسكرية.

وفي مقاله الماتع يقدم محمد جكيب قراءة موسعة ومعمقة يستجلى فيها معالم خطاب الأستاذ كولن في تلك المحنة التي يعيشها مشروع الخدمة، مبرزًا فيه أهم سمات خطابه الفكري والثقافي والإنساني، ومشيرًا إلى الأبعاد الدولية والإستراتيجية والسياسية التي تضمنها.

أما منى سليمان فقد تناولت في مقالها الرؤية الفكرية والجهود التطبيقية الميدانية التي قام بها مشروع الخدمة والتي أسهمت في حل عديد من القضايا الشائكة من خلال مؤسساتها التعليمية والتربوية وجهودها الاقتصادية والإغاثية والثقافية المتنوعة التي أنشأتها في مناطق الأكراد.

ومع مقال فايد رمزي نقف على خلاصة رؤى الهرم الفكري الحضاري عند كولن بحلقاته الثلاث "فقه القلب" و"فقه الدعوة" و"فقه العمران"، من خلال جولته المعرفية في ثنايا كتاب "ونحن نبني حضارتنا".

ويستمر نوزاد صواش في البحث عن سر الخلطة ومحاولة فك الرموز عبر محاورة الأكاديمي المغربي والمفكر الإسلامي عبد المجيد بوشبكة، والباحث والكاتب المصري صابر عبد الفتاح، في حوار بعنوان" البعد الروحي والخطاب الإنساني في مشروع الخدمة".

وتحت عنوان "سؤال النهضة الحلقة المفقودة والنموذج المنشود"، يقدِّم محمد ياسين عرضًا لرسالته العلمية التي نوقشت في رحاب جامعة الأزهر، والتي يتناول فيها المشروع الدعوي للخدمة باعتباره نموذجًا لنهضة الأمة والمجتمع.

ولإلقاء الضوء على استغلال السلطة الحاكمة للدين في صراعها مع العلماء المدنيين، يأتي مقال محمد عارف ساي بمثابة إطلالة فلسفية وفكرية عامة للعلاقة الجدلية بين السلطة الحاكمة والعلماء المدنيين.

وأخيرًا يخلص مقال كاترين ب. يوستيس، إلى أن كولن هو المترجم المثالي في العصر الحديث لأفكار الرومي، وصدى الصوت الذي يحمل رسالة الرومي في المحبة والرحمة من خلال التفاهم والحوار. ■

التعليم أساسًا للإصلاح
تجربة كولن والطاهر بن عاشور نموذجًا

بلال حسن التل

كاتب وباحث وصحفي أردني.. ورئيس التحرير المسؤول لجريدة "اللواء" الأردنية.. ورئيس مركز دراسات الوحدة الإسلامية.. ورئيس المركز الأردني للدراسات والمعلومات.. وله عدة كتب، منها "أوجاع أردنية".. شارك في عديد من الندوات والمؤتمرات على مستوى العالم، ومنها ندوة في تونس بعنوان: "الثقافة والفكر الإصلاحي بين تونس وتركيا، الجذور التّاريخيّة والأسئلة الرّاهنة "الشيخ الطاهر بن عاشور وفتح الله كولن نموذجًا" التي انعقدت في العاصمة يومي ١٠-١١ مايو ٢٠١٣م.

استخلف الله ﷻ الإنسان على هذه الأرض لإعمارها، وزوَّده بمؤهلات لهذه المهمة، أولها العلم، وفي هذا دلالة على أولوية العلم في مهمة الإعمار. ولقد كان أول ما نزل من الوحي على خاتم الأنبياء ﷺ هو "اقرأ" لا "احكم"، وأول مؤسسة أقامها المصطفى ﷺ كانت مؤسسة تعليمية وليست اقتصادية أو عسكرية، إذ إن مهمة الإصلاح تتأسس على التعليم، وهي سنة متبعة قام بها الأنبياء من قبل، وسار على نهجها ورثة الأنبياء من العلماء من بعد. فقد كانت الدعوة للتعليم تتصدر اهتمامات جل المصلحين والمجددين والدعاة، ويبرز من هؤلاء -في واقعنا المعاصر- شخصيتان استطاعتا ترجمة أفكارهما في الإصلاح إلى واقع ملموس، وهما الطاهر بن عاشور في تونس وفتح الله كولن في تركيا، وسوف تُبرز هذه الدراسة أوجه التشابه بين هاتين الشخصيتين، وقدرة كل منهما على تحويل أفكارهم الإصلاحية إلى مشاريع مؤسسية وبرامج مجتمعية، كان لها صداها في بلدانها وسائر بلدان العالم الإسلامي.

هل يتم الإصلاح بقرار، أم يجب أن يسبق القرار عملية تهيئة للناس، من خلال إعادة بناء قناعاتهم، عبر عملية تثقيفية تعليمية تربوية تبني قيمًا ومفاهيمَ وتتجسد سلوكًا لدى أبناء المجتمع المستهدف بالإصلاح؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تستدعي منا مراجعة التجربة التاريخية لمسيرة الإصلاح على وجه الأرض، خاصة سِيَر أنبياء الله ورسله، أئمة الهدى والإصلاح الذين بُعثوا على فترات لتصحيح انحرافات البشرية على الأرض، وإصلاح مجتمعاتها كلما فسدت. وعلى وجه أخص سيرة خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي بُعث للبشرية كلها، موضحًا لها طريق صلاحها، كما أراده لها خالقها، الذي استخلف بني آدم في الأرض وكلفهم بإعمارها.

فكم منا تأمل دلالات حكمة الله ﷻ عندما جعل أول الوحي على خاتم الأنبياء المبعوث للعالمين بآخر الرسالات التي فيها صلاح البشرية إلى يوم الدين حديثًا عن العلم بشقيه القراءة والكتابة بقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(العلق:١-٥) ألا تقول لنا هذه البداية للوحي الإلهي الذي نزل بدستور لإصلاح واقع الدنيا إلى يوم الدين أن التعليم هو أول خطوات إصلاح واقع الناس ومجتمعاتهم، وأساس هذا الإصلاح؟

التعليم والفكر

إن التعليم -كما هو معلوم- هو أساس الثقافة والمكوّن الرئيس للفكر، وعلى ضوء نوع التعليم يتحدد نوع الثقافة والفكر، ومن ثم السلوك بل وهوية المجتمع. من هنا نفهم إصرار بعض الدوائر على إفساد مناهج التعليم في بلادنا. ذلك "أن الأمة تؤخذ من عقول أبنائها قبل أن تؤخذ بسيوف أعدائها". فهناك نوعان من التعليم؛ أحدهما صالح يقود إلى سعادة الدنيا والآخرة، وآخر يقود إلى الفساد والدمار المادي والمعنوي، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ۞ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ۞ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾(البقرة:٧٨-٧٩). وقوله تعالى: ﴿وما قَدَرُواْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾(الأنعام: ٩١).

> التعليم هو أساس الإصلاح، فعندما تُربّي إنسانًا صالحًا، فإنك تُربّي سياسيًّا صالحًا واقتصاديًّا صالحًا ومثقفًا صالحًا ومن ثم مجتمعًا صالحًا.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

مقومات الاستخلاف

إن بداية الوحي الرباني بالحديث عن التعليم قراءة

أمضى الطاهر بن عاشور ثلاث سنوات في تأليف كتابه "أليس الصبح بقريب؟" وقد ضمَّنه خلاصة آرائه في إصلاح التعليم، حيث أعلن في هذا الكتاب أن "إصلاح حال الأمة لا يكون إلا بإصلاح مناهج التعليم".

nesemat.com نسمات nesemat.com

وكتابة تضع أمامنا أهم أسس الإصلاح وقواعده وهو التعليم الذي يُعيد صياغة الإنسان، وبناءَ مفاهيمه، ويؤهله لخلافة الله على الأرض لإعمارها، وهو الإعمار الذي كان التعليم أولَ أدواته التي زوَّد الخالقُ بها خليفته على الأرض. ولأن الخليفة يجب أن يكون مؤهلًا للقيام بما استخلف فيه، فقد زوَّد الخالق ﷻ خليفته على الأرض بما يعينه على أداء مهمته. وأول ما زُوّد به هو العلم الذي هو من صفات الله التي تدخل في الكثير من صفاته الأخرى ﷻ.

ويكفي أن نتوقف عند آية الكرسي التي اعتبرها الكثيرون من المفسرين أعظم آيات القرآن الكريم، استنادًا إلى ما رواه أبو هريرة عندما قال: إن رسول الله قال: "لكل شيء سنام، وإن سنام القرآن البقرة وفيها آية هي سيدة آي القرآن، آية الكرسي" (أخرجه الترمذي) لنجد أن أكثر ما تتحدث عنه آية الكرسي هو علم الله. وقد ذهب كثير من المفسرين إلى أن الكرسي المذكور في هذه الآية هو العلم؛ وهذا ما ذهب إليه ابن عباس كما روى الطبري في تفسيره.

الدولة العادلة صاحبة الرسالة

كثيرة هي الآيات القرآنية التي تتحدث عن علم الله وتفرده ﷻ بعلم كل شيء، من هذا كله نفهم دلالة أن يكون أول ما أنزل على رسولنا ﷺ حديث عن العلم، ونفهم أنْ لا تكون أول مؤسسة أقامها رسول الله ﷺ مؤسسة عسكرية أو اقتصادية أو سياسية، بل مؤسسة تعليمية ممثلة بدار الأرقم بن أبي الأرقم. وهو توجيه منه ﷺ وهو إمام المصلحين وقدوتهم إلى أنَّ صلاح الناس وتغيير واقعهم نحو الإصلاح والأفضل، إنما يكون بتعليمهم.

وقد أكد عليه السلام هذا التوجيه عندما أرسل مصعب بن عُمير ﷺ بعد بيعة العقبة إلى يثرب ليعلم الناس أي ليثقفهم ويعلمهم دينهم الجديد، ويعيد صياغة مفاهيمهم عبر إعادة بناء فكرهم، ومن خلال التعليم يتم تحضير البيئة التي ستشهد ولادة أول دولة للإسلام في إشارة تقول: إنه مثلما أنّ التعليم هو شرط إصلاح واقع الناس وتغييره إلى الأفضل، فكذلك لا تقوم الدولة العادلة صاحبة الرسالة إلا بالتعليم. وهذه حقيقة برهنت عليها كل تجارب التاريخ البشري؛ فقد طوى الزمن الساسة والعسكر، في حين خَلَّد العلماء، وظلت آثارهم المادية ملموسة في حياة الأمم فقهًا يرشد أو قوانين تحكم، أو كتبًا تقرأ أو مخترعاتٍ تستخدم، وقد ظل العلم على مدار التاريخ البشري مصدر قوة ورفعة ومنعة وتحضّر وصلاح للمجتمعات التي أخذت بأسبابه وعملت بنتائجه.

وكثيرة أيضًا الإشارات النبوية الدالة على أن التعليم هو أساس الإصلاح ومدخل تغيير واقع

الناس، وقاعدة بناء الدولة العادلة، ومن بين تلك الإشارات فداء أسرى بدر بتعليم المسلمين؛ بل إن القرآن الكريم أمر المسلمين بتعليم غيرهم حتى ولو كانوا مشركين، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(التوبة:٦)، وهذه الآية الكريمة تشير من بين ما تشير إليه إلى أنَّ التعليم هو وسيلة من وسائل إصلاح الإنسان عبر تبليغه دعوة الله.

مهمة الأنبياء الأولى

إن هذه الإشارات النبوية تقودنا إلى طرح مجموعة من الأسئلة؛ أولها: كم منا تساءَل عن الحكمة بأن يكونَ أول الوحي على خاتم الأنبياء "اقرأ" لا "احكم"؟ ولماذا كانت أول مؤسسة أقامها رسول الله ﷺ مؤسسة تعليمية ولم تكن اقتصادية أو عسكرية؟ ولماذا لم يُرسل رسول الله إلى يثرب مدرِّبًا عسكريًّا بدلاً من أن يُرسل معلِّمًا؟

إن الإجابة عن كل هذه الأسئلة تكمن في فهمنا لأول مهمة للأنبياء والرسل، وهي تعليم الناس لقوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾(البقرة: ١٥١). ولأن الرسل بعثوا لتعليم الناس وإصلاح مجتمعاتهم، كان التعليم هو أول الإعداد الإلهي للأنبياء والرسل عليهم صلوات الله وسلامه، الذين بعثوا على فترات لإصلاح واقع البشرية وإعادتها إلى نهج الإعمار المكلَّفة به.

سعى الأستاذ كولن إلى بناء منظومة تعليمية تربوية متكاملة، من رياض الأطفال إلى الجامعة. وبفضل إصراره حققت حركة الخدمة نجاحات كبيرة في بناء هذه المنظومة.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

فمن تأملنا لآيات الكتاب المبين نجد أن التعليم هو أول وأهم ما زوّد به الرسل عليهم صلوات الله وسلامه، وأعدوا به لمهمتهم في إصلاح البشرية، ابتداء من أول الأنبياء آدم عليه السلام الذي علمه ربه الأسماء كلها، مرورًا بأنبياء الله ورسله جميعًا.

إن هذا الإعداد الرباني للرسل عليهم صلوات الله وسلامه الذين أُنيطت بهم مهمة إصلاح البشرية كلما فسد أمرها بالتعليم، ليس بالمستغرب؛ ذلك أن تعليم بني البشر لإصلاح أمرهم هو المهمة الرئيسة للأنبياء والرسل، وهو ما أكدته الكثير من آيات القرآن الكريم. من ذلك قوله تعالى: ﴿لقد مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾(آل عمران:١٦٤)، وكذلك قوله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾(الجمعة:٢).

وهنا لا بد من أن نتأمل كثيرًا في تكرار تعليم الحكمة في الآيات التي تحدثت عن إعداد خاتم النبيين رسولنا محمد ﷺ واقترانها بالتزكية وبتعلم

ما لم يكن ولم نكن نعلم. ألا يدخل هذا في معنى الإعداد النفسي والفكري والثقافي وليس مجرد العلم للعلم، ودلالات ذلك كله على دور الفكر والثقافة في إصلاح واقع البشرية؟ لأنه بغير هذا الإعداد لا يمكن أن يتغير واقع الناس، وهو ما أشار إليه قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الرعد:١١).

لذلك جعل الله ﷻ العلم مقياسًا من مقاييس التفاضل بين الناس بقوله تعالى: ﴿يرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(المجادلة: ١١)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾(الزمر: ٩).

أولويات المصلحين في كل زمان

لما كان العلماء هم ورثة الأنبياء، وهم أصحاب الألباب، كان مما يتذكرونه على مدار التاريخ، دور التعليم في الإصلاح. لذلك كانت الدعوة للتعليم تتصدر اهتمام جلّ المصلحين من أبناء الأمة الإسلامية، خاصة في القرنين التاسع عشر والعشرين وهذا القرن الذي نعيشه. دعا إلى ذلك الأفغاني، ومحمد عبده، والثعالبي ومحمد رشيد رضا، والطاهر بن عاشور وفتح الله كولن وغيرهم كثير. غير أَن قلة منهم استطاعت أَن تترجم أفكارها إلى واقع ملموس، يبرز منهم الطاهر بن عاشور، وفتح الله كولن.

بين الطاهر بن عاشور وفتح الله كولن

لعل نجاح الطاهر بن عاشور، وفتح الله كولن في تطبيق دعوتهما لإصلاح التعليم أساسًا لإصلاح المجتمع ناتج عن التشابه الكبير في الظروف التي عاشها كل منهما، وصاغت ثقافتهما وفكرهما ورتبت أولوياتهما.

فكلاهما تتشابه أصوله والرحلة التاريخية لهذه الأصول، حيث جاءت أسرة الطاهر من الأندلس إلى تونس، وتنقلت أسرة فتح الله في الأناضول حفاظًا على دينهما ووجودهما. وكلاهما وُلد وترعرع في بيئة علمية تحرص على تعليم أبنائها، خاصة علوم الشرع واللغة العربية، فكلاهما درس في طفولته القرآن وعلومه واللغة العربية وفنونها التي هي أساسُ وخزَّانُ الثقافة الإسلامية، وكلاهما درس الفقه وتفرعاته، وكلاهما اهتم بالأدب خاصة الشعر، فكلاهما امتلك ذائقة أدبيةً وحسًّا مُرهَفًا، وكلاهما عاشَ وترعرعَ في محاريب المساجد، وكلاهما عمل بالتعليم، وكلاهما درس السيرة النبوية واستوعبها وحاول إحياءَها في السلوك العملي بهدف إصلاح المجتمع، وكلاهما واجه الحكم العلماني الإلحادي المستبد، وكلاهما سُجن وشُرد وتعرض لحملات تلويث السمعة، وكلاهما آمن بالإعلام كوسيلة للوصول إلى الناس وتعليمهم وتثقيفهم، وكلاهما آمن بالتجديد المبني على الإسلام بعد أن عاش كلاهما واقع الناس وتعاملا مع علل هذا الواقع وسعيا إلى علاجها من خلال فهمهما لهذا الواقع وسُبل تخليصه من علله.

كما عمل كلاهما: الطاهر، وفتح الله، على ردم الهوة بين تيار الأصالة وتيار المعاصرة؛ وامتلك

كلاهما نظرة عالمية منفتحة على الثقافات الأخرى ومجتمعاتها في علاقة تبادلية من الأخذ والعطاء والإفادة والاستفادة العلمية والثقافية. لذلك كان لكل منهما شخصية ثرية متعددة الجوانب بسبب هذا الانفتاح على ثقافات الآخرين ورفضهما للتقليد والجمود، وسعى كل منهما إلى بناء نموذج معرفي غير تقليدي، خاصة في مجال التعليم. وآمن كلاهما بالمدخل القيمي لإحداث الإصلاح في المجتمع، خاصة من خلال التعليم، وفي إطار المدخل القيمي للإصلاح جاء اهتمامهما بتعليم المرأة، فكان الطاهر أول من فتح فرعًا لتعليم المرأة في جامع الزيتونة. كما يعكس كتابه "أصول النظام الاجتماعي في الإسلام" إيمانه بالإصلاح الاجتماعي كأساس للإصلاح الشامل للمجتمع، وهو ما يلتقي به مع فتح الله كولن وحركة الخدمة.

وهذا التشابه الكبير في النشأة وظروفها لا بد من أن يقود إلى نوع مشترك في المفاهيم وترتيب الأولويات، ومن ذلك جَعْلُهُما التعليمَ أولويةً في اهتمامات كل منهما ومدخلاً لإصلاح واقع الناس وتغييره من خلال السعي لبناء جيل جديد، وكلاهما لم يتوقف عند حدود الدعوة النظرية لإصلاح التعليم، بل ذهب إلى التطبيق العملي.

فتح الله كولن في ميدان التطبيق

يبرز الأستاذ فتح الله كولن كواحد من أبرز الداعين إلى إصلاح المجتمع من خلال التعليم. ولكنه يتميز بصدارة التطبيق العملي لهذه الدعوة والنجاح

استلهم الأستاذ كولن فكرة عبقرية من تجربة دار الأرقم بن أبي الأرقم، حيث أسس بيوتًا للطلاب ذات برامج محددة في التعلّم والتربية والسلوك. وقد أعادت هذه البرامج صياغة شخصية الطلاب الذين التحقوا بها.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

الباهر في نتاجها. فقد آمن الأستاذ فتح الله كولن مبكرًا بأن أعداء الأمة الحقيقيين ثلاث آفات، هي: الجهل والفقر والفرقة. فنذر حياته لمحاربة هذا التلوث الذي يفتك بالأمة جاعلاً من محاربة الجهل أولويته الأولى باعتباره من أهم العقبات أمام بناء الإنسان الصالح، ومن ثم المجتمع الصالح النظيف المنتج، فوضع نصب عينيه هدفًا لا يحيد عنه هو بناء جيل جديد، مستلهمًا بذلك السيرة النبوية، ودور دار الأرقم بن أبي الأرقم التي علَّمت ورتَّبت ذلك الجيل القرآني الفريد.

سعى الأستاذ فتح الله كولن إلى بناء منظومة تعليمية تربوية متكاملة، تبدأ من رياض الأطفال، وصولاً إلى الجامعة. وبفضل إصراره حققت حركة الخدمة نجاحات كبيرة في بناء هذه المنظومة. إذ صار الآن لدى الحركة شبكة من المدارس من مختلف المراحل منتشرة في تركيا[1]، وعلى امتداد جغرافيا العالم تأخذ على عاتقها مسؤولية تعليم أبناء المجتمعات الموجودين فيها، ويقود هذه المنظومة كوكبة من الرجال والنساء، جلُّهم من خريجي مدارس حركة الخدمة. وهذا من فضل الله على الأستاذ فتح الله أن أراه نتائج جهوده لتطمئن نفسه.

اعتبر الطاهر إصلاح التعليم مدخلاً وأساسًا للإصلاح الشامل إذ رأى أن دراسة تاريخ العلوم لمعرفة أحوال تطويرها ونموّها، ولتحديد علل قصورها وتقهقرها، من المطالب الرئيسية لأية محاولة للنهوض والإصلاح.

nesemat.com نسمات nesemat.com

فلسفة التعليم في حركة الخدمة

تُترجم المؤسسات التعليمية لحركة الخدمة فلسفة التعليم التي وضعها الأستاذ فتح الله كولن. فالمتمعن في هذه الفلسفة يلمس أنها تجسّد شخصية الأستاذ وروحه المستندة إلى فهمه للإسلام، وأولها الانفتاح على ثقافات العالم وعلومه وأجناسه وديناته. لذلك لا غرابة في أن تجد في مدارس الخدمة وجامعاتها أبناء كل الثقافات والأجناس والأديان، وهذا تجسيد لمفهوم عالمية الإسلام، باعتبار أن رسول الله ﷺ بُعث لكل الناس، مثلما أنه تطبيق عملي لقوله تعالى: "لتعارفوا".

لقد بُعث رسول الله ﷺ لكل الناس، ولذلك فالإسلام دين جاء لخيري الدنيا والآخرة؛ من هنا تجمع فلسفة التعليم التي وضعها الأستاذ كولن لمؤسسات الحركة التعليمية بين علوم الدين وعلوم الدنيا، كما تمزج بين العلم والإيمان المبني على الأخلاق من خلال المعلم القدوة في السلوك والالتزام الذي يهدف إلى بناء الإنسان على قواعد السلوك الإنساني القويم، ويبني لديه منظومة قيمية متكاملة، من خلال الحنان والمتابعة والدقة والأناقة والنظافة، والتفاني والإخلاص التي هي عنوان المسلم بعيدًا عن مفهوم المعلم الموظف.

وهذه الفلسفة التعليمية التربوية مبنية على التعليم بالحب من خلال نيل حب وثقة الطالب وأهله لبناء عملية تربوية تعليمية متكاملة تشارك بها الأسرة والمدرسة، لإنقاذ الطالب من مخاطر الانفصام بين المدرسة والأسرة التي تعاني منها جلُّ المدارس في هذا العصر. وهذا النوع من التعليم يخرج إنسانًا محبًّا لعائلته ومدرسته ووطنه وأمته، يتمتع بحسّ وطني وتاريخي، ويعمل لخدمة مجتمعه. وتبرز أهمية ذلك أنه يتم في زمن مادي تُخرِّج فيه جلُّ المؤسسات التعليمية إنسانًا يتقن فَنَّ الأخذ، ولا علاقة له بروح البذل والعطاء.

كذلك فإن المتأمل في فلسفة التعليم كما تطبقها مدارس الخدمة يلمس بوضوح مفهوم التعليم المستمر؛ أولاً من خلال الكم الهائل من النشاطات -خارج إطار المنهج الدراسي- التي تطبقها هذه المدارس، بهدف بناء شخصية متكاملة متوازنة للطالب، بعيدًا عن التلقين والحشو، وأول هذه النشاطات أن طالب مدارس الحركة مُلزمٌ بقراءة أربعين ألف صفحة خلال فترة دراسته، بالإضافة إلى إتقانه ثلاث لغات، مما يعني بناءً ثقافيًا متينًا للطلاب، وحماية لهم من مفسدة الفراغ، وتساهم في هذا البناء وهذه الحماية نوادي الأنشطة التي تُقام للطلاب، وكذلك المعسكرات الصيفية، بالإضافة إلى مساهمتهم في أنشطة أخرى. فالفلسفة التعليمية للخدمة كما وضعها الأستاذ تهدف من بين ما تهدف

إليه تنمية الإبداع في مختلف المجالات، بهدف بناء شخصية متكاملة لدى طالبها.

ويبرز مفهوم التعليم المستمر في فلسفة التربية والتعليم التي وضعها الأستاذ لمؤسسات التعليم في الخدمة في أنَّ علاقة الطالب لا تنقطع مع مدرسته وجامعته مدى الحياة عبر العديد من القنوات؛ وهي فلسفة مستمدة من مفهوم دار الأرقم التي بنت الإنسان على المثال الذي يريده خالقه، وكما جاء بها الإسلام والتي تحييها الآن فلسفة التربية والتعليم التي وضعها الأستاذ فتح الله كولن، وآتت أكلها في إصلاح الكثير من المجتمعات، و قدمت برهانًا عمليًّا على أن التعليم هو أساس الإصلاح، فعندما تُربّي إنسانًا صالحًا، فإنك تُربّي سياسيًّا صالحًا واقتصاديًّا صالحًا ومثقفًا صالحًا ومن ثم مجتمعًا صالحًا.

محضن غير تقليدي

لم تقتصر جهود الأستاذ فتح الله كولن لإصلاح المجتمع من خلال التعليم عند حدود المؤسسات التقليدية للتعليم، فقد انطلقت مسيرته في مجتمع شديد المحافظة، حيث كانت الأسر التركية المحافظة تمتنع عن إرسال بناتها إلى المدارس، خوفًا عليهن من الانحلال والإلحاد. مثلما لم تكن ترسل أبناءها الذكور إلى الجامعات، لنفس السبب، مما يعني تفشي الجهل والتخلف وهما الأرضية الخصبة للفساد، الذي تصدى له الأستاذ فتح الله بإقامة المؤسسات التعليمية التي يطمئن إليها الناس فاستلهم من سيرة رسول الله ﷺ فكرة

nesemat.com نسيمات nesemat.com

استوعب الأستاذ تجربة أغنياء الصحابة في تسخير أموالهم لخدمة الدعوة، فجعلهم نموذجًا يَقتدي به طلابه من رجال الأعمال الذين علّمهم كيف يسخّرون أموالهم ويطهرونها بالإنفاق في مناشط الخدمة.

عبقرية استلهمها من تجربة دار الأرقم بن أبي الأرقم، حيث بدأ تجربته بتأسيس بيت للطلبة، حيث كان الطالب فيه يخضع لبرنامج محدد في التعلّم والتربية والسلوك.

وقد أعاد هذا البرنامج صياغة شخصية الطلاب الذين التحقوا به، مما يؤكد أن التعليم المشبع بالثقافة والفكر هو أساس إصلاح الإنسان ومن ثم مجتمعه، حيث لمست أسر هؤلاء الطلاب حجم التغيير في سلوك أبنائها وانضباطهم، وإيجابيتهم نحو مجتمعهم، من حيث احترامهم لمن هو أكبر منهم، وتفوقهم الدراسي ونشاطهم الاجتماعي، مما ساعد على انتشار فكرة بيوت الطلبة، التي أسستها حركة الخدمة في كل أنحاء تركيا.

وقد أسهمت هذه البيوت في تحقيق الهدف الذي سعى إليه مؤسسها، وهو بناء جيل جديد من الشباب المؤمن بدينه وأمته. كما أسهمت هذه البيوت والمنتسبون إليها في إنقاذ الجامعات التركية من الفكرَين الماركسي والقومي المتعصبين، وهي نتيجة تؤكد ما ذهبنا إليه عن دور التعليم المشبع بالثقافة والفكر. كل ذلك من خلال العمل الجاد الصامت والذي يقدم نموذجًا عمليًا عن دور التعليم

في إحداث الإصلاح الحقيقي للمجتمع، ولواقع الناس من خلال تغيير نفوسهم بعيدًا عن الاستفزاز وعن الخطابة والموعظة الخشنة.

الإعلام والتعليم

أدرك الأستاذ مبكرًا، وبحكم تجربته التي مكنته من معرفة عوامل التأثير في المجتمع، وتفهمه لقضايا مجتمعه ومشكلاته، أن الأسرة والمدرسة لم تعودا وحدهما عنصري التربية والتعليم الرئيسيين. فقد صار الإعلام هو الآخر شريكًا أساسًا في تعليم الإنسان وفي صياغة مفاهيمه وقناعاته وسلوكه، مثلما صار وسيلة أساسية من وسائل نشر الفكر والدعوة. ولأن الأستاذ فتح الله كولن داعية حريص على نشر دعوته، مثلما هو ابن عصره، كان لا بد له من أن يوجه تلاميذه إلى امتلاك أدوات العصر، من هنا كان التوجه بأن يكون للخدمة وسائلها الإعلامية التي تسهم في تعليم الناس عبر تزويدهم بحقائق واقعهم فترشدهم إلى السلوك القويم نحوها.

صحيح أن إعلام الحركة بدأ بدايات متواضعة تمثلت في مجلة "الرشحة"، لكنها بداية كانت تملك الإيمان والإصرار والوضوح، لذلك نجحت الحركة في بناء منظومة إعلامية متكاملة، من بينها مجموعة "زمان" أكبر الصحف التركية وأكثرها انتشارًا[٢]، إذ توزع يوميًا حوالي مليون نسخة، و"زمان" ليست صحيفة تقليدية كالصحف التي نعرفها لكنها صحيفة ذات رسالة، لذلك تختلف حتى في طريقة توزيعها، حيث يتم تسويقها على قاعدة الاشتراك بهدف بناء علاقة حميمة مع الأسرة، تحقيقًا لهدفها الرئيس، وهو تقديم حلول ناجعة للمشاكل التي يواجهها المجتمع. كما تقوم بإصدار ملاحق دراسية للطلبة تعزيزًا لدور الحركة في التعليم؛ ويأتي ذلك كله انسجامًا مع فلسفة حركة الخدمة في الإصلاح من خلال العمل، وأوله العلم النافع وفق رؤية الإسلام التي هضمها الأستاذ فتح الله كولن.

لا يتوقف التعليم عبر إعلام حركة الخدمة عند مجموعة "الزّمان"، فهناك أيضًا مجموعة "كاياك" للنشر[٣]، التي هي بدورها منظومة فكرية متكاملة تؤدي دورها في تعليم المجتمع وتنويره، بدأت بمجلة "الرشحة" التي صدرت بهدف تربية جيل على أساس علمي إيماني، باعتبار أن كل ما في الكون آية من آيات الله في العلوم، وقد صار "للرشحة" أكثر من ثلاثين أختًا، هي مجلات تصدر بعدد من اللغات، من بينها مجلات متخصصة بالطفل والمرأة.. الخ. وتقف في طليعة هذه المجلات مجلة "حراء" التي تصدر باللغة العربية، والتي لم تعد مجرد مجلة، لكنها تحولت إلى جسر للتواصل بين أبناء الحضارة الإسلامية وثقافتها وأهل الفكر فيها، مما يذكرنا بعروة الأفغاني ومنار محمد رشيد رضا، ولواء مصطفى كامل، يوم كانت الصحف والمجلات مشاريع نهوض حضاري أو تعبيرًا عن هذه المشاريع.

بالإضافة إلى مجموعة المجلات، التي تصدرها مجموعة "كاياك". فإنها تمتلك دورًا للنشر، تصدر كتبًا بلغات مختلفة، منها العربية. كما تمتلك

المجموعة موقعًا إلكترونيًا، بلغات مختلفة. كما تصدر كتبًا مدرسية متطورة، وكل هذه المطبوعات من مجلات وكتب لا تأتي عفو الخاطر ولا تصدر منبتَّة عن بعضها، لكنها تشكل عقدًا متكاملاً تقف وراءَها عقول مستنيرة يواصل أصحابها من طلاب الأستاذ كلالة الليل بكلالة النهار ليقدموا للأمة بل وللعالم خلاصة ما يصل إليه العقل المؤمن المستنير؛ وأولئك هم مجموعة "الأكاديمية"[٤] ذات الدور المتميز في التعليم الذي يصلح العقول لتصلح البيئة التي يصل إليها نتاج هذه العقول، كما علمهم الأستاذ فتح الله.

إضافة للإعلام المكتوب والإلكتروني، فقد نجحت حركة الخدمة بفضل توجيهات الأستاذ فتح الله كولن، في تأسيس منظومة إعلام مرئي ومسموع، تجسده مجموعة "درب التبانة"[٥] التي تمتلك العديد من القنوات التلفزيونية والإذاعات المسموعة. وهذه المجموعة بدورها تتحدث بلغات مختلفة، ولديها قنوات متخصصة، مثلما أنها نجحت في اقتحام مجال الدراما، فأنتجت العديد من المسلسلات الهادفة. غير أن التحدي الكبير الذي نجحت فيه مجموعة "درب التبانة" التي انطلقت وهي تفتقر إلى الكوادر البشرية المدربة، أنها وبعد خمس سنوات من انطلاقتها صارت ترفد السوق التركي بالكوادر الفنية المدربة. وكل هذه الإنجازات تعطينا الدليل تلو الآخر على دور التعليم بوسائله المختلفة في إحداث الإصلاح المطلوب، خاصة في

أدرك الأستاذ مبكرًا أن الإعلام صار شريكًا أساسًا في تعليم الإنسان وفي صياغة مفاهيمه وقناعاته وسلوكه، من هنا كان التوجه بأن يكون للخدمة وسائلها الإعلامية.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

نفس الإنسان؛ وقد تجلى هذا الأثر أثناء الأزمة الاقتصادية التي مرت بها تركيا عام ١٩٩٥م حيث برزت روح التضحية لدى العاملين في المجموعة، الذين قبلوا بتخفيض رواتبهم بل وبعدم استلامها لفترات طويلة، حفاظًا على المشروع الرسالي الذي آمنوا به. أما في أزمة عام ٢٠٠٠م الاقتصادية، والتي هددت المشروع بالإغلاق، فقد تدافع الناس للتبرع بما يملكون للمحافظة على مشروعهم الرسالي، حتى لقد تبرعت النساء بمصاغهن للحفاظ على استمرارية المشروع. وهذا السلوك يعكس أثر المصلح وأسلوبه في التعليم على المحيط.

بالإضافة إلى المؤسسات الإعلامية المهنية المرتبطة بحركة الخدمة فقد أقامت الحركة وقفًا للصحفيين والكتاب[٦]، يعتبر واحدًا من أنشط الأطر الصحفية والإعلامية والفكرية في تركيا. مثلما يتعاون الوقف مع النقابات والجمعيات الصحفية والأدبية في العالم من خلال المؤتمرات والندوات في مجال حوار الثقافات والأديان وغيرها من المناشط الثقافية والفكرية. كل ذلك لأن الأستاذ فتح الله يؤمن بأن الحوار هو من أهم وسائل التعليم وإيصال الحقيقة للناس والتأثير في قناعاتهم ومواقفهم وسلوكهم.

وسائل الدعم المادي

قد يتساءل البعض، كيف استطاعت حركة الخدمة أن تُقيم كل هذه المؤسسات؟

والجواب عن هذا السؤال يقودك إلى أثر من آثار التعليم النافع ودوره في إصلاح نفوس الناس، ومن ثم إصلاح واقعهم. ذلك أن الأستاذ فتح الله كولن وهو الذي قرأ سيرة رسول الله ﷺ ووعاها وعيًا كاملاً هو نفسه فتح الله كولن ابن عصره الذي صار فيه المال عصب الحياة كما هو في سائر العصور، لكن تَمَيُّزَ الناس يكمن في كيفية استخدام المال وتوظيفه.

وقد استوعب الأستاذ تجربة عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما في تسخير أموالهما لخدمة دعوة الله ﷻ، فجعلهما وغيرهما من الصحابة نموذجًا يَقتدي به طلابه من رجال الأعمال الذين علّمهم كيف يسخّرون أموالهم ويطهرونها عبر الخدمة، وهكذا كان، فمنذ البداية الأولى تطوع رجال الأعمال المؤمنون الذين تعلموا على يدي الأستاذ لتسخير إمكانياتهم لخدمة الدعوة ابتداء من أول بيت للطلبة أقامه الأستاذ فتح الله وصولاً إلى كل المؤسسات التي أقامتها حركة الخدمة، وجلّ ذلك يجري من خلال اتحاد رجال الأعمال "توسكون"[٧] الذي يضم آلافًا من رجال الأعمال المؤمنين بأفكار حركة الخدمة التي يبذلون في سبيلها مالهم ووقتهم وجهدهم علمًا بأن نسبة عالية من هؤلاء هم من الشباب الذين تخرجوا من مدارس الحركة ليقدموا الدليل العملي على دور التعليم في الإصلاح.

ريادة الطاهر بن عاشور

أما الشيخ الطاهر بن عاشور فإنه لم ينشغل في حياته بشيء أكثر من انشغاله بالعمل على إصلاح التعليم كأساس لإصلاح المجتمع؛ ونستطيع القول: إنه من أوائل من أصّلوا لإصلاح المجتمع من خلال إصلاح التعليم، ويكفي أن نشير إلى أنه ألَّف كتابه "أليس الصبح بقريب؟" وهو لم يتجاوز خمسة وعشرين عامًا من عمره، بعد أن أمضى ثلاث سنوات في تأليفه، وقد ضمَّنه خلاصة آرائه في إصلاح التعليم، حيث أعلن في هذا الكتاب أن "إصلاح حال الأمة لا يكون إلا بإصلاح مناهج التعليم".

بل لقد اعتبر التعليم هو وسيلة الرّقي بالإنسان وتميزه عن مرحلة الحيوانية، فقد كتب في كتابه "أليس الصبح بقريب" عن أثر التعليم قائلاً: "يفيد ترقية المدارك البشرية وصقل الفطر الطيبة، لإضاءة الإنسانية وإظهارها في أجمل مظاهرها، فيخرج صاحبها عن وصف الحيوانية البسيط وهو الشعور بحاجة نفسه خاصة، إلى ما يفكر به في جلب مصلحته ومصلحة غيره، بالتحرز عن الخلل والخطأ بقدر الطاقة، وبحسب منتهى المدنية في وقته"[٨].كما آمن الطاهر بأهمية التعليم للارتقاء بالحياة الاجتماعية فكتب قائلاً: "إن العلوم في نشوئها ونموّها وتكاملها مرتبطة بحاجة الحياة الاجتماعية، إذ تختلف أعدادها باختلاف الحاجات الداعية إليها". واعتبر إصلاح التعليم مدخلاً وأساسًا للإصلاح الشامل إذ

كتب يقول: "فإن دراسة تاريخ العلوم للوقوف على أحوال تطويرها وأطوار نموّها، ولتحديد علل قصورها وأسباب تقهقرها، تصبح مطلبًا رئيسًا من مطالب أية محاولة للنهوض والإصلاح"[٩].

آمن الطاهر وكما كتب: "بأن تغيير نظام الحياة في أي بلد يتطلب تغيير الأفكار والقيم العقلية وتغيير أساليب التعليم"، مثلما كتب في كتابه "أليس الصبح بقريب" ما نصه "أيقنت أن لأسباب تأخر المسلمين عمومًا رابطة وثيقة بأسباب تأخر العلوم". وقد أورد في كتابه هذا سببين رئيسين لتأخر العلوم عند المسلمين تفرع عنهما خمسة عشر سببًا آخر.

البعد الفلسفي في الإصلاح

بدأ الطاهر دعوته لإصلاح التعليم بالإشارة أولاً إلى مواطن الخلل التي كان يعاني منها التعليم في عصره مشجعًا المدرسين على نقد أساليب التدريس ومناهجها، وحدد هو أسباب فساد التعليم بفساد المعلم وفساد التأليف وفساد النظام العام، فأعطى الأولوية لإصلاح العلوم والتأليف. كما وجه نقدًا شديدًا لطرق التعليم وما اعتورها من خلل رافضًا أسلوب الحفظ والتلقين، داعيًا إلى الإكثار من الدروس التطبيقية لتنمية مَلَكَة الفهم والقدرة على البحث لدى الطالب.

كما كان رافضًا لما أدخل على العلوم من حواشٍ أبعدتها عن عناصرها الأصلية، فصارت هذه الحواشي حاجزًا أمام الإبداع، كما انتقد الولع بالمسائل الخلافية بين طلاب العلم وانشغالهم بالبحوث العرضية،

نسيمات nesemat.com

جهود الطاهر انصبّت على إصلاح كل مكونات العملية التعليمية/ التعلّمية من حيث إعداد وتأهيل المعلم وأساليب التدريس وإصلاح الكتب الدراسية.

وتشبثهم بالتقليد والفصل بين العلم والعمل، وشيوع التأليف لغير العمل. فقد كان الطاهر يؤمن بأن العلم يجب أن يؤثر في حياة الناس، ويدفع بها إلى الأحسن، ساعيًا للتنبيه إلى مقاصد العلوم في الحياة، وتحقيق هذه المقاصد في المجتمع بهدف تحقيق إصلاحه من خلال الإصلاح الشامل لكل مكونات التعليم. وهو ما عبر عنه عندما كتب في "أليس الصبح بقريب؟" قائلاً: "ليس العلم رموزًا تُحل، ولا كلماتٍ تُحفظ، ولا انقباضًا وتكلفًا، ولكنه نور العقل واعتداله وصلاحيته لاستعمال الأشياء فيما يحتاج إليه منها والتطهر من الغفلة، والتأهل للاستفادة والإفادة. وما كانت العلوم المتداولة بين الناس إلا خادمةً لهذين الغرضين وهما ارتقاء العقل لإدراك الحقائق، واقتدار صاحبه على إفادة غيره بما أدركه هو"[١٠]. وفي هذا القول للطاهر تجسيدٌ لإيمانه بأن استنهاض العقل وتدريبه على التفكير السليم إنما يتم من خلال اكتسابه للتعليم الذي يقود صاحبه إلى خدمة مجتمعه وبناء هذا المجتمع.

ابن عاشور وجهوده التطبيقية

لم يتوقف الطاهر بن عاشور عند حدود تشخيص الداء، بل وصف الدواء وانصرف إلى العلاج من خلال العمل عبر عضويته بلجنة إصلاح التعليم

الأولى عام ١٩١٠م، وعضويته في لجنة إصلاح التعليم الثانية عام ١٩٢٤م، وعندما تولى منصب نائب أول لدى النظارة العلمية في جامع الزيتونة باشر في تطبيق آرائه في إصلاح التعليم، فأدخل بعض الإصلاحات التي كان يؤمن بها. كما وضع لائحة لإصلاح التعليم وعرضها على الحكومة التي أخذت ببعض ما جاء فيها. كما عمل على إحياء بعض العلوم العربية فأكثر من دروس الصرف في مراحل التعليم، وكذلك دروس أدب اللغة، وقام بنفسه بتعليم شرح ديوان الحماسة لأبي تمام.

وعندما تولى رئاسة جامع الزيتونة انصرف أولاً إلى إصلاح مناهج التعليم وأساليب التدريس، ووضع نظامًا لإجراء الاختبارات العلمية، وحاول إدخال التعليم الابتدائي في مدن تونس على غرار ما فعله الأزهر، لكن العراقيل وُضعت أمام مشروعه هذا. وفي رئاسته الثانية لجامع الزيتونة أدخل إصلاحات كثيرة على النظام التعليمي أدت إلى زيادة عدد الطلاب وزيادة عدد المعاهد التعليمية.

وفي كل المراحل حرص الطاهر بن عاشور على صبغ التعليم بالصبغة الشرعية والعربية، حيث يدرس الطالب الكتب التي تنمي قدراته العلمية وتعينه على الخوض في المعاني، والتقليل من الإلقاء والتلقين، كما حرص على التأكيد على الجانب التطبيقي الذي يعين على الفهم.

نستطيع القول: إن جهود الطاهر انصبّت على إصلاح كل مكونات العملية التعليمية/ التعلّمية من حيث إعداد وتأهيل المعلم وأساليب التدريس وإصلاح الكتب الدراسية، حيث استبدل كثيرًا من الكتب القديمة، كما اهتم بالعلوم التطبيقية كالرياضيات، وشجع على التخصص. كما بدأ التفكير بإدخال الوسائل التعليمية إلى معاهد جامع الزيتونة.

مؤلفات ابن عاشور وفلسفتها

انطلقت كل إصلاحات الطاهر بن عاشور للتعليم من فلسفته التي آمن بها بوجوب أن يبتعد التعليم عن التلقين، ويستند إلى الفهم الذي ينير العقول والنفوس، ولعل في أسماء كتبه ما يعكس هذا الإيمان؛ فقد أسمى كتابه الذي ضمنه آراءه في إصلاح التعليم "أليس الصبح بقريب"، ومن المعروف أن الصبح هو وقت الضياء والنور. أما تفسيره للقرآن الكريم فقد أسماه "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد في تفسير الكتاب المجيد"، وهو اسم يعكس أيضًا فلسفته في التنوير الذي يجب أن يصنعه العلم بالمتعلم. أما اسم كتابه "مقاصد الشريعة" فإنه يجسد فلسفته في ضرورة الفهم الذي يجب أن يهدف إليه التعليم. كما تحمل أسماء كتبه الأخرى مثل "كشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ" و"النظر الفسيح عند مضايق الأنظار في الجامع الصحيح" فلسفة ابن عاشور وهاجسه بالتنوير عبر العلم الذي يقوم على الفهم.

وكان غرضه من ذلك كله العمل على إحياء مقاصد العلوم في حياة المجتمع لإصلاحه؛ فقد كان الرجل يمتلك رؤية شاملة للإصلاح الفكري والاجتماعي والاقتصادي والسياسي من خلال إصلاح

التعليم عبر إعادة صياغة التعليم صياغة تجديدية، تتخلص من الجمود لتنطلق إلى روح العصر في مسعى لتخليص المجتمع من أسباب تخلفه، خاصة الأسباب الذاتية الكامنة فيه، وهي الأسباب التي سعى الطاهر طوال حياته لإصلاح المجتمع عبر تخليصه منها مؤمنًا بأن التعليم الذي ينير القلوب والعقول هو الطريق إلى ذلك. ■

الهوامش

(١) للأسف الشديد أغلق الحزب الحاكم حوالي ٣٠٠٠ مؤسسة تربوية للخدمة ما بين مدارس متكاملة، ومراكز تأهيل جامعي، ومعاهد دعم الطلاب الفقراء، و١٥ جامعة خاصة من أشهر الجامعات في تركيا بعد الانقلاب المزعوم في ١٥ يوليو/تموز ٢٠١٦م دون أيّ مبرر قانوني، وطرد نحو ٢٥ ألف من معلّمي هذه المدارس، ثم تشرَّد الطلاب إلى مدارس أخرى. (المحرر)

(٢) صادرت الحكومة التركية في مارس ٢٠١٦م جريدة زمان" بالتركية: "ZAMAN"، وهي صحيفة يومية كانت تعد أكثر الصحف انتشارًا في تركيا، تأسست سنة ١٩٨٦م، وكانت أول الصحف اليومية التركية التي بدأت نشرها على الإنترنت سنة ١٩٩٥م. وفي ٢٧ من يوليو ٢٠١٦م عقب محاولة الانقلاب الفاشلة قررت الحكومة التركية إغلاقها تمامًا، وتسريح مئات من العاملين فيها. (المحرر)

(٣) فرضت السلطات التركية في نوفمبر ٢٠١٥م الوصاية غير القانونية على مجموعة كايناك للنشر الثقافي" التي تضم في بنيتها أكثر من ١٠٠ علامة تجارية رائجة و٢١ شركة وجمعية ومركز وقفي، وكانت تعد أكبر مجموعة نشر دينية في تركيا، كما منحت الأوصياء المعينين عليها من قبل الدولة رواتب خيالية تصل إلى أكثر من ثلاثين ألف دولار. (المحرر)

(٤) الأكاديمية: مركز يعنى بالبحث الأكاديمي والتكوين والنشر، صادرته الحكومة التركية ضمن ما صادرته من مؤسسات الخدمة بعد يوليو/تموز ٢٠١٦م. (المحرر)

(٥) أصدرت السلطات التركية قرارًا في ١٥ نوفمبر ٢٠١٥م بحجب القنوات التلفزيونية والإذاعية التابعة لمجموعة سامان يولو "درب التبانة" الإعلامية على القمر الصناعي توركسات، على الرغم من استمرار عقد تلك القنوات مع القمر الصناعي حتى العام ٢٠٢٤م، ما أدى إلى إنهاء عمل ٦٠٠ صحفي، دون تقديم الأسباب والمبررات القانونية التي تقتضي ذلك، والتي طالبت المحكمة بها إدارة توركسات. (المحرر)

(٦) تشكَّل وقف اتحاد الصحفيين والكتاب عام ١٩٩٤م، بمبادرة شخصية من الأستاذ فتح الله كولن وبمشاركة أطياف كثيرة ومتنوعة من الإعلاميين والكتاب والصحفيين، لتعزيز قيم التسامح والحوار محليًا وعالميًا. يحتوي على خمسة منتديات كبرى منها: منتدى الحوار الاجتماعي، ومنتدى الإعلاميين والكتاب ومنتدى الفنانين ورجال المسرح والمشاهير، ومنتدى للحوار العالمي مع الشعوب الأخرى. عقد كثيرًا من المؤتمرات والورش الثقافية، ويصدر عنه عديد من الكتب والمجلات والدوريات التي تعمل على نشر القيم الإنسانية التي يتبناها. وقد أصدرت الحكومة التركية في يوليو ٢٠١٦م قرارًا في ظل قانون الطوارئ المعمول به بعد محاولة الانقلاب الفاشلة بإغلاقه ومصادرة مقراته داخل تركيا، ضمن حملة المصادرات وتأميم المؤسسات التي كانت ترعاها حركة الخدمة. (المحرر)

(٧) توسكون أو "اتحاد رجال الأعمال والصناعيين الأتراك" وهي جمعية كانت تعمل منذ عام ٢٠٠٥م، وتضم في بنيتها نحو ٧ اتحادات فيدرالية و٢١١ جمعية عمالية. كانت تعد بمثابة الجسر التجاري بين رجال الأعمال الأتراك والأجانب، وكان لها ممثلون في أهم خمسة مراكز أعمال في العالم من بينهم بكين وبروكسل وموسكو وواشنطن، وقد أغلقتها الحكومة التركية مع عشرات المؤسسات والجمعيات والفيدراليات والاتحادات الأخرى، بذريعة الإرهاب للتستر على قضايا الفساد المتهم فيها أعضاء بارزون بالحكومة في ١٧ و٢٥ ديسمبر ٢٠١٣م. (المحرر)

(٨) ابن عاشور، محمد الطاهر. "أليس الصبح بقريب؟" التعليم العربي الإسلامي، دراسة تاريخية وآراء إصلاحية، تونس، دار سحنون للنشر والتوزيع، ٢٠٠٦م، ص١٢.

(٩) المرجع السابق، ص٩.

(١٠) المرجع السابق، ص٢٣٩.

محمد جكيب

أستاذ دكتور بجامعة شعيب الدكالي بالمغرب، حصل على دكتوراه الدولة في الآداب سنة ٢٠٠٢م. عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية منذ سنة ١٩٩٤م. عضو مؤسس لمنتدى الحوار الأدبي. مؤلف كتاب "أشواق النهضة والانبعاث قراءة في مشروع الأستاذ فتح الله كولن الإصلاحي".
شارك في عديد من المؤتمرات والندوات المحلية والدولية داخل المغرب وخارجه.

مواقف في زمن المحنة
قراءة في مرتكزات الخطاب

صدر عن مشروع "نسمات" كتاب نسمات الأول بعنوان: "مواقف في زمن المحنة" جُمِعتْ فيه حوارات الأستاذ فتح الله كولن مع وسائل الإعلام العربية والعالمية التي أجريت معه عقب أحداث يوليو ٢٠١٦م، بالإضافة إلى بياناتِه الصحفية بخصوص أحداث في مناطق مختلفة من العالم، ورسالتِه إلى الحكومة التركية عام ٢٠٠٨م التي تتضمن مقترحات لحل المسألة الكردية. ويُعدّ الكتاب وثيقة هامة تطلعنا على رؤى وفلسفة الأستاذ كولن في مختلف القضايا، حيث اعتبر الأستاذ جكيب -صاحب هذه الدراسة- أجوبة الأستاذ كولن في هذا الكتاب بمثابة بيانات رسمية تصدر عنه، ومن ثَمَّ قام بقراءة موسعة ومعمقة استجلى فيها معالم هذا الخطاب، وأَبْرزَ أهم سماته الفكرية والثقافية والإنسانية، وألمح إلى الأبعاد الدولية والاستراتيجية والسياسية التي تضمنها، وأشار -فيما أشار- إلى أنه خطاب لم يخرج عن دائرة الاقتناعات الفكرية والمنهجية التي آمن بها كولن وسارت عليها الخدمة منذ زمن، والتي يمكن لمسها من خلال المنجز الذي تحقق على يد رجال الخدمة.

على سبيل الاستهلال

إن ما يدل على صدق أفكار مفكر، وثبات رأيه ورصانة حكمته، وتجذُّر كل ذلك في مركز روحه، ويدل على صفاء معدنه الإنساني، هو وضوح المواقف وثباتها، وانعكاسها بالوضوح والثبات نفسه في الخطاب الذي يتبناه، دون شحوب ألوانه رغم تبدل الأحداث وتنوع الظروف.

إن للمواقف خصوصية فكرية تدل على الإنسان الذي يبدعها ويذود عنها، بعد أن يرعاها في أعماق قلبه، ويتولاها بالمتابعة والنقش والتشذيب المتواصل، ويسقيها من معين عالم المعنى. وهو جدير بأن يجد متلقيه العام والخاص في خطابه فائدة جمة، تثمر ما يبقى وينتشر، محركها الأساس هو المعقولية والصدق والإخلاص.

إن ما يؤكد مصداقية الفكرة وقوة الموقف المنبثق منها، هو أن تحافظ على البريق الأول، فلا تبهت ألوانها رغم الأحداث والشدائد، فهي أي الأفكار والمواقف إن لم يزددْ إشراقها، لا يخبو أصل بريقها الأول. ومواقف فتح الله كولن وخطابه في هذه المرحلة يؤكد فيما نرى هذه الملاحظة، فرغم جسامة الأحداث التي تعرض لها، ورغم كل الاتهامات، التي وُجهت إليه لم يغير موقعه ولم ترتبك مواقفه ولا اهتزت فرائصه، وهذا هو الدليل على مصداقية ما ظل مدى عقود طويلة يعمل على غرس بذوره في تربة المجتمع.

مَنْ تَابَع خطابَ فتح الله كولن في السنوات الأخيرة، سيسجل الملاحظات السابقة ويقف عندها متأملاً متنعمًا، وهي الملاحظة نفسها التي يخرج بها من يقرأ كتابا جَمع فيه مَنْ نَشرَه كلَّ حواراته بخصوص الأحداث الجارية، بالإضافة إلى بعض البيانات التي يعود تاريخها إلى مرحلة سابقة عن هذه الأحداث، والتي لم تفقد نضارتها وأهميتها كأنها كتبت على أثر الأحداث الجارية.

إن خطاب كولن في هذه المرحلة فرصة لإعادة التذكير بكون السياسة جزءًا صغيرًا من المنظومة الإسلامية، في الوقت الذي يحتل فيه الأخلاقي والمعاملة الحيز الأكبر.

معالم الخطاب في العنوان

عنوان الكتاب "مواقف في زمن المحنة، حوارات إعلامية مع فتح الله كولن" وهو عنوان يحمل الكثير من الدلالات والإشارات، وكأني بمن اختار هذا العنوان قد أراد توجيه المتلقي إلى ما قد يعتري المواقف من تحول وتبدل حين تتعرض للمحن والتضييق والأحداث الجسام، لكن مواقف كولن لم تتبدل رغم جسامة الأحداث والاتهامات، التي يتعرض لها، هذه هي الرسالة الضمنية التي يحملها العنوان، وهي رسالة تحمل في ثناياها رسالة ضمنية أخري مفادُها، أن هناك أطرافًا أو طرفًا آخر تغيَّرت مواقفُه خلال هذه الأزمة بصورة تلفت النظر والاهتمام.

القراءة الأولى تؤكد بأن الأستاذ لا يضطرب ولا

مرحلة المكابدة فرصة تاريخية لكولن لإعادة بسط رؤاه في الكثير من القضايا كان يحجم عن إثارتها قبل هذه الأحداث لأسباب موضوعية ومنهجية، وربما لأسباب شخصية.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

يرتبك وهو يجيب على أسئلة الإعلام، ومن الصعب الوقوف على التناقض في إجاباته، وليس هذا بالأمر الغريب على رجل خَبَرَ الواقعَ وظل عمرًا بكامله يقرأه ويفكك أسئلته باحثًا له عن أجوبته الممكنة التنزيل.

خطاب فتح الله كولن صادر من معمل القلب حيث اختمر ونضج، واعتلى مقامًا فوق الأحداث وصروف الزمن ومحن الواقع، وازداد صلابة في كهف الصبر والخلوة المستمرة والتضرُّع المتصل. وصلابةُ المواقف ومتانتها، ليست متوقفة على طبيعة الأفكار فحسب وعلى مدى قوتها، بل يعود إلى ارتباطها بالمصدر المحرك لها وبالأصل النابعة منه، وهذا المصدر بالنسبة لمواقف لرجل كان وما يزال دائمًا هو النواة المؤثثة لحياته وحياة كل من تحلَّق حوله، وشتان بين من كان مصدره الهوى وبين من جعل مصدره دائمًا نابعًا من أصل مفارق، هذا هو أول ما يوحي به هذا الخطاب للمتنعم فيه.

إيقاع الخطاب، فحوى الرسالة

يعزف خطاب هذه المرحلة عند فتح الله كولن على وترين: وترِ خطابٍ أوَّلٍ متجهٍ للعالم الإسلامي وخاصة العالم العربي، قائمٍ على تنبيه من ينبغي تنبيههم إلى خطورة الانسياق خلف ما يعرف بسيكولوجية الجماهير وخلف ما ينعت بالإسلام السياسي، الذي فرضت عليه ربما التحولات العالمية والذاتية ولذة السلطة وغياب الوعي الديمقراطي ورفض الاختلاف، سلوكًا يناقض دستوره الفكري وخلفيته النظرية حتى أبعده ذلك عن الحد الأدنى من الأخلاق والقيم التي رُفِعَت شعارًا، ووظفت أيديولوجية من أجل استمالة الجماهير والوصول إلى الحكم والسلطة، وقد يذهب الأمر إلى حد التنكر لتلك المبادئ الأساسية التي يقوم عليها وجودهم.

أما الوتر الثاني فموجَّه إلى الغرب ويقوم على محاولة تصحيح صورة الإسلام والمسلمين التي اهتزت في السنوات الأخيرة في الوعي الجماعي الغربي، ويقوم على إبراز كون الإسلام ليس دين عنف ولا دين إرهاب، ولذلك لا يفتأ فتح الله كولن يذكر في خطابه بأن الإسلام ليس دين إرهاب، وبأن المؤمن لا يمكن أن يكون إرهابيًا.

يتبنى الأستاذ فتح الله كولن في هذه المرحلة خطابًا يميل إلى إبراز قيم الإسلام السمحة، والمرتكزة على نظرة إنسانية تنظر للإنسان في كل مكان على أنه مخلوق من مخلوقات الله تعالى، يجب احترامه وتوقيره على هذا الأساس. ويتبنى خطابًا إنسانيًّا موجهًا للإنسان في كل مكان على أساس قيم أخلاقية سامية نابعة من قيم الإسلام نفسه، وهو في هذا التوجه يحاول تصحيح تلك الصورة السلبية التي انتشرت في الأوساط الغربية والتي تعتبر الإسلام دين عنف، يرفض التسامح والتعايش، وهو يعكس إلى

حد بعيد عمق تمسك حركة الخدمة، وتمسكه هو شخصيا بهذه القيم.

حكمة المرابطة

بعض أسئلة الصحافة والإعلام اتجهت إلى الاستفسار عن الأسباب الكامنة خلف عدم انجرار الخدمة إلى المواجهة مع دعاة خطاب التصعيد، والبحث عن مبررات ميكيافلية للصراع والمواجهة بعيدًا عن أخلاق الحوار وقبول الرأي الآخر. والحق أن استدراج كولن إلى المواجهة، قد وضعه والخدمة أمام امتحان أخلاقي فكري منهجي عسير، لأن الشعار الأساسي والمبدأ المركزي ذا البعد الاجتماعي والواقعي الذي يرفعه فتح الله كولن دائمًا كان محاربة أعداء الإنسان الثلاثة، الجهل والفقر والصراع، ولذلك فالانسياق إلى المواجهة مع خطاب التصعيد يهدم حقيقة الالتزام بهذه المبادئ جملة وتفصيلا.

تبدو استراتيجية دعاة خطاب الصراع والمواجهة هي جر الخدمة إلى الدائرة المجهولة، دائرة التوتر والخصومة وكل ما ينقض المشروع الإصلاحي الاجتماعي المدني. والحقيقة البارزة للعيان هي أن انجرار كولن والخدمة خلف المواجهة يقلص الأمر إلى مجرد صراع سياسي، والسياسة بطبعها متقلبة وغير مستقرة، ومواقف السياسي لا تدوم على حال واحد، وعدو اليوم قد يصير صديق الغد، وصديق الأمس قد يتحول إلى عدو.

إن أصل الاختلاف هو الاختلاف الفكري بين منهجين وتوجهين، لأن المبادئ الأساسية التي يقوم

nesemat.com نسيمات nesemat.com

يعتبر كولن الديمقراطية الحقيقية شكلاً من أشكال الشورى بالمعنى الذي يوجبه الشرع، ومن هنا يأتي إلحاحه على الديمقراطية خيارًا لا حياد عنه بالنسبة لمجتمع عصري يبحث عن إثبات نفسه في الواقع الحضاري المعاصر.

عليها منهج الخدمة والفلسفة الفكرية التي يَنظر من خلالها كولن للواقع أخلاقية التوجه، إنسانية الأبعاد، قائمة على مبادئ الإسلام الاجتماعي كما يؤكد ذلك خطابُ عدد من المثقفين والمفكرين من العالم، الذين درسوا فكر كولن والخدمة عن قرب، وكما يشهد بذلك خطاب الأستاذ نفسه المبثوث في الكتب والمقالات التي سطرها على طول خمسين سنة أو أكثر، وهو ما يشهد به المتابع العربي الذي تواصل مع فكر الرجل من خلال المترجَم من كتبه إلى العربية.

خطاب بعد النظر

سبق وأشرنا إلى ضرورة قراءة خطاب فتح الله كولن في هذه المرحلة بعينٍ فاحصة تقرأ ما بين السطور، وتقرأ المستقبل فيما يتم التعليق عليه من أحداث وسلوك في ضوء التحولات الكبرى الراهنة، فكولن المثقف والعالِم والمفكر والداعية، عندما يعرض مواقفه من التحولات الجارية التي تعرفها المنطقة، والتي لا يمكن أن يكون العالم بعيدًا عن أثرها وتأثيرها ولا بعيدًا عن توجيهها، بما في ذلك الحملة المعلنة ضده وضد الخدمة، فهو عندما يعرض كل ذلك على مجهر التشريح، لا يستعير

يؤكد كولن في خطابه بالتلميح تارة والتصريح تارة أخرى بأن أسباب النهضة لا تتأتى إلا بقدر معين من الحرية، المحكومة بالقيم والأخلاق.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

أدوات التحليل، ولا يجزِّئ الحالة موضوع التشريح، بل يستعمل أدواته الخاصة النابعة من الخصوصية الفكرية التي ينطلق منها، وهي خصوصية لا تلغي التدابير القدرية التي قد تفتقدها جُلُّ التحليلات التي تتعرض للأحداث، يضاف إلى ذلك الخبرة الطويلة التي كوَّنها الرجل بمعاصرته للكثير من الأحداث والتحولات والتقلبات الثقافية والاجتماعية والسياسية، التي عاشها موطنه تركيا وعاشها العالم من حوله.

كل الذي عاشته تركيا على مدى عمر الرجل الذي تجاوز السبعين يجعل منه شخصيةً ذات عينٍ ثاقبة وبعدِ نظرٍ لا يمكن القفز عليه ولا تجاهله، وحكمُه على الأحداث وعلى ما يجري موسومٌ بالحكمة والعمق، مع دراية بحقيقة الأشياء ومجريات الأمور. قد يكون خطابه مركِّزًا على وطنه تركيا، ولكن لا تذهب عينه ولا نظرته بعيدًا عن تقييم الوضع الدولي، وهذا ما يفسر الحجم الكبير من اهتمام وسائل الإعلام به وبالخدمة، وتسارعها من أجل محاورته والتعرف على مواقفه وآرائه، خاصة وأن الأحداث التي تعرفها المنطقة أو المناطق القريبة من تركيا، لا تُقصي تركيا ولا تستثنيها مما يجري عن قرب.

الملاحظة الأهم التي يمكن للمتأمل في هذه الحوارات الخروج بها هو انطلاق صاحب الخطاب من خطاب واضح المعالم لا يتبدل ولا يتغير رغم تبدل الأحداث ورغم تنوع الأسئلة التي توجَّه إليه. وإذا كان التحليل المنهجي لهذا الخطاب يسمح بتفريعه من أجل تيسير مقاربته وبسط مكوناته، فذلك لأنه يبتعد عن الغموض وعن الأجوبة التي تحتمل التأويل، وتحتمل تعدد القراءات.

من هنا فإن خطاب كولن فيما قدَّمه من حوارات ينقسم إلى قسمين كبيرين، بالإضافة إلى قسم ثالث يتعلق بالقضية الكردية، فأما الخطاب الأول فموجه للعالم العربي والعالم الإسلامي، والقضية الكردية جزء منه، وهو خطاب يمكن اعتباره خطابًا موجَّها للذات، ومحلِّلا كل ما يتصل بها من قضايا ومواقف ومنبِّها إياها إلى حقيقة ما يجري، ومقترِحا منهجيةً للتعامل في إطار قاعدة ما كان ينبغي أن يكون.

وأما الخطاب الثاني فهو متوجهٌ إلى الغرب، وهو خطاب يميل كما أشير إليه سالفًا إلى الرغبة في تصحيح الصورة السلبية، التي تسربتْ إلى الوعي الجمعي الغربي حول الإسلام والمسلمين بفعل السلوك غير الأخلاقي المتصاعد في هذه المرحلة.

وأما الخطاب الثالث فعلى الرغم من أنه خطاب محسوب على ذلك الخطاب الموجه للعالم الإسلامي، أو إلى الذات كما أشير إليه سالفا، إلا أنه خطاب له خصوصية؛ فمن جهة تُعتبر القضية الكردية جزءًا مهما في القضية التركية وربما تُعتبر أحد أهم القضايا

المختلَف حولها بين الخدمة ودعاة الخطاب الآخر في تركيا، وعلى اعتبار أن القومية الكردية قومية واسعة ممتدة بين عدة دول هي تركيا وإيران والعراق وسوريا، وهي قومية لها خصوصيتها الثقافية واللغوية وهو ما يفرض عدم القفز عليها أي على هذه الخصوصية، والظاهر من خلال حوارات كولن أن هذه القضية ستؤدي دورًا مؤثرًا في مجريات الأحداث في الفترة اللاحقة والقريبة جدًّا، لأن القضية ذات امتداد تاريخي وجغرافي وثقافي واسع. وقد استغلت القضية استغلالاً أيديولوجيًّا إقليميًّا ودوليًّا. وخطاب كولن في هذه المرحلة له أهميته في ظل التحولات الكبرى التي تعرفها المنطقة.

خطاب التأني لا خطاب التسرع

يلح كولن في تصريحاته الإعلامية على جملة مرتكزات ظل دائمًا ينادي بها ولم يحدْ عنها قيد أنملة، فجُلُّ -إنْ لم نقُل كل- الأفكار الواردة في حواراته لها أصل ضمني في كتبه، إذ يمكن الوقف على انسجام شبه تام بين مواقفه وأفكاره وخطابه. وعلى أساس ذلك يلح وهو يحلل الأحداث التي تجري في تركيا، وكذلك وهو يعلق على خطاب دعاة الصراع على ضرورة المشروعية القانونية، وعلى الأسس الأخلاقية وعلى المبادئ. يقول الناقد الفرنسي الشهير رولان بارت[1]: "اقرأ ببطءٍ تر الكل"، كولن من هذا الصنف من المفكرين الذين يقرؤون الواقع بتأنٍّ وحكمة وبطء إيجابي شديد، ولذلك يُفهم من خطابه الراهن أنه قرأ مقدمات الأحداث

nesemat.com نسيمات nesemat.com

وظيفة الخدمة كما يدل على ذلك خطابها المتداول في الغرب هو تقديم صورة إيجابية عن الإسلام والمسلمين وصولاً إلى فكِّ التوتر الحاصل بخصوص هذه القضية.

الجارية وكوَّن رؤية أو صورة كلية عن الأحداث ومجرياتها، وهذه النظرة الشمولية هي التي حالت دون انجرار المجتمع التركي إلى العنف.

من الأهمية بمكان التسطير على عنصر مهم وهو الدور الذي لعبه كولن في ثمانينيات القرن الماضي وتسعينياته في تبديد جو التوتر الذي كان قد وصل إلى حد رفع أطراف من المجتمع السلاح في وجه بعضهم البعض، وهو ما خلق جوًّا من العداوة والكراهية، لكن حكمة كولن وتوجيهاته فكَّتْ حدة التوتر وقادت المجتمع إلى نوع أشبه بالتوقيع المعنوي على عقد أخلاقي أساسه مصلحة الوطن، ولذلك فإن الأحداث التي تفجرت في ٢٠١٣م والتي استمرت حتى تفجَّر سيناريو الانقلاب، كانت تسير في اتجاه تبديد هذا العقد المعنوي لأنه لم يكن يخدم مصالح أطراف خطاب الصراع، ويحول دون تحقيق تطلعات هذه الأطراف في القفز فوق المؤسسات وإلغاء سلطتها وسلطة الحوار وإحلال سلطته، من خلال السيطرة على كل الآليات والأدوات التي يوظفها خطاب الاعتدال كالإعلام المحايد، ثم السيطرة على المشهد الإعلامي وتوجيهه إلى تأليب المجتمع ضد بعضه البعض، وإعداد الرأي العام الشعبي لاستقبال

nesemat.com نسيمات nesemat.com

يُفهم من خطاب كولن الراهن أنه قرأ مقدمات الأحداث الجارية وكوَّن رؤية أو صورة كلية عن الأحداث ومجرياتها، وهذه النظرة الشمولية هي التي حالت دون انجرار المجتمع التركي إلى العنف.

خطاب واحد هو خطاب الإقصاء، هذه هي الحقيقة الضمنية التي يوحي بها خطاب فتح الله كولن في حواراته.

لم يدخر خطاب الإقصاء الجهدَ من أجل جرِّ أنصار الخدمة إلى المواجهة والعنف، ذلك لأن جرها إلى المواجهة وربما إلى العنف أسهل طريق لتكسير ما يمكن اعتباره النواة الصلبة في فلسفة كولن وفلسفة الخدمة وهو الخلفية الفكرية الثابتة والمجال الحيوي الذي يعسر على الخطاب الآخر مجاراة فتح الله كولن فيه. القراءة المتأنية الحكيمة لمجريات الواقع هي التي سمحت لكولن بأن يجنِّب المجتمع أزمة صراع مجهول العواقب؛ وعلة ذلك هو شدة الالتزام بالمبادئ الأساسية التي ظل دائمًا يلح عليها، كاحترام القوانين واحترام المؤسسات، وتقديم الدليل بعد الدليل على أن الالتزام الأخلاقي بالقيم والمبادئ هو أقرب سبيل لكل استغلال عقلاني لمقدرات الوطن البشرية والثقافية والعلمية والطبيعية والاقتصادية وغيرها.

خطاب واحد في عدة صور

خطاب كولن الراهن الذي يخاطب به الإعلام الدولي ومن خلاله الرأي العام العالمي والرأي العام في وطنه، وحتى الرأي العام في العالم العربي والإسلامي، هو في الحقيقة خطاب واحد لا يتغير يؤكد مصداقية خطابه في كتبه ويؤكد مصداقية ما ظل دائمًا يدعو إليه، بمعنى أننا أمام خطاب واحد، لا يتغير، لكن المتغيِّر الوحيد الذي يمكن للمتأمل في هذا الخطاب تسجيله هو طبيعة الظرف التاريخي وطبيعة الأحداث الجارية التي تضعه تحت المحك، فقد تتغير زوايا النظر لمجريات الأحداث تبعًا للحالة النفسية، التي يكون عليها صاحب الخطاب، وطبيعة الأحداث الضاغطة ومواقف الخصوم التي لا تزداد إلا شدة، لكن الخطاب في حد ذاته وفي أساسياته لا يتغير.

ما يمكن استخلاصه من تعاليق الأستاذ ومواقفه وإجاباته قضية تحمل الكثير من الدلالات البعيدة، التي تتجاوز التعليق على الحدث أو الإجابة على السؤال، إلى ما هو أبعد من ذلك فقد يلمس من الخطاب أنه موجَّهٌ لتيارات فكرية أخرى، فالحدث في حد ذاته ليس سوى مدخل لتصريح كولن بموقفه الفكري بخصوص تيارات أخرى، قد يخاطب كولن القوى الحاكمة في تركيا، ومن خلالهم اختيارات فكرية وثقافية وسياسية معينة، لكنها في الوقت نفسه تتجاوز ذلك إلى تيارات أو اختيارات أيديولوجية فيما وراء الحدود، وعلى الخصوص فيما يعرف بـ"جغرافية العالم العربي".

منهج الرشد والعدل في خطاب كولن

الحكم الرشيد الذي يحقق الاستقرار، وينمِّي

الرصيد الفكري والحضاري، ويحقق التراكم الثقافي والفكري والمعرفي والحضاري، هو الحكم الذي يحترم المؤسسات، ويحترم الديمقراطية. يؤكد كولن على ذلك في خطابه بصورة ضمنية، لأن الاستقرار في نظره لا يتحقق إلا بتداول السلطة، وعن طريق الخيار الديمقراطي واحترام إرادة الشعوب من خلال صناديق الاقتراع. لقد حرص كولن في كل حواراته مع وسائل الإعلام على تأكيد التزامه بالاختيار الديمقراطي سبيلاً لتدبير الشأن السياسي، وتدبير السلطة وتداولها، والوصول إلى رأس الدولة.

ناقش فتح الله كولن في أحد كتبه، "ونحن نبني حضارتنا" قضية الشورى واستفاض في تحليلها وبيان ضرورتها وصفتها، وركز على بيان كونها سبيلاً ضروريًّا لتحقيق العدالة، وركَّز على إبراز أهمية الأسس التي تقوم عليها، لكنه شدَّد في الوقت نفسه على أنَّ شكلها قد يتغير وكذلك منهجها وأسلوبها حسب الظروف والملابسات التاريخية وحسب مقتضيات العصر، فشكلها أمر تابع وثانوي ما دامت تُحقّق العدالة المطلوبة، وتُحقق مبدأ التعدد في الاستشارة التي تخدم الرأي الأنسب والموقف الأصلح. ومن يتأمل في خطاب كولن بخصوص هذا الموضوع يستنتج أنه يعتبر الديمقراطية الحقيقية شكلاً من أشكال الشورى بالمعنى الذي يوجبه الشرع، ومن هنا يأتي إلحاحه على الديمقراطية خيارًا لا حياد عنه بالنسبة لمجتمع عصري يبحث عن إثبات نفسه في الواقع الحضاري المعاصر، ويبحث عن الإنصات لجميع أصوات مجتمعه.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

إن توظيف الدين للوصول إلى غايات سياسية وبسط سلطة على الناس وجرهم إلى مواقف تفتقر إلى البعد الاستراتيجي، يخرج الإسلام عن جوهره الذي جاء به للناس.

يؤكد كولن في خطابه أن احترام العدل وتحقيقه يقود إلى استقرار المجتمع، على أساس أن العدل هو أساس الحكم، والحكم الرشيد لا يتأتى إلا بالعدل، بمعنى أنه إذا انتفى العدل انهار مبدأ الرشد في الحكم، وفقد مشروعيته، وكذلك عندما يُحوِّل الحكمُ العدلَ إلى وسيلة للتسلط على الناس، فإن أحد أهم أركان الحكم الرشيد كذلك تتكسر، والأمر الضمني في هذا الخطاب هو أن الحاكم يصير مغتصِبًا للسلطة والحكم، ويصبح العدل ظلمًا؛ بل إن دعائم الدولة كلها تنهار وتتهدم.

مفهوم الدولة الضمني في خطاب كولن

يُحيل فتح الله كولن في خطابه الضمني على مفهوم الدولة، فالدولة في نظره هي المؤسسات، وأداء هذه المؤسسات لدورها الكامل على أكمل وجه ودون نقص، بل إن الدولة تصير هي المؤسسات وتحتل مكانًا فوق الأشخاص فرادى وجماعات، يأتي الأشخاص ويذهبون ويتداولون على تدبير شؤون الدولة، لكن لا أحد يحق له التماهي مع الدولة حتى يصير هو الدولة.

دفع كولن بشدة تهمة الإرهاب عنه وعن الخدمة، وتحدى المتهمِين بأدنى دليل يثبت ذلك، بل وجزم بأن أحدًا من المتعاطفين مع فكر الخدمة يستحيل أن يتورط في الإرهاب.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

ولما كانت الدولة هي المؤسسات فإن قيام هذه المؤسسات بواجبها هو لب الدولة وجوهرها، واحترام إرادة الجماهير بعدم التدخل في هذه الإرادة بالقهر والتخويف والمحاصرة ومصادرة الحق في الموقف، والحق في التعبير عن الموقف واستقلاله يلغي جوهر الدولة.

إذا كان الذين يعيشون في ظل الدولة وَاعِين بأن حقوقهم محفوظة، ويتمتعون بهامش مهم وضروري من الحرية، الذي يضمن لهم حقوقهم ويتيح للإنسان ممارسة دوره المنوط به، فإن هذا الأمر مدعاة للاستقرار، والاستقرار سبيل إلى التنمية، ومن هنا يؤكد كولن في خطابه بالتلميح تارة والتصريح تارة أخرى بأن أسباب النهضة لا تتأتى إلا بقدر معين من الحرية، المحكومة بالقيم والأخلاق، لأن من شأن هذه الحرية أن تقود إلى خلق إنسان مطمئن على نفسه وعرضه وماله وحريته، الأمر الذي ينعكس إيجابًا على قدرته على العطاء، وقدرته على الابتكار والإبداع، وتلك العناصر ضرورية لبناء حضارة قوية وصنع نهضة حقيقية.

ألح كولن في أغلب حواراته على ضرورة تكوين لجنة دولية للتحقيق في المزاعم حسب قوله التي تصدرها الجهة الحاكمة في تركيا وتتهمه بتدبير ما يعتبر إساءة للدولة، من أجل التحقيق في تلك المزاعم، لكن السؤال يثار هنا ما الغاية من إعلان هذا الأمر؟

قد تتعدد التأويلات والقراءات في هذا الباب، فقد يكون السبب مرتبطًا بما أشير إليه سالفًا، وهو انهيار ركن مهم من أركان الحكم الرشيد وهو العدل، والحال هذه أن هناك انقلابًا واضحًا وجليًّا على استقلال السلطة القضائية، وتحولها إلى مجرد أداة ووسيلة في يد خطاب الصراع والتصعيد لتوسيع سلطاته وتبرير خنقه للحريات وإلجام المعارضة، وبالتالي لا يمكن ضمان نزاهته وحياده، وقد يُعتبر نوعًا من الاستلاب السياسي الذي يمنح ثقته لجهة خارجية، أو لجهة دولية، وقد يُعتبر نوعًا من الثقة العمياء في المنتظَم الدولي، وقد يُعتبر نوعًا من أنواع القفز من أجل تدويل قضية الصراع الداخلي في تركيا ولفت الانتباه لكولن باعتباره معارضًا لتوجه سياسي ما انفك عن البحث عن السبل التي تضمن بقاءه على هرم السلطة، وربما حتى لفت الانتباه لحركة الخدمة التي قفز اسمها إلى المانشيت وتصدرت عناوين الإعلام العالمي.

كل هذه القراءات تحمل مشروعيتها، لكن الخطاب الذي يتبناه فتح الله كولن يعكس غير ذلك لأن القضية تتعلق بقيمة المؤسسات ودورها في بناء الثقة داخل المجتمع، وبين مختلف مكونات الدولة، فالخدمة وكولن ليسا في حاجة إلى اهتمام الرأي العام وخاصة الرأي العام الغربي، لأن الرأي العام

العلمي والمعرفي الغربي على الأقل يعرف الخدمة ويعرف كولن، ولا شيء يبرر لجوء فتح الله كولن ولا الخدمة إلى الدعاية لنفسها، لأن المنجز تجاوز حدود تركيا وصار عالميًّا، وهو وحده يكفل الحديث عن نفسه.

وليس الغرض من ذلك هو إبراز قيمة عدالة المنتظم الدولي وخاصة المنتظم الدولي الغربي، بقدر ما هي رسالة موجَّهة لمن يعنيه الأمر بأن فقدان الثقة في العدل وفي المؤسسات، وانهيار الثقة بين مكونات المجتمع الواحد، يفتح الطريق على مصراعيه للتدخل الأجنبي، وكأني بكولن يريد التأكيد بأن ترتيب البيت الداخلي وتقويته وتحصينه بالقوانين وبالمؤسسات النابعة من الشعب بغض النظر عن الدين وعن الثقافة وعن القومية يقطع الطريق على من يتطلعون إلى التدخل في الشأن الداخلي لوطنه، ومن خلاله التدخل في الشأن الداخلي لأوطان أخرى تربطها بهذا الوطن علاقات تاريخية وثقافية وجغرافية، وقومية بل ودينية في المقام الأول.

ومن زاوية أخرى فإن الرسالة الضمنية الأخرى هي أن فتح الله كولن يتطلع إلى ما يدعم رؤيته لمفهوم الدولة ولدور المؤسسات في تحقيق الاستقرار، وبناء الثقة بين مختلف مكونات المجتمع، وتعبيد الطريق سالكة إلى التنمية والتطور والتقدم، وكأنه يقول: إن الغرب لم يتقدم لأنه أكثر ذكاء أو لأن إنسانه يتمتع بقدرات تميزه عن غيره، بل لأنه اختار جوهر النهضة والرقي، وآمن بالمؤسسات، وتقدم في سلم الرشد والرشاد في كل المجالات وخاصة المجالات التي تحترم الإنسان.

الإرهاب من شأنه أن يولد العداوة بين أفراد المجتمع الواحد، ويزرع أسباب الفرقة، وينشر أسباب التوتر الدولي.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

يلمِّح فتح الله كولن إلى قضية ذات أهمية بالغة جدًّا وهي علاقة القوى الحاكمة في تركيا بالقيم والأخلاق. قد تبدو القضية بسيطة في أسلوب طرحها، لكنها تطرح إشكالاً دقيقًا عن علاقة السياسة بالأخلاق، من خلال سؤال ضمني حول ما إذا كانت السلطة السياسية التي بارزته العداء، والتي تدعي الاستناد إلى خلفية أخلاقية، بل ودينية تقف عند القيم وعند المبادئ، التي على أساسها وصلت إلى رأس الدولة، وعلى أساسها يتم التطلع إلى زعامة معنوية تتوسل بالقيم والأخلاق والتاريخ، وقد تتحول لأن تصير عملية خارج تركيا إقليميًّا في جغرافية العالم الإسلامي.

خطاب المكابدة في أفق صياغة متجددة

لا شك أن الخطاب الذي يصدر عن فتح الله كولن في هذه المرحلة هو بامتياز خطاب محنة، لكنه فوق ذلك فرصة قدرية بالنسبة له من أجل إعادة بناء مواقفه في ظل الأزمة، وإعادة صياغة خطابه حتى يبدد مختلف الشكوك، التي قد تكون حامت حوله مشكِّكة في مصداقيته، ومشكِّكة في خطابه.

مرحلة المكابدة فرصة تاريخية لكولن لإعادة

سيجد المتأمل في خطاب كولن وضوحًا في العبارة وغياب العبارات الغامضة التي تقبل التأويل وتقبل أكثر من قراءة، وهذا لا يتأتى إلا إذا كان من يُصدر الخطاب واعيًا بأبعاد خطابه مؤمنًا ومعتقدًا فيما يقوله.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

بسط رؤاه في الكثير من القضايا كان يحجم عن إثارتها قبل هذه الأحداث لأسباب موضوعية ومنهجية، وربما لأسباب شخصية، وربما لأنها كانت تحتاج إلى مناسبة والمناسبة شرط كما يقال، وهي قضايا تدرج في حقل الفكر السياسي. عندما انفجرت الأزمة ارتفعت بعض الأصوات التي رأت في السلوك السياسي القائم على أيديولوجيا الحزب وارتفاع نبرة خطاب الاستعداء ضد الخدمة سلوكًا طبيعيًا تفرضه السياسة، لأن السياسة هي فن الممكن، ولأنها أي السياسة لا تستقر على حال وثبات المواقف أمر نسبي، ومواقف السياسي قابلة للتحول تبعًا لمتطلبات اللعبة السياسية.

وجدتْ بعض الأطراف في خطاب الاستعداء تجاه أصدقاء الأمس وحلفائه مسلكًا غير أخلاقي تلميحًا، ودون تصريح في الغالب، ودون اتخاذ موقف واضح، مما يدل على وجود أزمة فكرية راسخة في لا وعي هذه الأطراف تتعلق بقضية غاية في الأهمية وهي: ما مدى التزام السياسي بالشعار الأخلاقي والشعار الديني، عندما تتعارض المبادئ والمصلحة السياسية، ووجدَ البعض الحل في تشكيل حزب سياسي والنزول إلى معترك الصراع السياسي.

ظل فتح الله كولن ملتزمًا دائمًا بأن ممارسة السياسة عن طريق العمل الحزبي اختيار لا يتناسب والمبادئ التي نذر حياته كلها لأجلها، ولعمري إنه لم يرفض هذا الاختيار خوفَ الفشل فيه، أو خوف انعدام الإطار البشري المؤهل للسياسة أو غياب من يستحق الثقة، ولكن لأن التحزب وممارسة السياسة بالمنطق الذي تتبناه الأحزاب السياسية، وحتى بالمنطق التي تتبناه حركات الإسلام السياسي، يؤدي إلى الصراع وإلى الفرقة وإلى الخلاف، ومحاربة الصراع والفرقة مكوِّنٌ ظلَّ كولن على مدى عمره الحركي يردد مع الشيخ بديع الزمان النورسي بأنها -أي الفرقة- عدوٌّ للإنسان، كما الجهل وكما الفقر.

لعل الخطاب، الذي يتبناه كولن هو خطاب الابتعاد بالمنظومة الأخلاقية الإسلامية عن مجال الصراع الأيديولوجي، صارخًا بملء صوته: إن توظيف الدين للوصول إلى غايات سياسية وبسط سلطة على الناس وجرهم إلى مواقف تفتقر إلى البعد الاستراتيجي، يخرج الإسلام عن جوهره الذي جاء به للناس.

تهمة الإرهاب، تأكيد خطاب الرفض

من أهم ما برز في خطاب المرحلة هو قضية الإرهاب فقد ارتبطت الأحداث باتهام كولن والخدمة بالإرهاب، ومن المهم تسجيل أن كولن كان قد نَبَذ الإرهاب قبل هذا التاريخ بوضوح، وبشكل ضمني في كتاباته، وبشكل صريح في مواقفه، وكان من

أوائل الشخصيات الدينية والفكرية في العالم الإسلامي التي أدانت أحداث الحادي عشر من سبتمبر المشهورة، فخطاب رفض الإرهاب ليس أمرًا حادثًا في خطابه بل هو أصيل عبَّر عنه في عديد من المناسبات بشكل صريح وضمني، ولم يتوقف عن التذكير بأن الإسلام أبعد ما يكون عن الإرهاب، وبالتأمل في هذا الموقف نجده موقفًا لا يخرج عن إطار موقف فتح الله المعروف، والذي أبرزه بشكل واضح في كتاباته سواء من خلال نقاشه لقضية الجهاد حين اعتبر أن الجهاد الأكبر هو المطلوب في هذا العصر نظرًا لتغير الظروف، ولأن جهاد النفس ودفعها لأن تكون في خدمة الإنسانية، ومقاومة كل أسباب الانحراف السلوكي والأخلاقي الذي جاءت به الحياة المعاصرة هو الجهاد.

وبناء على هذه الرؤية اليقينية دفع كولن بشدة تهمة الإرهاب عنه وعن الخدمة، وتحدى المتهمين بأدنى دليل يثبت ذلك، بل وجزم بأن أحدًا من المتعاطفين مع فكر الخدمة يستحيل أن يتورط في الإرهاب، لأن الإرهاب من شأنه أن يولد العداوة بين أفراد المجتمع الواحد، ويزرع أسباب الفرقة، وينشر أسباب التوتر الدولي.

ركز خطاب فتح الله كولن في حواراته وبصورة ضمنية على انتقاد الخطاب المناهض لخطابه، واعتبره أي الخطاب الآخر سلوكًا متطرفا لأنه يرهب المجتمع ويزرع الكراهية بين مختلف فئات المجتمع الواحد، بمعنى أنه يتهم خطاب الإسلام السياسي

nesemat.com نسيمات nesemat.com

حرص كولن على أن يبين بأن التحالف مع الحزب الحاكم لم يكن مطروحًا، لكن الخدمة تقدم دعمها للأفكار التي تدعم الديمقراطية، وتوسع نطاق الحريات والقضاء على الفساد ودعم الحقوق وتقوية مؤسسة العدل.

باعتباره خطابًا سائدًا في هذه المرحلة ببثه الكراهية بشتى أنواعها السياسية والثقافية والفكرية وغيرها، من خلال جعل الاتهام بالإرهاب ذريعة لمطاردة الساحرات، وهو تعبير استعمل لتبرير التصرف غير الأخلاقي الذي انتهجه دعاة هذا الخطاب لمحاصرة الصوت المعارض.

إن تفنيد اتهامات الإرهاب بقدر ما يعني كولن والخدمة يعني طمأنة الغرب وكل من أصابته فوبيا الخوف من الإسلام، خاصة وأن من أهم القضايا التي ظل كولن يشتغل عليها وإلى الآن هي قضية تقديم صورة إيجابية عن الإسلام والمسلمين في العالم كله وخاصة في الغرب، ولعل ما يصدر عن الخطاب الآخر قد يُفهم منه على أنه سلوك مرتبط بالإسلام وبمن يرفعون شعارات ذات بعد إسلامي، وقيَمُ الإسلام أبعد ما تكون عن ذلك، ومن هنا فإن كولن يَعتبر أن من مسؤوليته أن يصحح هذه الصورة، ووظيفة الخدمة كما يدل على ذلك خطابها المتداول في الغرب هو تقديم صورة إيجابية عن الإسلام والمسلمين وصولاً إلى فكِّ التوتر الحاصل بخصوص هذه القضية حتى صار لها مصطلح يعبر عنها في

مقاربة كولن للمشكل الكردي تقوم على أساس المبادئ التي تفرضها الديمقراطية، والاعتراف بالحقوق الثقافية للأكراد، ومن خلال الاعتراف بالحق في استعمال اللغة الكردية.

nesemat.com نسمات nesemat.com

الغرب هو "الإسلاموفوبيا".

خطاب التعايش والالتقاء حول المشترك

جعل كولن من خطابه في هذه المرحلة ومن خلال المنابر الإعلامية التي حاورته، مناسبة لتأكيد اقتناعاته الفكرية، التي ظل على مدى عقود طويلة يعمل على ترسيخها، فقد كانت ميوله متجهة إلى نزع كل أسباب التوتر داخل المجتمع، من خلال الإيمان بأن المجتمع فسيفساء متنوع من القوميات والثقافات والديانات والطوائف والمعتقدات الفكرية والفلسفية والسياسية والأيديولوجية، وبأن استقرار المجتمع يكمن في تعايش الجميع تحت مظلة واحدة يضبطها القانون وتضبطها الديمقراطية، ولم يمل من الإلحاح على أن الخيار الديمقراطي لا رجعة فيه لأنه هو السبيل الذي يتيح للفسيفساء المجتمعي القيام بمهمة البناء والتشييد على أكمل وجه.

قد يوحي خطاب كولن من خلال نظرته للإسلام السياسي بأنه يتبنى رؤية علمانية تبعد السياسة عن الدين، أو بالأحرى لا تحشر الدين في السياسة، وتنأى بالدين عن أن يوظف أيديولوجيا في الحقل السياسي، ويبدو هذا التوجه ضروريًّا بالنسبة لمجتمع يعرف تنوعًا ثقافيًّا وسياسيًّا كبيرًا لا يمكن تجاهله، ولذلك فالخيار الديمقراطي هو السبيل الوحيد الذي يتيح الاستقرار، وتقويض الاختيار الديمقراطي، وتحويله إلى نوع من الحكم المناقض لمبادئ الديمقراطية، لن يجلب سوى الفرقة والتنازع.

وإذا كانت مقومات هذا الخطاب متجهة إلى الداخل، بانتقاضها خطاب الخصوم، فهو كذلك خطاب متوجه للغرب من خلال الإلحاح على بيان أن ممكنات التقارب بين الغرب والشرق وحصول التفاهم حول الحيز المشترك حاضر من خلال تأكيد أهمية الخيار الديمقراطي وتقوية المؤسسات، وقد يُطرح سؤال ما مدى تناغم فكرة الديمقراطية التي لا يَرى كولن مانعًا من الانفتاح عليها وتبنيها، مع حقيقة الرؤية التي ينطلق منها، والفلسفة التي يعتمدها في بناء نموذجه الفكري الإصلاحي؟ يكمن جواب ذلك في أن كولن يعتبر الديمقراطية شكلاً من أشكال الشورى التي دعا إليها الإسلام.

إن خطاب كولن في هذه المرحلة فرصة لإعادة التذكير بكون السياسة جزءًا صغيرًا من المنظومة الإسلامية، في الوقت الذي يحتل فيه الأخلاقي والمعاملة الحيز الأكبر، ومن الإجحاف في نظر كولن اختزال المنظومة الإسلامية بما هي منظومة أخلاقية ومعاملات، في حيز ضيق هو السياسة، لقد ظل كولن حريصًا على نقل قيم الإسلام وبُعدها الحضاري إلى مجال الواقع الاجتماعي، وفتح المجتمع على آفاق واسعة تتجاوز السياسي بمسافة طويلة، ومن هنا يأتي

إلحاح الخدمة في اختيارها عن اقتناع رفض دخول مجال الغمار السياسي، دون أن يعني ذلك عدم إبداء مواقفها من الأحداث السياسية ورؤيتها للعملية السياسية بصفة عامة. لقد ظلت الخدمة وفتح الله كولن يعملان على توفير الشروط الموضوعية التي تتيح نجاح الفعل السياسي، ما دامت السياسة مجرد وسيلة لتحقيق الهدف وهو رفع مؤهلات المجتمع وقدرته على الإبداع في مجال البناء الحضاري، وتحقيق الاستقرار الضامن الأمثل لتحقيق النمو، ومن هنا يأتي انتقاده للمشروع الإخواني الذي جمع كل بيضه في سلة السياسة، فتكسر عند أول محطة، وعلى الرغم من أن كولن يثمن التجربة بصفة عامة، لكنه في الوقت نفسه ينتقدها ضمن دائرة انتقاده لتجربة الإسلام السياسي عمومًا، وما تركيز خطابه الموجَّه للعالم العربي في هذه الرحلة، سوى دعوة صريحة بضرورة قيام هذا الاتجاه الحركي السائد في أغلب أقطار العالم العربي بالمراجعات الضرورية لتجاوز الانتكاسات الفكرية والمنهجية التي توالت في الآونة الأخيرة، وفي هذا الخطاب دعوة كذلك للرأي العام للخروج من دائرة التعاطف الانفعالي، ومن دائرة سيكولوجية الجماهير، التي أتت على الأخضر واليابس خلال مرحلة ما يُعرف بالربيع العربي، والذي يَعتبره كولن -دون إخفاء- خريفًا عربيًّا لأنه أدخل بعض العالم العربي في دوامة العنف وعدم الاستقرار والفوضى، وكما سبقت الإشارة فإن كولن يعتبر الاستقرار سبيلاً أمثل لتحقيق التنمية وتحقيق

خطاب كولن في كتاب "مواقف في زمن المحنة" لم يخرج عن دائرة الاقتناعات الفكرية والمنهجية التي آمن بها كولن وسارت عليها الخدمة منذ نشأتها.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

النهضة بالتركيز على محاصرة أعداء الإنسان الجهل والفقر والفرقة، وأما التركيز على ما يقوِّي الأعداء فهو مجانبة للصواب، وهنا تبرز أحد أهم أسباب الخلاف مع حزب العدالة والتنمية، وخاصة مع زعيمه، فقد اعترض كولن على تدخل هذا الزعيم في الشؤون الداخلية لبعض هذه الدول التي عرفت ثورات عربية، من أجل أهداف ترمي إلى السلطة والهيمنة، والبحث عن بطولة دينية وسياسية.

بعبارة أخرى لقد جعل كولن من خطابه الموجَّه إلى العالم العربي محطة لتصحيح صورة نمطية وتنبيه الإنسان وإيقاظ الوعي الجمعي إلى المخاطر التي تحدق به حين يترك التركيز على الأعداء الحقيقيين، ويركز على عدوٍّ متوهم تصنعه الحماسة والانفعال والتسرع.

لا شك أن الخطاب الموجه إلى الغرب يميل إلى الطمأنة وإلى تصحيح الصورة السلبية التي قد تحصل بالنظر إلى ما يقوم به خطاب التصعيد، ومن خلال اتهام الإسلام بميله إلى العنف والتحكم والسلطوية والديكتاتورية والطغيان وكونه أبعد ما يكون عن الديمقراطية، ولا شك كذلك بأن الخطاب الذي بات سائدًا في الآونة الأخيرة في أوروبا هو أن

خطاب فتح الله كولن صادر من معمل القلب حيث اختمر ونضج، واعتلى مقامًا فوق الأحداث وصروف الزمن ومحن الواقع، وازداد صلابة في كهف الصبر والخلوة المستمرة والتضرُّع المتصل.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

الإسلام والمسلمين يميلون إلى العنف، وبأن العنف نمطُ وعيٍ لديهم لا يقبل الديمقراطية، ولذلك فَهَمُّ تصحيح هذه الصورة وهَمُّ تقديم صورة حقيقية عن الإسلام والمسلمين، هو ما يسكن خطاب كولن الموجه للغرب، ولذلك فالخدمة ابتعدت بنفسها عن كل صراع وركَّزت على تثمين خطابها القائم على خدمة الإنسان.

خطاب العقلانية والحكمة واحترام القوانين

يلاحظ بأن خطاب الأستاذ في هذا الإطار يتميز بالقوة وبالعقلانية وبالحكمة والحصافة لأنه يعتبر نفسه متحملاً لمسؤولية تقديم صورة إيجابية عن الإسلام والمسلمين، خاصة وأنه مقيم في عمق العالم الغربي، وليس هذا فحسب بل إن خطابه يحمل في طياته دعوةً للإنسان الغربي للإنصات لنداء الروح، فقد يكون لدى الإنسان الغربي نوع من الإشباع لدرجة التخمة في الجانب المادي لكنه على المستوى المعنوي في حاجة ماسة للغذاء الذي يغذِّي روحه وجوارحه، وهنا تبرز مسؤولية كولن الفكرية والمعرفية كمرشد للإنسان الغربي في مرحلة طغيان سلطان المادة وفشل كل النظريات المبشِّرة بسعادة الإنسان عن تحقيق ذلك.

الإلحاح على هذا الجانب المعنوي والأخلاقي والروحاني، يحمل في طياته رفضًا باتًّا للعنف ورفضًا باتًّا للإرهاب، وإلحاحًا متكررًا على أن الإسلام ليس دين إرهاب، وبأن المسلم الحق لا يمكن أن يكون إرهابيًّا، وهي قضية تحمل كذلك في طياتها تأكيدًا ضمنيًّا بأن ممارسة الإرهاب باسم الدين وباسم الإسلام انحراف عن حقيقة الدين وعن حقيقة ما يحمله من قيم إنسانية إيجابية.

خطاب كولن الموجه للغرب ليس خطابًا مغازلاً ولا خطابًا انبطاحيًّا، بل هو خطاب يعمل على تحميل هذا الغرب مسؤوليته التاريخية في ضرورة الدفاع عن الديمقراطية من خلال حث الغرب ممثَّلاً في أمريكا وفي الاتحاد الأوروبي وفي حلف الناتو على التدخل من أجل الوقوف في وجه كل من ينتهك حقوق الإنسان في كل مكان، والانتهاكات التي يتعرض لها المواطنون الأتراك في تركيا جزء من ذلك.

من أهم ما أكده كولن في هذا الخطاب هو الإلحاح على الإيجابية التي يتمتع بها أبناء الخدمة، من خلال تأكيد مستواهم الثقافي ومستوى وعيهم الاجتماعي ومدى احترامهم للقانون والتزامهم بذلك، بالإضافة إلى التأكيد على الطابع التطوعي الذي يميز عملهم، والغاية من ذلك هو تأكيد استحالة تورط من ينتمون للخدمة فيما يمكن أن يكون خروجًا عن القانون.

ردًّا على سؤال إمكانية تورط أبناء الخدمة في الانقلاب، يتجه خطاب فتح الله كولن مرة أخرى للطمأنة وتصحيح الصورة، وهو أن من ينتمي

للخدمة لا يمكن أن يتورط في مثل هذه الأمور الخارجة عن القانون والخارجة عن السبل الحقوقية، وإذا وُجِد من تورَّط من أبناء الخدمة في الانقلاب فهو خيانة لقيم الخدمة (العبارة له). وبخصوص قضية التسرب إلى دواليب الدولة التي اتُّهمت بها الخدمة يؤكد كولن بأن القضية فيها كثير من الادعاء، لأن التسرب لا يتم من خلال المواطن التركي، بل لا يُعتبر التسرب تسربًا إلا عندما يقوم غير الأتراك بالتسرب إلى دواليب الدولة، أما من التحق بوظائف الدولة وفق ما تمليه القوانين والشروط الموضوعة وتم احترام ذلك، فلا يمكن اعتبار ذلك تسربًا، ولا إخلالاً بالحقوق التي يضمنها القانون والدستور لكل مواطن التزم بذلك.

البيان في خطاب البيانات

وبالارتباط بهذا الموضوع، ينبغي الإلحاح على سعي كولن في خطابه على طمأنة الغرب من خلال الإجابة على الأسئلة التي يطرحها إعلامه، والتي تعكس في الوقت نفسه طبيعة المخاوف التي يطرحها الرأي العام الغربي، وربما حتى الرأي العام الرسمي، ولذلك يحرص كولن في أجوبته على أن يكون واضحًا وصريحًا، فأجوبته يمكن اعتبارها بيانات رسمية تصدر عنه.

سيجد المتأمل في خطابه وضوحًا في العبارة وغياب العبارات الغامضة التي تقبل التأويل وتقبل أكثر من قراءة، وهذا لا يتأتى إلا إذا كان من يصدر الخطاب واعيًا بأبعاد خطابه مؤمنًا ومعتقدًا

nesemat.com نسيمات nesemat.com

رغم جسامة الأحداث التي تعرضت لها الخدمة، ورغم كل الاتهامات التي وُجهت إلى الأستاذ كولن لم يغير موقعه ولم ترتبك مواقفه، وهذا دليل على مصداقية ما ظل يعمل على غرس بذوره في تربة المجتمع.

فيما يقوله، فهو لا يطلق الكلام على عواهنه، ولا يتكلم من أجل أن يتكلم، ولعل ما تخفيه أسئلة الإعلام الغربي بخصوص هذا الموضوع هو أن يكون في الخدمة جانبٌ سريٌّ، وهو ما حرص خطاب كولن على تبديده من خلال تأكيد التزام الخدمة بالقوانين حتى في الدول التي توجد فيها خارج تركيا. فالخدمة تكون حريصة على الالتزام بالقوانين التي تنظم تلك الدول، ولذلك ما يفتأ كولن يلح على ما يمتاز به الغرب من احترام لحقوق الإنسان واحترام للقانون واحترام للمسلك الديمقراطي، وفي الوقت نفسه نجد خطابه يذهب إلى حد الإشادة بالقوانين الأمريكية والإشادة بمدى قوة مؤسسة العدل، وأبدى استعداده للتعامل معها متى طُلِب منه ذلك، ومما ينبغي لفت الانتباه إليه في هذا الخطاب هو حرص كولن على التعامل بمنطق الرجل الحكيم والرجل المسؤول الذي تهمه مصالح وطنه، ولذلك فهو دائم الوقوف على قيمة الاتفاقيات الدولية التي وقعتها تركيا مع المنتظم الدولي، كالالتزام بالديمقراطية والالتزام بمبادئ حقوق الإنسان، واحترام الحريات، وهي كلها مقومات يسجل كولن تراجعًا كبيرًا عنها،

يتبنى الأستاذ كولن في هذه المرحلة خطابًا يميل إلى إبراز قيم الإسلام السمحة، والمرتكزة على نظرة إنسانية تنظر للإنسان في كل مكان على أنه مخلوق من مخلوقات الله تعالى، يجب احترامه وتوقيره.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

وكأنه متضجر من نقض الالتزامات الدولية، خاصة وأن هذه الالتزامات كانت عنصرًا داعمًا للمسلسل الديمقراطي.

وإجابة على قضية التحالف مع الحزب الحاكم في تركيا، وهي قضية أثارها الإعلام العربي كذلك، حرص كولن على أن يبين بأن التحالف لم يكن مطروحًا، لكن الحركة تقدم دعمها للأفكار التي تدعم الديمقراطية، وتوسع نطاق الحريات والقضاء على الفساد ودعم الحقوق وتقوية مؤسسة العدل وتقوية استقلاليتها عن السلطة التنفيذية، والحد من تصنيف الدولة لمواطنيها على أساس أيديولوجي ولم يكن الأمر في أي وقت من الأوقات متجهًا إلى التحالف مع أيديولوجية محددة باعتبارها مرجعيته.

القضية الكردية وخطاب الحريات الثقافية

من أهم القضايا التي يمكن اعتبارها نقطة بارزة في خطاب كولن في هذه الحوارات وفي الحوار المتجه إلى الغرب، والتي احتلت مكانًا مهمًّا في خطاب كولن، هي القضية الكردية، إذ الظاهر أن هذا الموضوع قد شكّل سبب خلاف حاد بين رؤية فتح الله كولن والخطاب الآخر المعترض على رؤيته، ففي الوقت الذي مال فيه هذا الأخير إلى تغليب الخيار الأمني، في التعامل مع القضية الكردية، من خلال تقوية حضور الجيش الذي لم يتورع عن القيام بعمليات عسكرية والتي كانت توقع ضحايا بين المدنيين من أطفال ومسنين ونساء، مع ما يخلفه ذلك من مآسٍ وكثير من الجرحى، بل ويخلق جوًّا من التوتر بين الدولة ورعاياها في المناطق الكردية، ولذلك فإن الخدمة كانت تطرح مقاربة أخرى لحل المشكلة الكردية.

كان عند كولن مقاربة أخرى بخصوص هذا الموضوع كان قد طرحها قبل هذه المرحلة، لأن القضية الكردية قضية لا تتعلق بتركيا فحسب بل هي قضية دولية، إذ يوجد الأكراد في العراق وفي إيران وفي سوريا، ومن الصعب إخماد نار النزعة القومية إذا تم إشعالها، ولذلك تكون المقاربة الأمنية غير المحسوبة أحد العوامل التي قد تساهم في استفحال المشكل بدل تطويقه ومحاصرته،

ولذلك لا يفتأ كولن عن التذكير بأن مقاربة المشكل الكردي كانت موضوع رسالة وجهها لمن بيده مسؤولية تدبير شؤون الدولة سنة ٢٠٠٨م وما يُلمس في هذه الرسالة هو أن مقاربة كولن للمشكل الكردي تقوم على أساس المبادئ التي تفرضها الديمقراطية، والاعتراف بالحقوق الثقافية للأكراد، ومن خلال الاعتراف بالحق في استعمال اللغة الكردية، وتضمنت الرسالة جملة من مقترحات تقوم على الإعمار حتى تصير المنطقة منطقة جذب، كما يقول، وعلى دعم

التعليم، وتوفير الرعاية الصحية للأهالي، وتغيير الصورة النمطية التي تكونت عن الجيش في وعي الإنسان الكردي، من خلال تعيين مسؤولين عسكريين قادرين على التواصل مع المواطنين والتفاعل معهم تفاعلاً إيجابيًّا، وخلق أسباب الاستقرار ونبذ العنف، وتحسين السلك الإداري، وفتح المجال أمام هيئات المجتمع المدني من أجل القيام بما يلزم دعمًا لدور الحكومة.

على سبيل الخلاصة

وعلى العموم هذه أهم الخطوط التي تبرز في خطاب كولن وهو يتوجه إلى الرأي العام الدولي وإلى الرأي العام المحلي، والظاهر من خلال التأمل في مكونات هذا الخطاب، الذي يجمع بين البعد الفكري والبعد الثقافي والإنساني، والبعد الدولي الاستراتيجي، والبعد السياسي، أنه خطاب لم يخرج عن دائرة الاقتناعات الفكرية والمنهجية التي آمن بها كولن وسارت عليها الخدمة منذ زمن، والتي نجدها مبثوثة في كتبه، والتي يمكن لمسها من خلال المنجز الذي تحقق على يد رجال الخدمة في مجال محاربة الجهل، ومحاربة الفقر ومحاربة التفرقة والصراع، كما أن الخطاب يبرز وجود اختلاف عميق في نظرة الخدمة للدولة، ونظرة خصومها، ففي الوقت الذي يميل فيه الخصوم إلى تدبير شؤون الدولة بمنطق سياسة فن الممكن، والمقاربة الأمنية، واعتبار السلطة والتحكم هي الغاية الأساسية للسياسة والزاوية الوحيدة للنظر

nesemat.com نسيمات nesemat.com

خطاب الأستاذ في هذا الكتاب يتميز بالقوة وبالعقلانية وبالحكمة والحصافة إذ يعد نفسه متحملاً مسؤولية تقديم صورة إيجابية عن الإسلام والمسلمين، خاصة وأنه مقيم في عمق العالم الغربي.

إلى الدولة، في الوقت الذي تقوم فيه رؤية كولن على مبدأ تداول السلطة عن طريق الديمقراطية، وتقوية الحريات، وفتح المجال أمام المجتمع المدني للقيام بواجبه بعيدًا عن التوتر الذي يخلقه تصنيف المواطنين على أساس أيديولوجي، وعن طريق ضمان الدولة للحريات وخاصة في مجال الإعلام، لأن من شأن ذلك فتح الباب أمام فئات المجتمع للتعبير عن ذاتها وعن مواقفها وهو ما يكفل بأن يصنع حيوية المجتمع ويضمن استقراره، هذا الاستقرار الذي يعتبره الأستاذ فتح الله كولن الضامن الأول لتحقيق النهوض، فالاستقرار سبيل من سبل إتاحة الفرصة أمام المجتمع من أجل الإبداع والمساهمة في التنمية، ليخلص هذا الخطاب إلى تثمين قصة الحوار والنقاش، فكل الخلافات يمكن تجاوزها عن طريق الحوار. ■

الهوامش

(١) رولان بارت (١٩١٥ ١٩٨٠) فيلسوف فرنسي، ناقد أدبي، دلالي، ومنظر اجتماعي. أثّر في تطور مدارس عدة كالبنيوية والماركسية وما بعد البنيوية والوجودية، بالإضافة إلى تأثيره في تطور علم الدلالة. يعتبر من الأعلام الكبار - إلى جانب كل من ميشيل فوكو وجاك دريدا وغيرهم- في التيار الفكري المسمّى ما بعد الحداثة. (المحرر)

المسألة الكردية وجهود "الخدمة" كفاعل مدني

منى سليمان

كاتبة وباحثة متخصصة في الشؤون الإقليمية والدولية، ماجستير في العلاقات الدولية، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة. لها عديد من الدراسات المحكمة والمقالات السياسية التحليلية، مهتمة بالشأن التركي ولا سيما حركة الخدمة وفكر الأستاذ "كولن". نشرت عددًا من المقالات والدراسات في هذا الموضوع منها: "كولن وأردوغان.. مَن المنتصر ومَن الخاسر بعد عام على الانقلاب الفاشل؟" وغير ذلك من المقالات والدراسات.

لقد اكتسبت هيئات المجتمع المدني في العالم عمومًا وفي تركيا خصوصًا -ولا سيما في العقود الأخيرة- أهمية كبيرة، لما تتسم به من أنشطة تطوعية، وتكاتف مجتمعي حول قضايا ورؤى إنسانية مشتركة تعود بالنفع على الصالح العام، ويتفق الجميع على جدواها. وقد كان لحركة "الخدمة" -بوصفها أحد الفاعلين المدنيين غير الحكوميين- جهودٌ كبيرةٌ في "القضية الكردية" سواء في مناطق شرق تركيا ذي الأغلبية الكردية أوإقليم كردستان العراق، حيث لعبت هذه الجهود دورًا هامًا في التنمية وبناء ثقافة التعايش ونشر فكرة تقبل الآخر، من خلال مؤسساتها التعليمية والتربوية التي أنشأتها هناك، مما كان لها صداها في تهدئة الوضع الأمني، وتهيئة البيئة -ولا سيما في شرق تركيا- لإحلال ثقافة السلام الدائم قبل أن تتفاقم الأمور مؤخرًا بسبب مغامرات السياسيين. وسوف تُلقي هذه الدراسة الضوء على هذه المجهودات الهادفة لإبراز دور الفاعل المدني غير الرسمي في التنمية والحيلولة دون تفاقم الأزمات، وتهيئة الأجواء لنشر ثقافة السلام والتعايش.

اضطلعت منظمات المجتمع المدني في العقود الثلاثة الماضية بدور هام في التنمية وحل النزاعات في عدد من الدول، لما تتمتع به من صفات منها: الطابع غير الربحي، والمبادرة الخاصة والكفاءة والفعالية. وحققت نجاحًا ملموسًا في حل النزاعات في أزمات متعددة في أنحاء العالم.

وفي شرق تركيا ذي الأغلبية الكردية وإقليم كردستان العراق كان لجهود حركة "الخدمة" -باعتبارها أحد الفاعلين المدنيين غير الحكوميين- دورٌ هامٌ في التنمية وبناء ثقافة التعايش ونشر فكرة تقبل الآخر، من خلال مؤسساتها التعليمية والتربوية التي أنشأتها هناك، وتبني الفاعلين المجتمعيين لمشاكل المنطقة والعمل على إيجاد حلول مؤسساتية لها، مما كان لهذه الجهود صداها في تهدئة الوضع الأمني، وتهيئة البيئة -ولا سيما في شرق تركيا- لإحلال ثقافة السلام، وفي هذه الدراسة سوف نتناول هذه القضية من خلال ما يأتي:

أولاً: القضية الكردية

ثانيًا: جهود "الخدمة" في مناطق الصراع

ثالثًا: قراءة تقييمية

رابعًا: انتقادات موجهة

أولاً: القضية الكردية

مرت القضية الكردية بمراحل متعددة، سنحاول في السطور التالية تكوين فكرة عامة عنها، ووضع الأكراد عمومًا، وأكراد تركيا بشكل خاص، ثم سنتناول تطورات الملف الكردي ابتداءً من تورجوت أوزال وانتهاءً بالسلطة الحاكمة حاليًا في تركيا "حزب العدالة والتنمية".

nesemat.com نسمات nesemat.com

ينبغي أن تكون اللغة الكردية لغة اختيارية في مدارس جنوب شرق تركيا، لأن التعليم باللغة الأم حق إنساني لا يصحّ أن يكون موضوعًا لأي مساومة سياسية.

أ- "الأكراد" نظرة تاريخية:

الأكراد هم شعوب استوطنت هضبة الأناضول منذ العصور القديمة، وانتشرت حتى منطقة غرب إيران الحالية، وبعد تفكك الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨م خاضت العشائر الكردية حربًا لإنشاء دولة خاصة بهم وتحقيق حلمهم بإقامة دولة كردية في كردستان الكبرى، التي تضم الأراضي الكردية في غرب إيران وجنوب شرق تركيا وشمال العراق وشمال غرب سوريا[1]، بيد أن كل مساعي الأكراد في إقامة دولة مستقلة لهم منذ قرن تقريبًا حتى الآن قد فشلت، لرفض القوى العالمية والإقليمية لذلك. وانتهت كل المحاولات الكردية بإقامة منطقة حكم ذاتي في إقليم كردستان العراق منذ عام ١٩٧٤م وفق اتفاق الجزائر بين حكومة الإقليم والحكومة المركزية في بغداد.

تعرضت الشعوب الكردية في كلٍّ من جنوب شرق تركيا وشمال غرب سوريا وغرب إيران للاضطهاد بأشكاله المختلفة من قبل حكومات تلك

إن تعيين جنود وضباط من القوات المسلحة يحسنون التواصل مع أهالي المنطقة والاندماج معهم، يعمل على إزالة الصورة النمطية الخاطئة التي تشكلت في أذهان الشعب الكردي عن الجيش التركي عبر عقود.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

الدول، وعانت بسبب ذلك الاضطهاد من مشاكل عديدة، فقد انتشر -في مناطق الأكراد- الفقر والأمية والعنف، خاصة في المحافظات الكردية التركية.

ب- الأكراد في تركيا:

يبلغ تعداد الأكراد في تركيا نحو ١٥ مليون نسمة، أي نحو سُدس سكان تركيا[٢]. ولقد أدى تهميش مناطق الأكراد بشرق تركيا واستبعادها من خطط التنمية من قبل الحكومات التركية المتعاقبة إلى التحاق أبناء تلك المناطق الكردية بحزب العمال الكردستاني الانفصالي المسلح الذي يتخذ من شمال العراق في منطقة جبال قنديل مركزًا له. ويتزعم هذا الحزب "عبد الله أوجلان" المعتقل حاليًا "بسجن إميرالي" في تركيا منذ ١٩٩٨م حتى الآن. وقد قام هذا الحزب منذ تأسيسه عام١٩٨٢م بمحافظة ديار بكر في جنوب تركيا بشنِّ عمليات إرهابية مكثفة ضد الحكومة التركية في جنوب البلاد مما أسفر عن مقتل ٤٠ ألف قتيل وخسارة أكثر من ملياري دولار.

جـ- العدالة والتنمية والملف الكردي:

بسبب ميول حزب العمال الكردستاني الانفصالية كانت الدولة التركية دائمًا ما تتبنى الحلول الأمنية للحيلولة دون انفصال هذه المناطق عن الدولة المركزية، وكانت هذه الحلول كثيرًا ما تؤدي إلى خسائر في أرواح المدنيين من الأكراد وتشريد عديد منهم من قراهم ومدنهم، مما كان يفاقم الأزمة ولا يساعد على حلها. ولم تظهر الحلول المدنية إلى الوجود إلا في عهد الرئيس التركي "تورجوت أوزال"، حيث طرح حزمة من المشاريع التنموية التي من شأنها أن تقضي على كثير من مشاكل المنطقة كالفقر والبطالة، وتجفيف منابع الإرهاب التي تتمثل في مد حزب العمال الكردستاني المسلح بالعناصر البشرية.

ولكن بوفاة "تورجوت أوزال" المفاجئة عام ١٩٩٣م، توقفت هذه المشاريع التي كان من أبرزها مشروع جنوب شرق الأناضول والذي كان يشار إليه اختصارًا بـ"GAP" لتعود مرة أخرى الحلول الأمنية أشد ضراوة وعنفًا، وليغرق الشرق التركي في مستنقع العمليات المسلحة من قبل الطرفين، التي تؤدي إلى إزهاق أرواح المدنيين وتشريد الأهالي ونزوح العائلات إلى مناطق أخرى أكثر أمنًا.

وعندما تولى حزب "العدالة والتنمية" مقاليد الحكم بتركيا عام ٢٠٠٢م أعلن عن رغبته في وضع حدٍّ لهذا النزاع الدموي المسلح، فبدأ باتخاذ خطوات جادة في هذا الصدد، حيث بدأ بالفعل عام ٢٠٠٤م تخفيف بعض القيود على استخدام اللغة الكردية، والاعتراف بالهوية الكردية. وقد جاءت هذه الإجراءات ضمن حزمة الإصلاحات التي طالب الاتحاد الأوروبي أنقرة بتنفيذها قبل الانضمام إليه، ورغم هذا فقد كان أثرها إيجابيًا في تهدئة الأزمة.

كما أسهمت عديد من الإصلاحات الديمقراطية التي أوصى بها الاتحاد الأوروبي من الحد -بشكل كبير- من تدخل الجيش التركي في الشأن السياسي بالبلاد، مما ألقى بظلاله على القضية الكردية حيث تعاملت معها النخبة السياسية التركية آنذاك بنهج جديد بغية حلها. وقد تمثلت تلك الإجراءات -حينها- في إلغاء محاكم أمن الدولة، وضمان السيطرة المدنية على مجلس الأمن القومي، وإلغاء عقوبة الإعدام، وإلغاء قانون الطوارئ في جنوب شرق تركيا حيث يتركز الأكراد، والسماح بإنشاء قناة تلفزيونية رسمية ناطقة باللغة الكردية، وإنشاء مراكز خاصة لتعليم اللغة الأم أي اللغة الكردية[٣].

ويمكن أن نطلق على تلك الفترة مرحلة "انفراج الأزمة في هذه المناطق" التي استمرت عقدًا كاملًا تقريبًا منذ ٢٠٠٤م حتى ٢٠١٣م، حيث كثف الفاعلون المدنيون -بمختلف أطيافهم وتوجهاتهم- نشاطاتهم في المنطقة، وواصلت حركة "الخدمة" جهودها التي كانت بدأتها منذ التسعينات إبان عهد الرئيس الراحل "تورجوت أوزال"، إذ كثفت من تواجدها في محافظات جنوب شرق تركيا، وضاعفت عدد مؤسساتها التعليمية والتربوية والاقتصادية لمواجهة الجهل والفقر والقضاء على العنف في تلك المناطق.

وقد بدأت خلال تلك المرحلة مفاوضات السلام بين حكومة حزب العدالة والتنمية وحزب العمال الكردستاني بعقد محادثات سرية في العاصمة النرويجية "أوسلو" عام ٢٠٠٩م، وعُرفت شعبيًّا باسم "عملية أوسلو". وشملت الاجتماعات ممثلين عن حزب العمال الكردستاني وبعض أعضاء الشتات الكردي والمسؤولين الأتراك. غير أن هذه المحادثات لم تدم طويلاً، فقد فشلت عام ٢٠١١م، ثم أعقبها عودة عمليات العنف المتبادل بين الطرفين حيث سجل عام ٢٠١٢م العام الأكثر عنفًا بجنوب شرق تركيا منذ عام ١٩٩٩م.

ثم أُعلنت "هدنة" خاض بعدها الطرفان مفاوضات استمرت عامًا ونصف العام، غير أن تلك الهدنة لم تستمر طويلاً أيضًا، فقد نُقضت منتصف عام ٢٠١٤م بعد اتهام حزب العمال الكردستاني للحكومة التركية باستهداف تجمع انتخابي كردي بإسطنبول، مما دفع الحزب لاستهداف مقار الشرطة التركية في جنوب البلاد وعادت دائرة العنف المتبادل بين الطرفين مرة أخرى[٤].

nesemat.com نسيمات nesemat.com

انتشرت فكرة "مجالس الشاي" وتعاطف معها السكان المحليون ورجال الأعمال الأكراد الأثرياء، فسارعوا إلى تأييدها وقدموا الدعم المادي اللازم لإنشاء المؤسسات التعليمية في المناطق الكردية.

ثانيًا: جهود "الخدمة" في مناطق الصراع

تتبنى حركة "الخدمة" "قيمًا إنسانية سامية متسقة مع المعايير والأعراف الدولية والإعلان العالمي لحقوق الإنسان ومنها: احترام حقوق الإنسان، والمساواة بين المواطنين دون أي تمييز، واحترام

إن اختلاط الأطباء بالعائلات من خلال الممارسة المهنية، وعن طريق الأطفال الذين يدرّسونهم، سيسهم في غرس أفكار وآمال ورؤى إيجابية في نفوس الأهالي.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

المعتقدات وتقبّل الآخر، والانفتاح على الحوار، وتنزيه الدين عن الأغراض السياسية الحزبية الضيقة، واحترام القانون، وعدم استغلال إمكانيات الدولة استغلالاً سيّئًا، والالتزام بالمسار الديمقراطي في إدارة البلاد، ورفض استخدام السلطة لإكراه الأفراد والمجتمعات على معتقدات معيّنة، والثقة في المجتمع المدني، وتوظيف التعليم لإحلال ثقافة السلام في المجتمعات"[٥].

وتعد هذه القيم التي تؤمن بها حركة الخدمة منطلقًا إيجابيًّا تعمل من خلاله على رأب الصدع في كل المناطق التي تنشط فيها، وسوف نوضح هنا رؤية الخدمة الفكرية والتطبيقية التي عملت من خلالها على معالجة الآثار السلبية الناجمة عن النزاع المسلح في مناطق جنوب شرق تركيا ذي الأغلبية الكردية، وإعادة تأهيل الإنسان والعمران لتجفيف منابع الإرهاب، والوصول بالمنطقة إلى المستوى المنشود من الازدهار الحضاري.

١. الرؤية الفكرية

تعد الرسالة المطولة التي بعث بها الأستاذ "فتح الله كولن" عام ٢٠٠٨م إلى رئيس الوزراء التركي آنذاك "رجب طيب أردوغان" بمثابة وثيقة حية تعبر عن رؤية الأستاذ ومن ثم الخدمة في كيفية القضاء على الأزمة من جذورها، وإحلال قيم الأمن والسلام والتعايش والتنمية والازدهار، محل الإرهاب والترويع وإزهاق الأرواح وتخريب المدن وتشريد المجتمعات وتبديد الممتلكات.

أوضح الأستاذ "كولن" في بداية رسالته أن الحل الأمثل لعلاج أي مشكلة والتصدي لحلها لا يكون بإزهاق الأرواح وهدم المنازل على أصحابها وإحراقهم فيها وإثارة الفوضى وإشعال الفتن وتأجيج الصراعات، إنما ينبغي التصدي لها بنور العقل والحكمة، وتغليب جانب الرحمة على جانب الانتقام والتنكيل. وتضمنت مقترحاته لحل هذه المشكلة ما يأتي[٦]:

أ-الإعمار: يجب أن تتركز أولوية الحل على مسألة إعمار المنطقة (المقصود بها محافظات الأغلبية الكردية في جنوب شرق تركيا)، بحيث تصبح مركز جذب، من خلال العمل على تنمية المنطقة لإعادة بنائها وإحيائها بصورة متكاملة حتى تعود مركزًا هامًّا للحضارة والازدهار، وترتقي إلى مستوى من العمران يغبطها عليه الجميع، ويشعر سكان هذه المناطق بالرضى عن أوضاعهم والسعادة بتواجدهم فيها كما كان عليه الحال في التاريخ. وينبغي بذل كافة الجهود بجدية تامة وإخلاص كامل لتحقيق التنمية المستدامة وتحويل المدن الشرقية إلى حواضر زاهرة.

ب-التعليم: ينبغي أن يُنظر إلى مسألة التعليم في المنطقة بشكل جدي؛ لأن حلَّها سيحل تلقائيًّا مشاكل

أخرى عديدة. كما يجب التركيز على نوعية المعلمين الذين يُعيَّنون للتدريس في هذه المناطق، إذ عليهم أن يتلقوا تدريبًا خاصًّا يؤهلهم للتضحية حتى بأنفسهم من أجل تعليم إخوانهم هناك، وينبغي أيضا أن يذهبوا إليها دون أن يفكروا بالعودة إلى مدنهم، بل ينبغي أن يفكروا بأنهم ذهبوا ليموتوا هناك ويدفنوا هناك. ينبغي إرسال معلمين أكفاء يمتازون بروح الإيثار والبذل، ويحملون أهدافًا سامية وغايات نبيلة، لينشئوا جيلاً متوازنًا سليمًا إذا توفرت لديهم المؤسسة التربوية المتكاملة. وسوف تكون شهادات طلاب هذه المدارس وخاصة صغار السن منهم عن معلميهم هؤلاء شديدة التأثير في نفوس ذويهم، وسيكون لها وقعها الإيجابي في تليين مشاعر الأهالي وبعث الثقة في نفوس أهل شرق تركيا كافة إزاء أهل غرب تركيا.

جـ-السماح بتدريس اللغة الأم "الكردية" والتحدث بها: لقد اقترح العلامة "بديع الزمان سعيد النورسي" مشروعًا بتأسيس جامعة باسم "مدرسة الزهراء" في مدينة وان شرقي تركيا منذ عهد المشروطية "الدستور" ١٩٠٨م. كما اقترح أن تُدَرَّس اللغات الثلاث "العربية والتركية والكردية" جنبًا إلى جنب في تلك الجامعة، على أساس أن يكون تدريس العربية فرضًا والتركية واجبًا والكردية جائزًا، وهو ما نكرر اقتراحه اليوم كجزء من الحل للقضية الكردية، أن تكون اللغة الكردية لغة اختيارية في مدارس جنوب شرق تركيا، وكذلك يجب أن تُنشأ إذاعات وقنوات تلفزيونية كردية، لأن التعليم باللغة الأم حق إنساني لا يصحّ أن

بحلول عام ٢٠٠٩م، بلغ العدد الإجمالي لمؤسسات التعليم العالي -التي أسستها الخدمة- في المحافظات الكردية نحو ٢٨٩ مؤسسة تقدم خدماتها لنحو ٨٤٢٨٢ طالبًا.

nesemat.com نسمات nesemat.com

يكون موضوعًا لأي مساومة سياسية. وهذه الأنشطة التربوية ستُسهم في منع الصعود إلى الجبال. (المقصود هنا منع التحاق الشباب بحزب العمال الكردستاني وهذا ما حدث فعلاً وسيتم توضيحه لاحقًا).

د-الرعاية الصحية: ينبغي الاهتمام بالرعاية الصحية عبر توفير مؤسسات ومراكز صحية في هذه المناطق. ويمكن تخصيص طبيب ممارس عام لكل قرية كردية. ويمكن لهؤلاء الأطباء إلقاء دروسٍ ومحاضرات في المدارس حول الطب الوقائي لرفع مستوى الوعي الصحي، والحيلولة دون حدوث بيئات قابلة لأمراض شتى. ولا شك أن اختلاط الأطباء بالعائلات من خلال الممارسة المهنية من جهة، وعن طريق الأطفال الذين يدرّسونهم من جهة أخرى، سيسهم في غرس أفكار وآمال ورؤى إيجابية في نفوس أهالي تلك المناطق.

هـ-إزالة الانطباع الخاطئ عن الجيش التركي: إن تعيين جنود وضباط من القوات المسلحة يحسنون التواصل مع أهالي المنطقة والاندماج معهم، يعمل على إزالة الصورة النمطية الخاطئة التي تشكلت في أذهان الشعب الكردي عن الجيش التركي عبر عقود؛ فالجيش في الذهنية الشعبية هو مدبِّر الانقلابات على الديمقراطية دائمًا، وهو الذي يمارس أصنافًا من الاضطهاد والقمع.

ينبغي انتقاء ضباط شرطة شرفاء جادين في عملهم أقوياء الشخصية، يقدسون واجبهم الوظيفي، ويتحلَّون بروح العطاء، ومتحمسون لبث الأمن والطمأنينة .

nesemat.com نسمات nesemat.com

و-الاستقرار الأمني بلا عنف: ينبغي العمل على انتقاء ضباط شرطة شرفاء جادين في عملهم يتسمون بشخصية قوية، ويقدسون واجبهم الوظيفي، ويتحلَّون بمشاعر البذل والعطاء، ولديهم الحماسة لبث الأمن والطمأنينة في قلوب الناس، ليذهبوا وليكونوا نماذج حقيقية للأمن الحقيقي، عبر مد جسور التواصل الإنساني مع المواطنين الأكراد، وممارسة الرياضة مع الأطفال إن أمكن، يقدمون لهم هدايا، ويقيمون علاقات وطيدة مع الشباب. فتَلقّي أحد هؤلاء الأطفال هدية من أخيه الشرطي ستجعله لا ينظر إلى دولته بعين سيئة من ناحية، وتقيه شر الانخداع بعصابات المافيا والإرهاب المحرّضة على الجيش والشرطة من ناحية أخرى.

ز-تحسين السلك الإداري: إن عملية انتقاء واختيار كوادر السلك الإداري من محافظين وولاة، ومساعدي ولاة وآخرين، لا تقل أهمية عن العناصر سالفة الذكر، ولذلك ينبغي أن يتم انتقاء النخبة الإدارية بعناية خاصة من بين الكفاءات التي تحمل أهدافًا نبيلة، وتسيطر على أنانيّتها، وتقدم حياة الآخرين على حياتها وسعادتهم على سعادتها؛ همُّهم الأول تقديم خدمة المواطنين على مصالحهم الشخصية، ويتسمون بالصبر والتواضع وحسن المعاملة. وعلى الدولة أن تحضّهم على الاختلاط بالشعب في أسواقهم ومنازلهم ودور عباداتهم ومستشفياتهم ومراكزهم الصحية ومقراتهم الأمنية وثكناتهم العسكرية وهيئاتهم الإدارية.

ح-انتقاء كوادر دينية محلية مدربة: ينبغي أن يوظَّف رجال دين يتقنون لغة أهل المنطقة، ويعرفون طبيعة الشعب الكردي بكل تفاصيلها، يجيدون تحليل سكان المنطقة وقراءتهم قراءة صحيحة بتفاعل عاطفي جادّ، ويتعاملون معهم عن معرفة ودراية.

ط-توفير الدعم المعنوي والتثقيفي والأمني للوجهاء الدينيين في المنطقة: في شرق تركيا للقيادات الدينية من مشايخ وعلماء ووجهاء دينيين مكانة كبيرة، فلو أقيمت دورات تثقيفية لهم تقدم رؤية الحكومة هذه، وتوفر كافة التدابير الأمنية اللازمة لهم، وتحثُّهم على رفع معنويات الأهالي، لأسهَم ذلك في رفع الوعي في هذه المناطق. ولو أضيف إلى ذلك توظيف الدعاة الشباب الذين تَربّوا على أيدي هؤلاء العلماء أئمةً وخطباء في مساجد مختلفة من شرق تركيا لعمَّت الطمأنينة كافة الأرجاء.

ي-إفساح المجال لمؤسسات المجتمع المدني للعمل بتلك المناطق: ينبغي ألا يُعالَج الإشكال من خلال تدابير سياسية وعسكرية وإدارية فحسب، وألا تُترَكَ المهمةُ للمسؤولين الحكوميين فقط، بل ينبغي إفساح المجال لمؤسسات المجتمع المدني، وأن تَبذُلَ

كافةُ شرائح المجتمع أقصى ما في وسعها من أجل تعزيز الوحدة الوطنية، ونبذ كافة أسباب الفُرقة والنزاع والشقاق.

وهذه المقترحات التي وُثِّقت في رسالة الأستاذ "كولن" هي رؤيته لحل القضية الكردية، ونجد أنها تتوافق مع النهج العام للحركة وآليات عملها. وقد لعبت الحركة دورًا إيجابيًّا في الدفع بعملية التحوّل الديمقراطي بتركيا قدمًا، بعد "الانقلاب الناعم" بالبلاد عام ١٩٩٧م، وسعت للقضاء على التحديات التي تواجه تقدم المجتمع التركي وهي: الجهل والفقر والمرض والانشقاقات داخل المجتمع، ولهذا وجَّه كولن أتباعه إلى العمل في المجتمع المدني على مواجهة تلك التحديات، من خلال الاستثمار في التعليم والإعلام والعمل الإغاثي والخيري، لترسيخ هوية للمجتمع التركي تَقبَل بالاختلافات، وتجمع بين مختلف التوجهات والتناقضات مثل الإسلامي والعلماني، اليميني واليساري، القومي التركي والقومي الكردي وهكذا[٧].

٢. الجهود الميدانية في الشرق التركي

ركزت حركة "الخدمة" جهودها في محافظات جنوب شرق تركيا، وهي محافظات ذات غالبية كردية، وقد نجحت مؤسسات "الخدمة" في إحداث نقلة نوعية وتنموية وتعليمية في تلك المحافظات مما أدى إلى تقليل معدلات انضمام الشباب للتنظيمات المسلحة عبر تعليمهم وتوفير فرص عمل مناسبة لهم. وقد اعتمدت حركة "الخدمة" على ثلاث آليات للعمل هي:

١- تأسيس مؤسسات تعليمية لمحاربة الجهل.

أسهمت أنشطة "الخدمة" مِن أفرع للمنظمات الخيرية وجمعيات التنمية القروية إلى قاعات القراءة للطلاب الفقراء وأندية الأخوة النسائية في تمكين المرأة الكردية ونشر الوعي والثقافة وفكرة قبول الآخر.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

٢- تأسيس جمعيات خيرية لمحاربة الفقر.

٣- نشر الوعي الثقافي لمحاربة العنف والترويج لفكرة قبول الآخر، والمساواة بين الرجل والمرأة في التعليم، وبين الكردي والتركي في الحقوق والواجبات.

وقد نجحت هذه الآليات في إنشاء جسور بين الأكراد والأتراك وإزالة الاحتقان التاريخي بين الطرفين، وظهر ذلك جليًّا في الدوائر الانتخابية التركية والكردية، حيث نجح بعض المرشحين الأتراك في الدوائر الكردية والعكس، كما ظهر أيضًا في التبرعات الخيرية، حيث تبرع عدد كبير من رجال الأعمال الأتراك لإنشاء مؤسسات تعليمية وخدمية خيرية في المحافظات الكردية والعكس.

ويمكن القول إن العمل داخل المحافظات الكردية بجنوب شرق تركيا قد بدأ قبل تبلور نهائي لملامح ذلك المشروع، حيث بدأ تواجد الحركة في المدن التي يسكنها الأكراد بتركيا أواخر الثمانينات من القرن العشرين.

وقد تنوعت جهود الخدمة لمعالجة المسألة الكردية في هذه المناطق إلى عدة مجالات مختلفة تشمل ما يأتي:

ينبغي أن يتم انتقاء النخبة الإدارية بعناية خاصة من بين الكفاءات التي تحمل أهدافًا نبيلة؛ همُّهم الأول تقديم خدمة المواطنين على مصالحهم الشخصية، ويتسمون بالصبر والتواضع وحسن المعاملة.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

أ- الجهود التعليمية:

كانت اجتماعات "الشاي" الدورية بمثابة عامل للتوعية بين السكان المحليين الذين اتفقوا على أن الدولة غير قادرة على توفير الخدمات التعليمية الضرورية في كل محافظات جنوب شرق تركيا، وكان بعضهم يعتقد أن الدولة التركية العلمانية حرمت عمدًا المنطقة من المدارس وغيرها من الخدمات الأساسية لمعاقبة سكانها الأكراد، والنتيجة أن عدد الشباب العاطلين وغير المتعلمين في تلك المناطق يزداد باطراد، ويشكلون المصدر الرئيسي للانضمام لحزب العمال الكردستاني المسلح؛ فاتفق السكان المحليون والمتطوعون من "الخدمة" على أن يتحملوا مسؤولية معالجة مشكلة التعليم في تلك المناطق، ثم انتشرت الفكرة على نطاق أوسع في أوساط السكان المحليين حتى وصلت إلى مسامع رجال الأعمال الأكراد الأثرياء في إسطنبول، وغيرها من المدن التركية الكبرى، فسارعوا إلى تأييدها وقدموا الدعم المادي اللازم لإنشاء مؤسسات تعليمية وبالفعل أُسست "الخدمة" مئات المنشآت التعليمية في المحافظات الكردية[٨].

كانت أول المؤسسات التعليمية التي أسستها الخدمة في الشرق التركي هي مراكز التأهيل الجامعي في محافظتي "دياربكر وأورفا" عام ١٩٨٨م. التي تم تمويلها من قبل رجال الأعمال الأكراد المحليين الذين قاموا بتطوير علاقات الصداقة من خلال "محادثات الشاي الأسبوعية" بينهم، ثم بدأ التوسع في إنشاء المؤسسات التعليمية المختلفة بدءًا من الحضانة ورياض الأطفال وانتهاء بالمؤسسات الجامعية المختلفة، ومن ذلك على سبيل المثال:

- أول مدارس ثانوية خاصة في أوائل التسعينات في ماردين، وأطلق عليها مدرسة "أتاك" الثانوية.

- وفي مدينة نصيبين، أُنشئت مدرسة إعدادية "سور ديرشانيسي" التحق بها ١٥ طالبًا فقط في البداية فور تأسيسها عام ١٩٩٦م، ثم زاد عدد الطلاب بشكل كبير عام ٢٠٠٠م، ليصل إلى ٢٨٠ طالبًا عام ٢٠٠٤م، و ٤٨٠ طالبًا عام ٢٠٠٥م، و٩٠٠ طالبًا عام ٢٠٠٦م.

ولم تقتصر المؤسسات التعليمية على المدارس الإعدادية والثانوية، بل ابتكرت حركة الخدمة ما أطلق عليه "قاعات القراءة" أو صالات المطالعة، وهي بمثابة مكتبات عامة مجانية مفتوحة للقراءة والاستذكار طوال العام، وبها عدد من المتطوعين يقدمون الدعم المدرسي والنفسي للطلاب المترددين على هذه المكتبات. وقد أنشأت الخدمة ٢٥ قاعة للقراءة والمطالعة في ديار بكر وحدها، تقدم خدماتها لأكثر من ٣٠٠٠ طالبٍ سنويًّا. ثم توسعت

تلك القاعات لتقدم خدماتها لأكثر من ١٤٠ ألف طالب وطالبة[٩]. وبحلول عام ٢٠٠٩م، بلغ العدد الإجمالي لمؤسسات التعليم في المحافظات الكردية "أديامان، أغري، باتمان، بينغول، بتليس، ديار بكر، ألازيغ، هكاري، غازي عنتاب، الإسكندرون، ماردين، موس، سانليورفا، سيرت، سيرناك، تونسيلي، وفان" نحو ٢٨٩ مؤسسة تقدم خدماتها لنحو ٨٤٢٨٢ طالبًا.

هذا إلى جانب "داخليات" أو مساكن للطلاب التي أسست في البداية بشكل محدود، وكان يشرف عليها عدد من المتطوعين يسيرونها ببرامج محددة في التربية والتعليم والسلوك، ثم ما لبثت هذه المؤسسات أن انتشرت بعدما لمس أهالي المنطقة التغيرات الإيجابية في سلوك أبنائهم وتفوقهم الدراسي حتى عمَّت هذه المساكن أغلب المدن والمناطق في شرق تركيا، بل فتحت حتى في بعض القرى، وكان القائمون عليها شباب أغلبهم من غرب تركيا ليساعد ذلك على الاندماج المجتمعي بين الشرق والغرب، ويعزز من شعور ضرورة الوحدة ونبذ فكرة الانفصال.

وجدير بالذكر أن هذه المؤسسات التعليمية قد حصل عدد كبير من طلابها على منح دراسية في أفضل الجامعات داخليًا وخارجيًا بسبب تفوقهم الدراسي، وصارت المدن والمناطق التي كانت رمزًا للتخلف والبطالة والجريمة المنظمة تصدر أنبغ الطلاب لجامعات مثل بوغازتشي في داخل تركيا ومثل هارفارد وأوكسفورد في خارجها.

بسبب أنشطة الخدمة عزف الشباب والطلاب عن الالتحاق بحزب العمال الكردستاني، أو المشاركة بالأعمال القتالية له، وأتاحت هذه الجهود الفرصة لفتح القنوات الديمقراطية ومهدت بيئة مناسبة لبدء محادثات السلام.

nesemat.com نسمات nesemat.com

ب- الجهود الإغاثية:

لم تكتف الخدمة بالمؤسسات التعليمية فقط، بل عملت على محاربة الفقر في تلك المحافظات عبر فتح فروع جديدة لمنظمة "هل من مغيث؟" الخيرية التابعة لها، حيث افتتحت عام ٢٠٠٤م أول فروعها في جنوب شرق البلاد، وكان لها دور مهم عام ٢٠٠٦م، خاصة بعد الفيضانات الشديدة التي تعرضت لها المحافظات الكردية، حيث وزَّعت معونات قُدِّرت بحوالي ٢ مليون يورو، وقدَّمت مساعدات لنحو ١٧ ألف أسرة عام٢٠٠٦ م و٦٠ ألف أسرة عام ٢٠٠٧م.

جـ- الجهود الاجتماعية:

دعا الأستاذ كولن في دروسه الأسبوعية ومواعظه الدورية إلى تطوير أواصر العلاقة بين شعوب الشرق والغرب التركي، فبدأت على إثر ذلك فعاليات الأخوة المتمثلة فيما يأتي:

١- **توأمة المدن:** وتعني أن يتكفل أهالي مدينة من مدن الغرب (من المتطوعين في الخدمة والمحبين لأنشطتها) بكل احتياجات مدينة من مدن الشرق التركي؛ سواء في المشاريع التجارية على مستوى رجال الأعمال، أو المنح الدراسية للطلاب، أو

يجب أن تتركز أولوية الحل على مسألة إعمار المنطقة، بحيث تصبح مركز جذب، من خلال تنمية المنطقة لإعادة بنائها وإحيائها بصورة متكاملة حتى تعود مركزًا هامًّا للحضارة والازدهار، يغبطها عليه الجميع.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

الرعاية الإنسانية والصحية للمحتاجين منهم، وذبح الأضاحي والفعاليات الرمضانية، ودعوة أهالي المدينتين بعضهم البعض للتواصل والتزاور وإنشاء شراكات تجارية وتعليمية واجتماعية مختلفة، ومن ذلك التوأمة بين مدينتي بورصا وماردين، وإسطنبول وديار بكر، وإزمير وبتليس وهكذا.

٢- **توأمة المدارس:** وتعني أن تتآخى إحدى مدارس الخدمة الخاصة المتواجدة في منطقة من المناطق مع مدرستين أو ثلاث مدارس حكومية من مدارس الشرق التركي، ومن ثم تقوم بتوفير كل ما يلزم لهذه المدارس من وسائل تعليمية متطورة، وإقامة دورات تدريبية لرفع كفاءة المعلمين والمعلمات في هذه المدارس، ومنح المتفوقين والمتفوقات من طلاب هذه المدارس منحًا تعليمية متنوعة، وتخصيص مقاعد مجانية في مدارس الخدمة الخاصة ذات المستوى العالي لطلاب وطالبات مدن الشرق ذات الأغلبية الكردية بنسب تصل إلى ١٥ في المائة، هذا فضلا عن ترتيب رحلات علمية وثقافية مجانية بشكل دوري لزيارة المتاحف والمعالم الأثرية في المدن الكبرى في تركيا مثل إسطنبول وبورصا وإزمير.

٣- **توأمة العائلات:** وتعني أن تقوم بعض الأسر وخاصة أسر رجال الأعمال والميسورين ماديًا، بالتآخي مع بعض العائلات في الشرق التركي، وتنظم هذه العائلات مع بعضها البعض برامج تواصل يتزاورون فيها، ويتكافلون فيما بينهم ماديًا ومعنويًا وفق روح الأخوة والتعاون، وردم الفجوات النفسية والاجتماعية التي تكونت عبر السنوات بفعل العوامل المختلفة.

ولقد كانت تتم هذه البرامج بخطة وضعتها حركة الخدمة، باعتبارها إحدى حركات المجتمع المدني، وعمل أفرادها المتطوعون فيها على تنفيذ آليات هذه البرامج بهمة ونشاط أسفرت عن تغيير انطباع أهالي مناطق الشرق من ذوي الأغلبية الكردية تجاه إخوانهم من المناطق الأخرى، ومهدت الأرض، ولطفت الأجواء لقيام الحكومة بدورها المنوط بها في بسط نفوذها على كامل التراب التركي، وتهيئة بيئة صالحة للسلام العادل، ونزع المبررات التي كانت كتائب حزب العمال الكردستاني تسوقها لتبرير عملياتها المسلحة ضد الدولة التركية ومؤسساتها المختلفة.

د- الجهود الاقتصادية:

لطالما كانت مناطق الشرق التركي ذات الأغلبية الكردية واعدة باقتصاديات جيدة، بسبب كثرة ووفرة الثروات الطبيعية الموجودة فيها، ووفرة الأيدي العاملة وقلة تكلفتها، ولكن الإرهاب كان يقف حائلاً أمام أي مشروع واعد يستغل هذه الطاقات والإمكانات، ويسهم في القضاء على أبرز مشاكل المنطقة وهي "البطالة" التي كانت تدفع بالشباب إلى الالتحاق بعصابات المافيا، أو العصابات

الإرهابية المسلحة مما كان يفاقم من مشكلات المنطقة. ولكن بالجهود التجارية المنظمة التي قامت بها حركة الخدمة تم تحجيم كثير من هذه المشكلات من خلال ما يلي:

إقامة شراكات تجارية بين رجال أعمال من الشرق التركي ونظرائهم من المناطق الأخرى.

تأسيس جمعيات رجال أعمال، وفتح الآفاق أمام منتجات مصانع الشرق للتصدير إلى مختلف دول العالم.

العمل على تكوين أيدي عاملة مدربة للعمل في هذه المشاريع من أبناء وبنات هذه المناطق.

كما عملت الخدمة على تشجيع المستثمرين الكبار من الأكراد الذين كانت لهم مشاريع ضخمة في المدن التركية الكبرى للاستثمار في مناطقهم، وتحمل مسئولياتهم في هذا الاستثمار.

هـ- الجهود الثقافية:

ذكر الأستاذ كولن في رسالته إلى رئيس الوزراء التي تحدثنا عنها سابقًا: "أن اللغة الكردية ينبغي أن تكون لغة اختيارية في مدارس جنوب شرق تركيا، وكذلك يجب أن تُنشأ إذاعات وقنوات تلفزيونية كردية، لأن التعليم باللغة الأم حق إنساني لا يصحّ أن يكون موضوعًا لأي مساومة سياسية"، ورغم أن هذه التوصية كانت موجهة في الأساس إلى الحكومة، فإن المتطوعين من أبناء حركة الخدمة قد سارعوا إلى تنفيذ هذه التوصية، وأنشأوا أول قناة تلفزيونية خاصة ناطقة باللغة الكردية لأول

nesemat.com نسيمات nesemat.com

وجد الأكراد -من خلال أنشطة الخدمة- بديلًا إيجابيًّا جديدًا في الحياة غير الموت الذي يقدمه لهم استمرار النزاع المسلح، وفرصًا تعليمية وتدريبية مناسبة وفرتها لهم مؤسسات الخدمة.

مرة في تاريخ تركيا الحديثة عام ٢٠١٠م، وأطلق عليها "دنيا تي في"، هذا إلى جانب محطة إذاعية. كما أسهمت أنشطة "الخدمة" المتمثلة في إنشاء مراكز ثقافية وجمعيات التنمية القروية وقاعات القراءة للطلاب الفقراء وأندية الأخوة النسائية في تنوير وتثقيف المرأة الكردية والعمل على نشر الوعي الثقافي ونشر فكر التعايش و قبول الآخر، وقد أدت هذه الجهود المكثفة لحركة الخدمة في هذه المناطق إلى تحقيق أمرين يُعدَّان خير دليل على نجاح تلك الجهود في جنوب شرق تركيا وهما:

- عزوف الشباب والطلاب عن الالتحاق بحزب العمال الكردستاني المسلح، أو المشاركة بالأعمال القتالية له، لأنهم وجدوا بديلًا إيجابيًّا وفرصًا تعليمية وتدريبية مناسبة وفرتها لهم مؤسسات الخدمة، كما عملوا على المشاركة مع الحركة في تشغيل هذه المؤسسات ونشرها.
- إتاحة الفرصة لفتح قنوات ديمقراطية وتمهيد بيئة مناسبة لبدء محادثات السلام التي بدأتها الحكومة بعد ذلك في هذه المناطق.

٣. جهود الخدمة في كردستان العراق

الوضع السياسي والاقتصادي بكردستان العراق

ينبغي إفساح المجال لمؤسسات المجتمع المدني، وأن تَبذُلَ كافةُ شرائح المجتمع أقصى ما في وسعها من أجل تعزيز الوحدة الوطنية. ونبذ كافة أسباب الفُرقة والنزاع.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

مختلف بعض الشيء عن جنوب شرق تركيا، لأنه يتمتع بحكم ذاتي عن الحكومة المركزية في بغداد، ما عدا ذلك فإن المنطقتين تشتركان في أنهما ذات أغلبية كردية وتعرضتا للتهميش ذاته من قبل الحكومات المركزية، وخاضتا معارك قاسية ضد الجيشين التركي والعراقي. وقد أسهمت حركة "الخدمة" بأنشطتها وفعالياتها التربوية والتعليمية بإقليم كردستان في تأسيس نهضة تعليمية احتذت بها مؤسسات الإقليم الوليد التعليمية لرفع المستوى الثقافي والفكري والتعليمي في البلاد، ومن ثم مواصلة جهود الأمن والتنمية والإعمار على أسس علمية رصينة.

بدأت "الخدمة" في إنشاء مدارس متكاملة حتى أسست حوالي ٢٠ مدرسة منتشرة في محافظات الإقليم متوزعة بمحافظات أربيل، السليمانية، دهوك، حلبجه، كركوك، ويتم التعليم في كردستان العراق، بأربع لغات الكردية والعربية والتركية والإنجليزية وهي سمة مميزة لمدارس "الخدمة" حيث تقدم خدماتها التعليمية لعدد متنوع من الأعراق والإثنيات فيلتحق بها الطلاب من الأكراد والتركمان والعرب[١٠].

وقد واجه معلمو الخدمة في كردستان العراق عددًا كبيرًا من الصعوبات، فمنذ بدأ عملهم هناك عام ١٩٩٤م أسسوا أول مدرسة في أربيل باسم "هولر"، في وقت كان فيه العراق في حالة اضطراب سياسي بعد حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١م، ويخضع لعقوبات أمريكية وحصار دولي، هذا فضلاً عن الشك العام حولهم من قبل الأجهزة الأمنية العراقية والكردية والتركية فكل جهة منهم تعتبر معلمي الخدمة يعملون لصالح الجهة الأخرى.

ومع ذلك استطاعوا بفضل عملهم الدؤوب، وتفانيهم في أدائه، وتحقيقهم مستوى عالٍ من النجاح في ملف التربية والتعليم، وتنشئتهم مواطنين صالحين يحبون أوطانهم ويعملون على رفعتها أن يكسبوا ثقة المجتمع الكردي، ومن ثم قام هذا المجتمع باحتضان تلك المؤسسات التربوية التي أسسوها حتى في ظل تأزم العلاقات في بعض الأحيان بين دولة تركيا وإقليم كردستان.

٤. حزب "العمال الكردستاني" و"الخدمة"

استطاعت حركة "الخدمة" بجهودها السابقة أن تسهم في معالجة المسألة الكردية عبر تجسير الهوة النفسية والمعنوية بين شعوب الوطن الواحد، وعززت فيهم روح الانتماء إلى الوطن الأم الكبير الذي يحتوي الجميع تحت مظلة واحدة مع مراعاة الخصوصيات الثقافية لكل فئة، كما أسهمت في تقليص فكر الانفصال الذي يتبناه حزب العمال الكردستاني، مما كان سببًا رئيسيًّا في إزعاج هذا

الأخير حتى علت أصوات قياديهم باتهام حركة الخدمة بأنها "تعمل بشكل منظم لتقليص حزب العمال الكردستاني".

كما حذر الحزب مرارًا من أنه سيعاقب كل من يتعامل مع الخدمة ومؤسساتها، "من يؤجرون منازلهم ومبانيهم لها، ومن يرسلون أطفالهم إلى مدارسها"، وقد نفَّذ ذلك التهديد بالفعل حيث هاجم بعض المسلحين علنًا مؤسسات للخدمة، وفجّر قنبلتين في مدرستين بقريتين بمحافظة "ديار بكر"، ومركزين للإعداد الجامعي في قرية "ينينهر" بديار بكر، ومدرسة ثانوية خاصة في "هكاري" أزهق عددًا من أرواح المدنيين الأبرياء.

وفي مقابل هذه العمليات الإرهابية التي راح ضحيتها أبرياء كثيرون، منهم معلمون ومعلمات وناشطون متطوعون في مدارس الخدمة ومؤسساتها التعليمية في هذه المناطق، لم يصدر عن الخدمة أي ردّ فعل سلبي من أي نوع ضد أي أحد، وواصلت الخدمة رغم كل ذلك مساندتها لأي عملية صلح تخدم استتباب الأمن والاستقرار في هذه المناطق. ويرجع السبب الرئيسي لاستياء الأكراد الانفصاليين المسلحين وغضبهم من نشاط "الخدمة" التعليمي في المناطق الكردية إلى نجاح تلك الأنشطة في منع الشباب من الانخراط في عصاباتهم المسلحة التي تتواجد في الجبال.

ثالثًا: قراءة تقييمية

مما سبق يتضح جليًّا أن جهود حركة "الخدمة"

nesemat.com نسمات nesemat.com

حققت الخدمة في إقليم كردستان العراق مستوى عاليًا من النجاح في التعليم، وأسهموا في تنشئة مواطنين صالحين فاكتسبوا ثقة المجتمع الذي احتضنهم حتى في ظل تأزم العلاقات مع تركيا.

التعليمية والتربوية والخدمية في المناطق الكردية قد أسهمت في الأمور الآتية:

- تعزيز فكرة التعايش وتقبل الآخر.
- رفع الوعي الثقافي والتعليمي في هذه المناطق.
- بث روح الأمل في مستقبل واعد بالسلام والاستقرار في ظل دولة عادلة تؤمن بالحقوق والحريات.
- وضع نموذج بنَّاء لعمل منظمات المجتمع المدني إلى جانب القيادة السياسية لتحقيق أهداف الوطن الكبرى، وهي إحلال السلام في كافة أراضي الوطن.
- تفعيل دور منظمات المجتمع المدني في تنفيذ جزء من الدبلوماسية العامة للدولة من خلال تهيئة البيئة المناسبة لحل المسألة الكردية خلال الفترة ٢٠٠٤م-٢٠١٣م باعتبارها أحد منظمات المجتمع المدني الفاعلة والمؤثرة في المجتمع. فعملية "بناء السلام" هي نهج تكاملي يحتوي على جميع برامج التنمية والإغاثة، وهي العملية التي تقر بأن السلام يتلازم مع العدالة، كما تتضمن عمليات "بناء السلام" تسهيل الحوار والتواصل بين الأفراد والجماعات الذين لهم تاريخ من الصراع، وتسهيل التبادلات

والزيارات وغرس ثقافة السلام المتبادل، ولتفعيل هذه العمليات يبرز دور المنظمات الإنسانية في تقديم المساعدات وتقليل عمليات العنف مما يؤدي إلى تزايد احتمالات السلام"[١١]، وهذا ما قامت به "الخدمة" في المحافظات الكردية بجنوب شرق تركيا.

رابعًا: انتقادات موجهة

لاقى انتشار مدارس حركة "الخدمة" في المدن الكردية التركية بعض الانتقادات، ومنها:

أن طلاب هذه المدارس يتعرضون لخطر الاندماج في الهوية الإثنية التركية، بناء على نوعية المناهج التي تُدرَّس لهم في هذه المدارس، لكن هذا الانتقاد ينبغي أن يوجَّه لوزارة التعليم التركية عمومًا، إذ لا تتبنى مدارس الخدمة سوى المناهج المقررة في تركيا. وقد حرصت الخدمة في مدارسها على أن تجعل اللغة الكردية لغة اختيارية إلى جانب اللغة التركية، كما استعانت بمدرسين أكراد ليقوموا بتدريس اللغة والتاريخ الكردي جنبًا إلى جنب اللغة والتاريخ التركي، ومن ثم فقد حافظت على الهوية الكردية كما حافظت على الهوية التركية مع التركيز على المشترك القيمي والثقافي والإنساني.

ومن تلك الانتقادات ما وجهته المنظمات الكردية ذات التوجه القومي المتطرف للحركة بأنها تسهم في إنهاء المطالب الكردية، التي تنادي بضرورة اعتراف الدولة التركية بحقوق الأكراد العرقية، من خلال العمل على تعليم الشباب الأكراد وتوفير قنوات مدنية للتنمية الاقتصادية، مما يعزز في نفوسهم فكرة الاندماج في المجتمع التركي ومحو الهوية الكردية[١٢]. لكن الملاحِظ لأدبيات الخدمة وفعالياتها المدنية يسهل عليه أن يدرك أنها أولى منظمات المجتمع المدني التي اعترفت بحقوق الأكراد كَمُكَوِّن ثقافي متساوٍ مع المكونات الأخرى في المجتمع التركي "كالمكون التركي والعربي والتركماني"، كما تدعو الحركة دائمًا في كل مناسبة إلى ضرورة المساواة الكاملة بين كافة المواطنين دون أي تمييز عرقي أو إثني أو ديني أو طائفي.

خاتمة

في الختام نودّ التأكيد على أن تجربة حركة "الخدمة" في معالجة القضية الكردية في تركيا هي تجربة رائدة وناجحة بكل المقاييس، رغم الانتقادات التي وجهت لها من قبل المؤسسات الكردية القومية المتطرفة، ورغم الحرب المعلنة ضدها وضد مؤسساتها من قبل الحكومة التركية بعد اتهام الأستاذ "كولن" بالضلوع في "الانقلاب العسكري المزعوم" في يونيو ٢٠١٦م وهي اتهامات رفضها كولن جملةً وتفصيلاً.

وقد اكتسبت تلك التجربة تميزها في أنها ابتكرت آليات جديدة لمعالجة النزاع المسلح، حيث بدأت بمعالجة جوهر الأزمة وهو "الإنسان" عبر الاستثمار في تعليم الشباب الكردي وإيجاد فرص عمل مناسبة لهم، ثم رفع مستوى الوعي الثقافي لديهم ليصبح أمامهم فرص أخرى غير البديل المسلح الساعي لتحقيق حلم الانفصال بعيد المنال، الذي إذا تحقق

سيبدأ معه سلسلة جديدة من المشكلات السياسية والاقتصادية والثقافية وربما الاقتتال على الهوية أو العرقية أو الطائفية. ولذا فإن ما فعلته "الخدمة" أنها قدمت للأكراد بديلًا جديدًا في الحياة غير الموت الذي يقدمه لهم استمرار النزاع المسلح.

وجدير بالذكر أن السلطة الحاكمة الحالية بقيادة أردوغان منذ أحداث قضية الفساد في ١٧ و٢٥ ديسمبر ٢٠١٣م، وبعد اتهام هذه الحكومة -بلا أي سند أو دليل- حركة الخدمة بتدبير انقلاب مدني قضائي ضدها، قامت بإغلاق مئات المدارس، وصالات المطالعة، وجمعيات رجال الأعمال الناشطة في هذه المناطق وفي كل تركيا، وفصلت المعلمين والمعلمات من وظائفهم، وصعدت إجراءاتها بعد الانقلاب المزعوم في يونيو ٢٠١٦م، فاعتقلت كل من له أدنى صلة بالخدمة كرديًّا كان أو تركيًا، وتوقفت تماما كل جهود وأنشطة الخدمة في هذه المناطق، وعادت الحلول الأمنية تطرح نفسها من جديد، ولاسيما بعد اعتقال السياسيين الأكراد، وإسقاط عضوية نوابهم المنتخبين ديمقراطيًّا من البرلمان، وصارت المنطقة بؤرة للصراع من جديد بعدما كانت على وشك الحل النهائي نتيجة الجهود السالف ذكرها سياسيًا واجتماعيًّا. والسؤال الذي يطرح نفسه الآن، كيف ستنعكس هذه الإجراءات على شرقي تركيا في المدى القريب والمتوسط والبعيد في ظل غياب أقوى فاعل مدني حقق إنجازات ملموسة على أرض الواقع؟ وهل ستستطيع الحكومة الحالية سدَّ هذا الفراغ الكبير الذي أحدثه غياب حركة الخدمة كفاعل مدني رئيسي في هذه المناطق؟ هذا ما ستخبرنا به الأيام لاحقًا. ■

الهوامش

(١) باسيلي تيكين، "الكرد دراسة سسيولوجية وتاريخية"، "نوري طالباني"، السليمانية ، العراق، ٢٠٠٧م، ص ٢٩١-٢٩٣.

(٢) عثمان علي، "الحركة الكردية المعاصرة"، أربيل، العراق، ٢٠١١م. ص ٢٨٩-٢٩٣.

(٣) رضا محمد هلال، "الأكراد بين الفيدرالية والانفصال"، السياسة الدولية، العدد ٢٠٥، يوليو ٢٠١٦م المجلد ٥١، ص ١٢٤-١٢٥.

(٤) أحمد دياب. الأبعاد السياسية لاتفاق السلام التركي – الكردي. السياسة الدولية، العدد ١٩٢. يوليو ٢٠١٣م. المجلد ٤٨. ص ١٣٠-١٣١.

(٥) فتح الله كولن "كلمات شاهدة" حوارات مع الأستاذ كولن حول الدين والمجتمع والدولة بأفق إنساني، دار النيل، القاهرة ٢٠١٥م.

(٦) فتح الله كولن، "مقترحات لحل المسألة-الكردية"، خطاب الأستاذ كولن عام ٢٠٠٨م إلى رئيس الوزراء التركي آنذاك "رجب طيب أردوغان".منشور في موقع نسمات: www.nesemat.com

(٧) جورج فهمي، "متى يقرر الفاعلون الدينيون دعم عملية التحوّل الديمقراطي، ومتى يقررون معارضتها أو البقاء على الحياد؟" متاح على http://carnegie-mec.org/2016/06/13/ar-pub-63788

(٨) Dogan Koc. Hizmet Movement's Effects on PKK Recruitment and Attacks. Turkish Journal of Politics Vol. 4 No. 1 Summer 2013 .PP(65-66). (79-80).

(٩) نوزاد صواش، مراكز الدعم المدرسي.. من ينفق عليها وكيف؟، ٢٨ مارس ٢٠١٧. متاح على موقع نسمات: www.nesemat.com

(١٠) نوزاد صواش، "الخدمة تفجر ينابيع الخير الكامنة في الإنسان"، مجلة نسمات، العدد الثاني، أبريل ٢٠١٧م. متاح على موقع نسمات.

(١١) Geun Lee and Kadir Ayhan, Why Do We Need Non-state Actors in Public Diplomacy? JOURNAL OF INTERNATIONAL AND AREA STUDIES Volume 22, Number 1, 2015, p.57 -58.

(١٢) MUSTAFA GURBUZ. TURKEY'S KURDISH QUESTION AND THE HIZMET MOVEMENT. March 2015 -p. 22 – www.rethinkinstitute.org.

الدور الإحيائي لفقه القلب
في الفكر الحضاري عند فتح الله كولن

فايد رمزي

كاتب وباحث كندي في قضايا الإبداع والفكر، وله مؤلفات مطبوعة ومخطوطة. عاين مشاريع الخدمة عن كثب، وطالع الأدبيات المكتوبة للأستاذ كولن، وشارك في أكثر من ندوة ومؤتمر علمي حول فكر الخدمة، ومنها مشاركته في ندوة حول كتاب "ونحن نبني حضارتنا".

يمثل العلامة فتح الله كولن في كتاباته الثرّة النابضة بهموم الإصلاح، وفي حركته الخصيبة الواصلة بين عالمي الوجدان والعمران، قامة دعوية ومدرسة سامقة في عصرٍ يضج بآلاف المقولات الضاغطة، والفلسفات والنزعات الفكرية المتيبِّسة أو الخضراء المُمْرِعة. غير أن كتاباته الغزيرة وكلماته النيِّرة المتشبعة بروح التأمل والصفاء الروحي الرائق، والنزوع الإنساني الراقي، يمكن إدراجها -رغم تعدد مساحاتها المعرفية- في مسلك "الكتابات الحضارية"، التي تروم إشباع مَنزعين أساسيين هما: إحياء مناطق "الإبصار الإيماني" في ممالك الذات، وتحصين الالتزام السلوكي الفردي والجماعي بحركة هذه الذات في معتركها الحضاري الإنساني، مع خلق توافق إيقاعي بينهما حتى يتخلصا من فداحة الدمار وخطيئة البوار.

وقد جال الكاتب جولة معرفية في ثنايا كتاب "ونحن نبني حضارتنا" للأستاذ فتح الله كولن، أبانت عن خلاصة استجمعت رؤى هرمه الفكري الحضاري بحلقاتها الثلاث، "فقه القلب"، و"فقه الدعوة" و"فقه العمران" التي مزجت بين "شخصية المربي، وشخصية الداعية، وشخصية المفكر المصلح".

يمكن ترسيم الخطاطة المعرفية التي تنضفر فيها كتابات الأستاذ فتح الله كولن الحضارية من خلال الشجرة المعرفية التالية:

١- فقه القلب في بعده التزكوي.

٢- فقه الحركة في بعدها الدعوي.

٣- فقه العمران في بعده الحضاري.

وإنَّ إدراجنا مؤلفاته الخصبة والغزيرة في جنس "الكتابة الحضارية" ليستند إلى ما تؤشر عليه من معضلات أصابت الأمة في مقاتلها الروحية والأخلاقية والثقافية، وما تؤشر عليه كذلك وسائل الدعم والإنقاذ لها برسم صورة المستقبل الحضاري السعيد.

وكتاب الأستاذ كولن "ونحن نبني حضارتنا" يختزل طروحات مؤلفاته السابقة، ويستجمع نواياتها وموادها النابضة في بعدين أساسيين: بعد تكويني وبعد تمكيني.

فالبعد التكويني: يتشكل من حلقتيه المعرفيتين "فقه القلب" أو المرتبط بالتكوين والتشكيل الذاتي الداخلي، و"فقه الحركة" المرتبط بهموم الدعوة والداعية على مستوى التكوين الخارجي للآخر.

أما البعد التمكيني: فهو الحلقة الثالثة من شجرته المعرفية الفارهة والمتمثل في "فقه العمران" ببعده الحضاري الإنساني ذي القوانين والسنن الحركية الوجودية.

فمن مؤلفاته ذات البعد التكويني "التزكوي" في فقه القلب كتاب: "التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح"، وهو تنظير عميق ومستفيض لهذا الفقه الكبير. أما مؤلفاته ذات البعد التكويني الدعوي "فقه الحركة" فمنها: "طرق الإرشاد في الفكر والحياة".

ويمثل كتاب "ونحن نبني حضارتنا" والذي هو موضوع هذه المقاربة، جمعًا بين أصول الكتابين السابقين، مع التأشير المعمَّق على "فقه العمران" الحضاري في سُنَنيته، وبسط النظر في شروط النهوض الحضاري وعوامل السقوط والأفول.

يمثل الأستاذ كولن في كل كتاباته النثرية والشعرية أحد رجالات الروح العظام، وأحد أبطال القلوب الرهيفة الذين أراقوا مواجدها، وذوبوا أحزانها، ونشوة أفراحها الإيمانية الكبيرة في كل كلمة خطتها يمينه المتوضئة.

أولاً: فقه القلوب

يمثل الأستاذ كولن في كل كتاباته النثرية والشعرية أحد رجالات الروح العظام، وأحد أبطال القلوب الرهيفة الذين أراقوا مواجدها، وذوبوا أحزانها، ونشوة أفراحها الإيمانية الكبيرة في كل كلمة خطتها يمينه المتوضئة. ولذلك بلور في كتاباته الخصيبة أصول وقواعد ومقاصد هذا الفقه الكبير "فقه القلوب"، والذي تجاوز به الإطار المدرسي المحدود إلى الإطار الحضاري الإنساني اللامحدود. واعتبر "فاعلية حضوره" وراء كل حركة إنسانية هادفة أو خابطة البدءَ والمنتهى، البذرةَ والثمرة، المسير والمصير، المنطلق والمآل، السيرورة والصيرورة، انطلاقًا من سياقين ضابطين:

nesemat.com نسيمات

أ-سياق نصي صريح: يتمثل في المدونتين النصيتين الصحيحتين "الكتاب والسنة"، في عشرات النصوص التي تؤكد أطروحة "مركزية القلب في التصور الإسلامي" وخطورته التوجهية، وعلاقته بصناعة الإنسان الذي يعد محور التكليف الاستخلافي من هذا الوجود. فمن خلال قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الرعد:١١)، يبتدئ -مفاهيميًّا- أن الإنسان أو المحتوى الداخلي له هو الأساس لحركة التاريخ، أما البناء الاجتماعي والحضاري العلوي بكل وشائجه وأنظمته وسلوكياته، فهو مرتبط بهذه القاعدة في "البقاء أو الفناء".

فالعلاقة بين المحتوى الداخلي للإنسان "القلب" والبناء العلوي الحركي أو العمراني علاقة تبعية، فتغير ما بِقوم من أوضاع تبعٌ لتغيير ما بأنفسهم. فالمحتوى النفسي والقلبي للفرد والجماعة أساس وقاعدة التغيرات الفوقية والعلوية للحركة التاريخية.

وكذلك قوله ﷺ: "ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله. ألا وهي القلب" (متفق عليه)، فهو تأشير على خطورة هذا العضو في التوجيه الخارجي "سلوك الجسد" الفردي، فعالم القلب عالم رحيب تصطرع فيه قوى الخير والشر، والنور والظلام، والحركة والجمود، فإذا تغلبت عناصر الخير والصلاح فقد أتيح للحياة أن تتحسس مواطئ أقدامها على طريق الحياة الحضارية السديدة، وإذا انتصرت عناصر الشر والظلام فقد تَحدَّد اتجاه الحياة إلى الجدب والأفول.

واصطراع القلب بالنفس في كل نزوعاتها "اللوامة والأمارة" هو لتحقيق "التضوء"[1] القيمي لمعاني الخير النفسي، ومعاني الشر النفسي، وتوجيهه للواقع المادي الصاخب الذي يباشره الإنسان عبر سعيه الحضاري الكادح بعلاقاته المتشابكة، ليكون لقاء المسلم بهذا الواقع لقاء ترشيد وخيرية واعدة، تعمل على ربط الأرض بالسماء، والإنسان بالله، والمادة بالروح في حلول كامل.

وخلاصة ما تؤشر عليه المدونة النصية/ المصدرية "الكتاب والسنة" هو أنَّ منطلق الأعمال في فقه القلب "النية الحسنة"، ومآلها "ابتغاء رضى الله"، ومنهجها "الصواب الموافق للشرع"، كما أنه في فلسفته استشعار حي للوجود والحضور الإلهي في الكون الذاتي والموضوعي للإنسان في حياته وما بعدها، وفي استشعاره حقيقة مهمته الاستخلافية، والارتفاع "بالعمل" عبر مقامات التزكية إلى وضعية الخلقية والوجودية.

وهي فلسفة واضحة التخوم والأبعاد، تجعل القيم القلبية في مساحتها النفسية وقودَ فعل التغيير الخارجي، وتُحيل المساحة الزمنية إلى إطار للعمل التغييري، وتحيل المساحة المكانية إلى مجال حركة الفعل، وتجعل المساحة السلوكية الحضارية مناط تحقق هذا الفعل في تناغم هادئ ومتساوق.

ب-سياق معرفي ضابط: ينطلق من حلقات شجرته المعرفية الحضارية، والتي تَعتبر "فقه القلب" هو منطلق الحركة التغيرية "الدعوية والعمرانية"،

وهو أساس انبثاقها الصحيح، أو ضياعها الخابط، ولذلك نجد في هذا الكتاب "ونحن نبني حضارتنا" تعميقًا لهذا النزوع المعرفي الذي لا يخلو فصل من فصوله من الإشارة إليه – تصريحًا أو تلميحًا – في خصائصه ومقوماته ومفاهيمه "النفسية/الحضارية" بما يخدم الحركتين "الدعوية والعمرانية". فهو بمثابة البطانة الوجدانية الداخلية في تشريحه لقوانين الحضارة وسننها، وربط عوامل النهوض والسقوط بسننه النفسية المؤثرة على الفعل الجماعي عبر المسيرة التاريخية، وأيضًا في تأشيره على مكونات الثقافة الذاتية وألوانها الاجتماعية، وهو ما يستحق به أن تفرد له مباحث ضافية تكشف عن مفاهيمه وأصوله وقواعده وخصائصه وسننه، في علاقتها بالفكر الحضاري للمؤلف "معرفيًا وحركيًا". وحسبنا أن نؤشر على بعضها في اقتضاب يناسب مقام هذه المقاربة.

ثانيًا: المحددات المنهجية لفقه القلوب

تتخلل كتاب "ونحن نبني حضارتنا" الذي يجيب -أطروحيًا- على إشكالية السقوط والنهوض الحضاري للأمة، ملامحُ عامة لهذا الفقه الفريد "فقه القلوب"، والذي إذا استجمعنا خيوطه في عجالة بحثية واختزال مدرسي يمكن أن نعثر على بعض المحددات المنهجية: "مفهومًا ومقومات ووظائف"، لهذا العلم في تشابك وتواشج وظيفي مع الفكر الحضاري للمؤلف:

أ- على مستوى المفهوم:

يشير الأستاذ كولن إلى سعة هذا العلم وشساعة

كتاب الأستاذ كولن "ونحن نبني حضارتنا" يختزل طروحات مؤلفاته السابقة، ويستجمع نواياتها وموادها النابضة في بعدين أساسيين: بعد تكويني وبعد تمكيني.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

مساحته الحياتية التي يتحرك فيها بقوله: "هو حوض فريد واسع للعلم والعرفان، مسنود بالبيان والبرهان والعرفان، يحتضن الحياة كلها ويغذيها ويثريها"ص: ٩٤[٢].

ورغم إدراجه لهذا الفقه في مجال مدرسي مألوف لدى الدارسين وهو "التصوف"، فإنه في بعض مؤلفاته خصوصًا مؤلفه التنظيري المهم "التلال الزمردية" يتناوله ضمن مبحث واضح: "القلب" بأحواله ومقاماته الإيمانية.

وقد أشار الأستاذ كولن في نص طويل إلى بعض الملامح والقسمات المفهومية لهذا العلم: "هو الحفاظ الدائم على طهارة القلب حيال دوافع الشيطان والنفس، وردع النفس عن ميولها الخاصة، وتضييق مجالها بقدر المستطاع، ومواصلة السير في طرق الارتقاء نحو الإنسانية الحقيقية، بالكد الدائم للبقاء في مستوى الحياة القلبية والروحية، وتكريس الحياة على تحقيق السعادة المادية والمعنوية للآخرين، ومع منتهى الجدية في المناسبات مع الحق تعالى، واتباع نهج النبوة في عدم انتظار الأجر حتى في أصدق الجهود وأخلصها، وفي أعظم الأعمال وأشدها، والعزم على المسير أبدًا في ظلال المشكاة المحمدية

ﷻ في مساعي العبودية للحق ﷻ، وإشهار العبودية صافية خالصة لا غرض فيها ولا عوض، بالتقيد الشديد في المناسبات مع الله تعالى وبإدراك نوعية المناسبة بين الخالق والمخلوق، والعابد والمعبود، والطالب والمطلوب والقاصد والمقصود، والقيام بمنتهى التحمل والصبر الدؤوب حيال المعاصي، وأداء العبادات والطاعات في لذة بالابتسام مع انشراح الصدر لقهره ولطفه تعالى في نفس المستوى، وربط كل أنواع السعي والهمة باستحسان الحق تعالى وليس بتقويمات البشر، والصبر على تباطؤ الزمن صبر الدجاجة الحضون" ص: ٩٣.

ونستنتج من هذا النص الضافي بعض محددات هذا المفهوم الوسيع لفقه القلب:

• **المحدد التطهيري:** من دوافع الشيطان النازغة، وهواتف النفس الأمارة.

• **المحدد التقويمي:** لهوى النفس الغالب العاصف لكل القيم البانية.

• **المحدد الإنساني:** باحتضان القيم الإنسانية الفطرية إيمانيًّا.

• **المحدد الإسعادي:** بتعْدِية السعادة الداخلية إلى إسعاد "الآخر" ماديًّا ومعنويًّا.

• **المحدد الاحتسابي:** بوضع الذات في باحة التجرد من جميع الإغراءات، وابتغاء الأجر من الله الوهاب.

• **المحدد التعبدي:** بوضع الذات في سلك العبودية الخالصة، والتجرد من شباك العلائق العالقة والعائقة.

• **المحدد التلذذي:** باعتصار لذاذات الطاعات الروحية، وتغليبها على كل الهواتف المغرية.

• **المحدد التحملي:** بتلقي كل الابتلاءات الشائكة بالصبر الجميل الواثق.

• **المحدد التدرجي:** بإنضاج الذات على نار التعبد الهادئة، حتى تصفو طينتها وترفَّ روحها عبر برنامج زمني يغطي عمر الفرد كله

وهذه الإضاءات ليست إلا بعض المحددات التي تنير عالم هذا "الفقه الكبير" في مفهومه الإنساني اللاحِب، والذي ينطلق من الذات تشريحًا وتخليقًا وصناعةً لأنها أساس التغيير الحضاري المنشود.

ب- على مستوى المقومات:

من خلال إبحارنا المعرفي في هذا الكتاب القيم، يمكن استجماع خيوط مقوماته في العناصر الخمسة التالية:

• **الربانية:** ففي الفصل الأول لكتابه، ذي الدلالة الواضحة على نزوع المؤلِّف الروحي والمعرفي المرتبط "بفقه القلب" والذي عنونه بـ "نحو سلطنة القلوب"، يشير الأستاذ كولن إلى "معنائية" هذا الفقه في حياة الإنسان، وذلك بتخلصه الوجداني من عذاب "الكثرة"، والارتباط بالمقوم الرباني الواحد والوحيد عبر استحضار قيمة "المعية" المشعة بالحب والتقديس، والتعلق برب واحد في ذاته وصفاته، "إن الحقيقة الفريدة التي تتلقاها روح الإنسان من كلٍّ من الإيمان والمعرفة وتعلق القلب بالله ﷻ

هي المحبة، أما الحقد والكراهية وجوانب الضعف البشري، فتزول -حتمًا- بحلول هذه القيم السامية. أجل، إن معاني الإيمان والمعرفة والمحبة توحِّد بين الإنسان والكون، وفي الوقت عينه تنجيه من عذاب الكثرة وآلامها، فتذيب وحدته ووحشته الحيوانية في إكسير معية الحق تعالى، فتحول حياته إلى لذة أبدية ونشوة خالدة يرتشفها كأسًا بعد كأس" ص: ١١/١٠.

كما يربط كل حركة دعوية أو حضارية عمرانية "بالمثل الأعلى"، والهدف الأسمى وهو "رِضا الله تعالى" سواء تحققت النتائج الحركية والحضارية بقيم الانتصار أو قيم الاندحار في أعمارنا المحدودة، "وحسب المنظور الإسلامي، يُعَدُّ المقصود حاصلاً بنوال الهدف البدهي لكل حركة أو انطلاقة، وهو رضى الله تعالى. فسواء بعد ذلك إن تحققت نتيجةُ الخدمات المقدَّمة باسم أمتنا بارتقائها إلى المكان اللائق بها في التوازن الدولي، أو لم تتحقق؛ فإن المؤمن يسعى لنوال رضاه تعالى في كل خدمة إيمانية وكل فعالية دعوية. فبهذه النظرة يتحول غيرها من الأهداف إلى أهداف إضافية واعتبارية ومجردِ وسائلَ تؤدي إلى الهدف الحقيقي" ص: ٥٠.

كما يكشف عن تعريف بالغ الدقة والوضوح "لمنهج الإسلام" في بعده الوجداني الذي يربط القلب بالله، "وحقيقة الإسلام بإيجاز هي أن يصدِّق المرء بحقيقة الألوهية تصديقًا لا يحتمل الضد مطلقًا، ويوثق رابطة قلبه بالحق تعالى، ويؤدي التكاليف أداء دقيقًا ورقيقًا وكأنه يرى الله تعالى أو يراه الله

إن الذين سبقونا قد انقرضوا لما انحرفوا عن الغاية والهدف من وجودهم، ونحن اليوم في الموقف عينه، فالأصوب إذن أن نقاضي أخطاءنا بدلاً عن الانشغال بأخطائهم. وإن سلمنا بوقوعها.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

تعالى، وأن يسعى في بلوغ رضا الله في كل عمل يعمله" ص: ١٧٣. وقوله كذلك في نفس المعنى: "هو مجموع السنن الإلهية المنزلة لإخراج البشر من سجن الحيوانية وضيق الجسمانية، وتجهيزهم للانطلاق والسياحة في الإقليم الرحيب الفسيح للقلب والروح. وإن روح هذا النظام الذي لا نظير له هو الإيمان، وجسدَه هو الإسلام، وشعورَه هو الإحسان، وعنوانَه المعظم هو الدين" ص: ١٧٦.

• **الأخلاقية:** ففي إطار تشريحه لأزمة الغرب الذاتية "تصورًا وأخلاقًا" في الفصل الأول للكتاب "نحو سلطنة القلوب" وفي إطار الإشارة إلى عودة الروح للجيل الجديد، استعرض مجموعة من أخلاقيات فقه القلب المرتبطة بالتصور والإرادة والشعور على المستوى الفردي لتحقيق النهضة الحضارية المأمولة، "وعلم أن عليه أن يسدَّ الهوة السحيقة بين واقعه وذاته، بالهمة والإخلاص والدموع والشعور بالمحاسبة، وحمْل عصا الترحال بخزين من العزم والتوكل والثبات، ويسير إلى الآباد في هذا المسير الذي لن ينتهي وإن انتهت السبل وانقطعت بعد ما قال: "السياحة يا رسول الله"، وأن مصدر قوة روحه اللازم الذي لا فكاك منه في هذه السبيل، هو اكتشاف

حقيقة الإيمان من جديد واستشعاره في وجدانه، وتغذية إرادته بالعبودية لله، حتى تبقى منفتحة ومستعدة للإقبال على الخير والصلاح، وتعميق روح الإحسان يومًا بعد يوم بالإحساس بحقيقة: "لي مع الله وقت"، ثم الارتباط الدائم بالعالم الآخر، وامتلاك آفاق روحية رحيبة. فإن أفلحنا في التزود بمثل هذه الذخائر المعنوية، فعندما يهتف الربيع ويحل الموسم ستُهرع إلى الحياة تلك البذورُ المنثورة بنشوة العبادة في أرجاء الأرض كلها، وستحيي عهودًا ورديةً عديدة دفعة واحدة في مجتمع المغمومين" ص: ١٠/٩.

كما أشار المؤلف إلى الأخلاقيات الروحية والقلبية لإنسان الحضارة المأمول "وأن هذا الذي توجَّه وطَمَح إلى ذرى الحياة القلبية والروحية لهو على بصيرة من أمره، لذا فهو يعرف كيف يفكر ويتحرك ويعمل، ومن أين يبدأ، فهو حسَّاس في العبادات، ولديه استشعار عظيم بالأخلاق، وهو منفتح على المراقبة ومحاسبة النفس، ومنهمك في الشعور بالرهبة من الذنوب في مراقبة دائمة" ص: ٥٤.

كما أشار المؤلِّف إلى "الأخلاقية" في بعدها الحضاري والكوني حين تلتصق بالقلب المؤمن الذي صقلته المجاهدات الروحية المكثفة، "لن يجتمع في القلب إيمان وارتباط بالله مع الحقد والكره والغيظ. وبالأخص إذا كان القلب يحافظ على جلائه ورونقه بتجديد إيمانه وانتسابه للحق تعالى وميثاقه، ويصقل ويجَلَّى كل يوم وأسبوع وعام بشتى أنواع العبادات فلا يُحتمل مطلقًا أن يبقى ذلك القلب مفتوحًا لتلقي العداوات. فإن كل تصرفاتنا الإسلامية تحفِّز فينا شعورَ التحرك المسلم، وتقودنا إلى الحياة الإيمانية. وبتواتر انعكاس مكتسباتنا الوجدانية وواردانتا القلبية على سلوكياتنا، يتكوَّن نسيج أخلاقنا ويتلون بأبهى الألوان. وبدوام تدفقها من تصرفاتنا تتكون مرجعياتُ ثقافتِنا، فتؤمِّن لنا البقاءَ بذاتنا وشخصيتنا. وهكذا إذا كان التكمل في الإنسان مستندًا إلى ما وقر في قلبه من الإيمان بالله والاعتماد عليه والثقة به، فسيفيض ذلك على المحيط والبيئة حبًا واهتمامًا وإخلاصًا ووداً. والفردُ المسلم بفضل هذه الجاذبية القدسية التي يحوزها يَخرج من الفردية ويكاد يكون أمة" ص: ٦٠/٥٩.

• **الدعوية:** وهي مقوم يرتبط في مادته بالحلقة الثانية من منظومته المعرفية "فقه الحركة" والتي ربطها "بفقه القلب" في مجموعة من نصوصه الدالة، "إن من ينسى المقصود ويضيِّع الغاية المنشودة سيسقط -بالضرورة كائنًا من كان- في شباك الأنانية، وتحل رغباته الجسمانية محل عشق "الخدمة"، وتنطفئ عنده مشاعر "العيش من أجل الآخرين". من هذه الزاوية يمكن القول بأن قضيتنا الكبرى التي تفوق كل القضايا هي "إلهاب جمرة الرغبة في إحياء الآخرين" في أرواح أفراد الأمة مرة أخرى" ص: ٤٨/٤٧.

كما تجلَّى هذا النزوع الحركي "القلبي" في استشهاده بنماذج "عصر السعادة" من الصحابة العظام ﷺ الذين مزجوا بين فقهي القلب والحركة مزجًا عبقريًّا، ظلَّ منارة مشعة لكل الأجيال الدعوية،

"وحارَبوا -بلا هوادةٍ- جميع الرغباتِ الجسمانيةَ غيرَ المشروعة بمخالفتهم الدائبة للنفس، وكممثلين فضلاء لنظامٍ فاضل عَقَدوا العزمَ على "إحياء الآخرين"، ففَضَّلوا "إحياء غيرهم" على حياة أنفسهم، وكرسوا حياتهم لإسعاد الآخرين، وظلوا يقظين وحذرين دائمًا حيالَ أيِّ انزلاق، بملاحظة احتمال الضعف البشري. وفي حال تعثُّرهم بالمعاصي توجَّهوا إلى الحق تعالى بالتوبة والإنابة والأوبة بقلوبٍ خالصة أشد الخلوص، وتحروا على الدوام عن سبل الارتقاء العمودي، فعاشوا مبرمَجين على التحليق في الشواهق" ص: ١٠٤/١٠٥.

• **العقلانية:** "فقه القلب" عقلانيٌّ وليس "تهويميًّا غيبوبيًّا". ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾(الحج:٤٦)، وعقلانيته تتمثل في استحضار معادلة "الفكر بالذكر والذكر في الفكر". فالفكر المؤمن يتغذى من واردات الذكر وأُطُره المعرفية فيصطحبها في جولاته الكونية كما أن الذكر اللفظي والقلبي يستحضر نفاذ الفكر كي يتجاوز القشورية إلى العمقية الكونية.

وقد أشار الأستاذ كولن إلى الدور المهم للقلب في توجيه العقل، والتسلطن عليه "فإذا ارتبط العقل بالقلب وتزوَّد وتغذَّى من وارداته وأدام التزود منه، فإنه لا يترك عدوًّا إلا صرعه ودحره، أما إذا انقطعت وشيجته عن القلب، وانقلب من السماوية إلى الأرضية فإنه يصير خائنًا يرشد الأعداء، ويقيم في جيرة الشهوات، ويدافع عن الحقد أو البغض، وينضم إلى القوة العمياء فيقاوم السماوية ويخوض في الجدلية. فيتمادى في قتل القلب كل ساعة، ويقيم على أنقاضه سرادق النفس" ص: ٧٤.

رؤية الأستاذ كولن استجمعت رؤى هرمه الفكري الحضاري بحلقاتها الثلاث، فقه القلب"، و"فقه الدعوة" و"فقه العمران"، التي مزجت بين "شخصية المربي، وشخصية الداعية، وشخصية المفكر المصلح".

nesemat.com نسيمات nesemat.com

كما أشار الأستاذ كولن إلى أن "القلب العقلاني" هو المؤهل لفهم إشارات القرآن ودلالاته البعيدة "فإن رجال الروح والقلب الداخلِين إلى عالم القرآن الآخذِ بالألباب، يرون كل شيء يشعرون به ويحسونه في قرارة أنفسهم كمفرداتِ فهرست، فيطالعونها مفصَّلاً في محتوى كتاب الكائنات، ويستشعرونها، ويُمضون أعمارهم كلها في عالم الإشارات والأمارات، في سعي حثيث نحو القرآن كمن يسيح في الأرض. نعم، هذا الكتاب ينير أفق عرفاننا بحيث لا يتعرض الإنسان -حينما يسيرُ على هداه نحوَ "عرشِ كمالِ" قلبه- لوحشة الطريق، ولا احتقانِ الفكر، ولا انقباض الروح..." ص: ٨٥.

• **الحضارية:** إن "فقه القلب" لا ينحصر في تهويمات المتصوفين، وأذكار العابدين، وتهجُّد القائمين، بل يتجاوز ذلك إلى تفعيل "الذات المشبعة بالإيمان" في سبيل تحقيق "الأحلام الحضارية" بطريقة إيجابية "صارت القلوب قادرة على أن تنهل من منابعها الذاتية وأن تحلم بتحقيق رؤاها الحضارية" ص: ١٤.

كما يربط الخلود الحضاري للأمم الفاعلة بأهم شروط "فقه القلب" وهو التعبئة الروحية: "إن

كل الأمم التي تركت حضاراتُها آثارًا وبصماتٍ في التاريخ والخرائط الجغرافية، لم ينقش اسمها على صفحات التاريخ بأحرف بارزة إلا بمثل هذه المثابرة في التقديم والتنظيم، والقابلية في التركيب والتحليل والتعبئة الروحية والفوران المعنوي" ص: ٢١.

كما يؤكد على أن "فقه القلب" بذرة "الثمرة" الحضارة المزدهرة "إن الكلمة المفتاحية لفتح القلوب هي "لا إله إلا الله، محمد رسول الله"، بحيث إن كل الخصائص الإيمانية -حسب الإسلام- تتأسس على هاتين الجملتين الوجيزتين اللتين هما تعبير عن حقيقة لها وجهان؛ أحدهما: غاية، والأخرى: وسيلة. فالإيمان الذي هو كـ"شجرة طوبى"، تنشأ من هذه البذرة، فتغطي -بما تؤتي من ثمار المعرفة- سماءَ أحاسيسِ الإنسان وشعوره وإدراكه، ثم تتحول العلوم والمعارف كلها إلى العشق والاشتياق والحرصِ بحَملةٍ وهِمَّة داخلية وشعورٍ وحسٍ داخليٍّ، ليحاصر ذاك الإنسانَ من كل جهة، فيحوِّله إلى إنسان جديد قائمٍ على محور الوجدان...وتتمحور حركاته الاجتماعيةٍ والاقتصادية والسياسية والإدارية كلها، حول قوة الجذب المركزي هذه... فتتشكل فعالياتُه الفنية وأنشطته الثقافية بهذه المقومات الداخلية، وتتوسع بها، وتَبْرُز بألوان القلب وأدائه الجميل تمامًا" ص: ٥٣/٥٢.

جـ- على مستوى الوظائف:

انطلاقًا من المقومات السابقة، مارس "فقه القلوب" مجموعة من الوظائف المهمة في عالَمَي الوجدان والعمران، نحصر بعضها في المحاور التالية:

• **وظيفة تحفيزية:** فالأستاذ كولن يربط التحفيز الروحي على مستوى الذات، بالتجديد الأساسي على مستوى المشروع الحضاري، "فإن أجيال اليوم المؤمنة السائرة في الطريق المشدودة بالتحفز الروحي الكامل استعدادًا لمنازلة الغبن والقهر والظلم الذي أصابها منذ قرون، يزفُّون بتحفزهم هذا من الآن بشائر مهمة عما سيتحقق من تجديدات أساسية في جميع طبقات المجتمع في مطالع الألفية الثالثة" ص: ٤.

• **وظيفة إنقاذية:** وذلك بالتخلص من آفة "الحرمان" وأصلها المرتبط بالقلب، "والقرآن يومئ إلى أصل الحرمان والخسران، وإلى أنه في القلوب التي عميت بصيرتها" ص: ٧٢. وكذلك بإنقاذه من "الجوع الروحي" الذي يهدد النظم الإنسانية المعاصرة، "وكلَّما طال توجُّعُ الإنسان في قبضة حاجاته الجسمانية جراءَ خواءِ حياتِه القلبيةِ والروحية في هذه المرحلة، ازداد وقاحةً باعتبار البدن، فنَصب مطالبَه النفسانية حاكما وحيدًا على القيم الإنسانية جمعاء. والحال أن الابتعاد عن روح الإسلام هو السبب الأساس الكامن لمعاناة الإنسانية جمعاء من جوعٍ وعطشٍ حقيقيَّين" ص: ٩٨.

• **وظيفة تحريرية:** لجهاز "القلب والروح" من قبضة النفس الأمارة الملوَّثة بكل الأدخنة والأتربة الخانقة، "وبدهي أن الأرواح التي لم تكتسب خفة بالتصفية بالإيمان والمعرفة والمحبة لن تقدر أبدًا على التحليق في سماوات ما بعد الأفق... ويقع نظام الروح أسيرًا في قبضة جهاز النفس، ولا يزيدون على

الأكل والشرب والنوم والجلوس والقيام، فيغدون عبيدًا للبدن يأبون الانعتاق!" ص: ١٠.

• **وظيفة حركية:** تتمثل في تجسير 'القلب المؤمن" بمعترك الحياة لتعدية ما فيه من حقائق مُشعة إلى قلوب الآخرين، "هؤلاء أينما حلُّوا سيصبغون كل عين، وكل قلب بألوان الاحترام والخشية البادية والفائضة على تصرفاتهم حتى إن لم يتحدثوا عن الدين، أو لم يلفظوا بقول عن التدين...وسينفتح كل ما يتصل بهم على آفاق الروح" ص: ١١.

وقد أبرز الأستاذ كولن دور البطولة الإيمانية في صناعة الحضارة عبر التزام برنامج "فقه الحركة" الدعوي العالمي "وظهور نماذجه في آلاف الأبطال الذين تركوا دُورَهم وأوطانهم مهاجرين إلى أرجاء الأرض المختلفة، وسعيهم في زرع فسائل روح الأمة في كل مكان، وعرضهم لعالمهم الروحي والمعنوي حيثما حلُّو، وكدهم من أجل إبراز موقع أمتنا الموروث من أعماق التاريخ لتملأ مقعدها الشاغر اللائق بها في التوازن الدولي" ص: ٤٣. بل يربط المؤلف مقياس الاصطفاء الإلهي للأنبياء والرسل لتبليغ رسالاته بفقه القلب المتحقق في شخصياتهم الإيمانية، "بل اصطفى -حصرًا- لمثل هذا الأمر المهمِّ غايةَ الأهمية والخاصِّ جدَّ الخصوصية بعضَ ذوي السجايا الممتازةِ المجهزين بجهاز خاص والعائشين في مقام القلب والروح، فكلَّمهم" ص: ١٢٢.

• **وظيفة إيمانية:** فالقلب المؤمن المشبع بيقينيات المركب الإيماني هو المؤهل -في نظر الأستاذ كولن- لصنع الحضارة الإنسانية المستقيمة، "ومن

إن العقل والقلب والفكر وأحاسيس الإنسان وكذا الوحي بكل ثمراتها، لها جميعًا في نظامنا الفكري أهمية بالغة وكأنها وجوه متنوعة لشيء واحد.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

الحق أن حقيقة الإيمان المتأصلةَ في عالمنا الداخلي، إنما تُديم وجودَها بقدْرِ تناميها وتوسعِها في الحياة المعيشة؛ فإذا بُذِرت بذور الإيمان وترعرعت واخضرّت في القلوب، فذلك يعني أن الأفق منبسط أمامنا إلى اللانهاية للتطور والتوسع. وكما يكون إيمانٌ كهذا الإيمان في الإنسان مصدرًا لا يَنفَدُ للقدرة والحيوية، كذلك يكون قاعدةً ومنصةَ انطلاق للارتقاء به باسم "خلافة الله في الأرض" إلى حق "التدخل في الأشياء"، وتشكيلِ صور البيئة المحيطة حسب مشاعره وأفكاره الإيمانية..." ص: ٦١/٦٠.

وهذا القلب المؤمن المشع إيمانًا هو الذي يصبغ الحياة بلونه المشرق الوهاج "فالإيمان النافذ إلى دواخل الإنسان بهذه الدرجة، يتجلى في أحوال المؤمن كلها، سواء في الوظيفة أو التجارة أو معاملات الأسواق أو سائر الأنشطة الاجتماعية، فيطبع بصماته عليها..." ص: ١٩٢.

• **وظيفة معرفية:** إن "فقه القلوب" يتشبع -معرفيًّا- بالعلوم الشرعية ومصادر الوحي لكي يزكو ويصفو، ويحقق وظائفه السابقة. فبالقرآن ينفسح القلب المؤمن، ويرتقي إلى عرش الكمالات "في العالم النوراني للقرآن، يتغير الوجود والأشياء والطبيعة

فجأة، ويسمو العقل إلى رؤية الأشياء على حقيقتها، ويتمكن القلب في جوه النيِّر من التفسح تمامًا فينمو ويتطور. ويعلو إلى أن يربط كل شيء بسلطنة القلوب" ص: ١٠٧.

كما يرتبط بالسنة النبوية فيتطهر ويترقى في سلم المقامات النيرة، "فالسنة بفروعها كافة، المتعلقة بالعمل أو الأخلاق، أو البيانات التي صدرت حول التربية والآداب أو الدساتير الموضوعة في اتجاه تزكية النفس، وتربية الروح، هي مصدر لا ينفد في كل المساحات الواسعة، يضيء عيوننا وقلوبنا..." ص: ٨٨.

ثالثًا: القوانين الحضارية

إن الفكر الحضاري للأستاذ كولن، والذي يَتَنَمْذَج في مجموعة من القوانين الحضارية التي استعرضها – تنظيرًا وتطبيقًا- في كتابه "ونحن نبني حضارتنا"، تتواشج مع "فقه القلب" كخلفية مرجعية إيديولوجية هامة، باعتبار أن الحضارة في تعريفها "حصيلة تحرك الإنسان بعقيدته لتغيير واقعه الطبيعي والاجتماعي" على أساس أن الحضارة تشمل إلى جانب الثقافة الإنتاج المادي، فالتقنية تمثل جسم الحضارة والثقافة روحها.

وهذه القوانين تمثل أحد جوانب الفكر الحضاري للأستاذ كولن في شرحه للذات المسلمة والذات المتغربة، وفي "إبصاره التاريخي" لمواقع "الخلل" وبدائل "الصواب والعلاج" انطلاقًا من رؤيته الإيمانية العميقة المشبعة بالحمولة المعرفية "لفقه القلب".

وسوف نستعرض ما استنتجناه من بعض هذه القوانين انطلاقًا من نصوصها الدالة.

• **قانون المداولة الحضارية:** وهو مصطلح قرآني أصيل ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾(آل عمران:١٤٠)، يشير إلى معادلة "السقوط والنهوض الحضاري"، وكيفية تجنب آفاق السقوط، والتحقق بفضائل النهوض، "نعم إن التداول التاريخي ما فتئ يعيد نفسه في تشابه يقترب من التماثل، فظهر التصاعد إلى الذرى هنا أو هناك، وفي هذا العصر وذاك، لكن لم ينحصر السموق ولا النهوض أبدًا في قارة بذاتها وفي عصر بعينه... إن الذي يحدد ملامح هذا "الانبعاث" القديم قدم التاريخ البشري هو المستوى الفكري والثقافي للإنسان المعاصر، وأعماقه الإنسانية، وسعته الميتافيزيقية ورحابته الروحية..." ص: ٦/٧.

• **قانون الموقعة الحضارية:** وهو قانون يستمد أصالته من مدلول قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾(المؤمنون:٦١)، فهذه المسارعة الحضارية والسبق الأممي هو دأب الصالحين الوارثين للأرض من أبطال القلوب الذين يتوفرون على مقوم الذاتية المحصنة، والاستشعار لحس المسؤولية الاستخلافية، "والأمر الوحيد الذي ينبغي أن نعمله اليوم هو أن نهرع إلى أخذ موقعنا في التوازن الدولي بالشعور الجاد بالمسؤولية وبهويتنا الذاتية ومن غير هدر للزمن، فإن تلكأنا في تعيين هذا الهدف، فقد نعجز عن إدراك الغد بله التقدم والتطور" ص: ٧.

• **قانون الاستبدال الحضاري:** وهو مصطلح

قرآني أصيل مستمد من قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾(محمد:٣٨)، ويسري على جميع الأمم حين تتفحم دواخلها، وتضعف أو تفقد فعاليتها الإيمانية القلبية، "ومن المحتمل بقوة أن المعنيين اليوم في الآيات الكريمة بالإذهاب والاستبدال هم النفوس الميتة. الذين لم يجددوا أنفسهم. وفرَّطوا في حق إيمانهم وتفحمت عوالمهم الداخلية..." ص: ٨.

• **قانون القابلية للاستعمار:** وهو قانون يؤشر على الانهزام القيمي الذاتي للأفراد والأمم، وانهيار المقاومة الحضارية للأمة وحصول عطالة وفراغ حضاري، "ولكن العجيب أن تتشكل رؤى هذا المجتمع في "الانبعاث من جديد" وأن يتوجه إلى قيمه الذاتية بعدما سبق إلى التضعضع في كل ما هو ذاتي فيه، وهُيِّيء ليستلب، وجعل قابلاً للاستعمار" ص: ١١.

• **قانون الإحياء الحضاري:** ويتضمن رؤية حضارية استشرافية للعودة، بفضل وظيفة الأزمات والمحن التي "تصهر" و"تنظف" و"توقظ" و"توحِّد" الصفوف التائهة لتحقيق هدف "الإحياء الحضاري". "ومع الزلات والكبوات، كان الانخراط يمضي ويدوم في هذا الإحياء الذي صارت الجموع تستشعره في عوالمها الداخلية وفي أرواحها وقلوبها" ص: ١٣.

• **قانون التحقيب الصفوي للأمة:** وهو نمذجة نظرية حضارية لمراحل تذبذب الأمة، بين مواقع "الخطل" و"واحة النجاة"، انطلاقًا من التعرية الروحية، إلى مرحلة الغيبوبة إلى مرحلة ردة الفعل إلى مرحلة الاستشعار الواعي إلى مرحلة مقاومة التوظيف المشبوه لصحوتها من طرف الأعداء

يربط الأستاذ كولن كل حركة دعوية أو حضارية عمرانية "بالمثل الأعلى"، والهدف الأسمى وهو "رضى الله تعالى" سواء تحققت النتائج الحركية والحضارية بقيم الانتصار أو قيم الاندحار في أعمارنا المحدودة.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

المتربصين. "وتوالت عوامل التعرية الروحية، ولقد بدا كل شيء في البداية كردٍّ فعلٍ للأفكار المستهان بها، والمعتقدات المتعرضة للتزييف والضمائر المقموعة. ثم أعقب ذلك حركات مستشعرة واعية وأنشطة مستديمة، فمن اللائق أن نعتبر تلك البداية بداية حقيقية للانبعاث بعد الموت لأمتنا، وكان طبيعيًّا أن يظهر بعد هذه المرحلة – كما ظهر من قبلها – من يريد أن يتحكم في هذه الحركة الواعية. ويوظفها كما يهوى ويشتهي..." ص: ١٣.

• **قانون المعايرة الحضارية:** فالمعيار الحضاري الأمثل ينطلق في عمله الإنمائي ليكون على وِزان السياق القيمي الخاص بمفاهيمه وأفكاره، "فإن كنا الآن نفكر في إعادة بناء الذات من جديد، ونبحثُ عن أسلوبنا الذاتي الحضاري، فينبغي أن نتخلص من احتلال المفاهيم والأفكار الغريبة في داخلنا، والمبرمجةِ على تخريب جذور الروح والمعنى فينا، وأن نتَّبع -بالضرورة- سبيلاً يُمكِّننا من العمل على طبع فكرنا الذاتي ونظامنا الاعتقادي الذاتي وفلسفتِنا الذاتية في الحياة، على نسيجنا الحضاري الخاص" ص: ١٥.

• **قانون التحديث الحضاري:** ويتم بالتخلص من أحلام التحديث المستوردة، والانتقال من الاستهلاكية

"الشيئية" لمنتجات الآخر، إلى الإبداعية والإنتاجية المسلحة بالذات الحصينة، مع الاستفادة من الآخر، وتطوير ثمرات حضارته في سياق قيمي خاص "نموذج اليابان"، "إن ما فعلناه في تاريخنا القريب هو الكدح في بناء الحضارة فوق إنجازاتها السابقة وأنعمها وثمراتها، أما اليابان وأمثالها من البلاد المتقدمة، فقد أقامت كل شيء على أسس الفكر الحضاري والمفاهيم والسلوكات الحضارية... فبينما كنا نكافح نحن في استكشاف طرق سهلة ورخيصة للحصول على نعم الحضارة ووسائل تقدمها، أقامت الشعوب المتقدمة بناءَ كلِّ شيء على الإنسان والأخلاق والتعليم والثقافة.. " ص: ٢٠. "إن تخلف عالمنا عن اللحاق بما بلغته الدول المعاصرة... قُصورٌ عن فهم كنه التحديث ونقص في الفكر والاكتفاءِ بالقوالب الفكرية النمطية كبديل عن حب العلم وعشق الحقيقة" ص: ١٨ بتصرف.

• **قانون الحضانة الحضارية:** وهو لبنة أساسية في صرح التفسير الإسلامي للتاريخ، باعتباره يعالج "فجر" الحضارة المرتبط بولادتها من "رحم شرعي" تنشأ فيه، وتصدر عنه حاملة خصائص نموها الوراثية تبعًا لظروف ونوعية النمو، فعلى قدر سلامة هذا الرحم الحضاري "الزمكاني" و"العقدي" الذي نشأت فيه بسلامة التصورات والمفاهيم التي تشرَّبتْها الحضارة في مهدها، تنشأ سليمة، وتحمل قابلية التجدد والنهوض كلما أدركها العثار، "إن تلك الحضارات التي كانت تُذهِل العقولَ وتبهر العيون بغناها الثقافي، لم تظهر في روما وأثينا ومصر أو بابل فجأة من غير مقدمات؛ إن الثقافة في كل مكان إنما وُلدت بعد حضانة طويلة في عالم المشاعر والأفكار للأفراد، وفي السفوح الخصيبة للوجدان العام، واستقت من المناهل الداخلية بشكل مباشر، ومن الخارجية بعد الترشيح والتصفية، فترعرعت حتى صارت بعد زمانٍ عمقًا مهمًّا لطبائع الشعوب، ولونًا ظاهرًا لحياتها... فهيمنت على حياتها في المعبد والمدرسة والشارع والبيت والمقاهي وغرف النوم..." ص: ٢٤.

• **قانون الإصلاح الحضاري:** وهو الذي يتجاوز "القشور" المدنية إلى "الجذور" الروحية المشكِّلة "للرحم الشرعي" لولادة الحضارة ونموها بخصائصها الوراثية. فالإصلاح يجب أن يتم "عمقيًّا" للقضاء على جميع الأعراض الخارجية، "إن اختزال أسباب المعضلات السياسية والاقتصادية والإدارية لأي بلد وحصرها في السياسة والاقتصاد والإدارة وإنْ صحَّ من وجهٍ معين، ولكنه معلول بنواقص من أوجه كثيرة... إذ ينبغي على الأمة ألا تغضَّ البصر عن جذورها المعنوية في جميع فعالياتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية..." ص: ٢٦/٢٥.

• **قانون الاعتبار الحضاري:** وهو مصطلح قرآني أصيل يمثل "حكمة" القصص القرآني الخالد، و"زبدة النظر" في مسيرة التاريخ الإنساني الحافل، خصوصًا في تجنب "مصائر" الأمم الهالكة بفعل خطاياها وأخطائها، "إن حوادث التاريخ لا تعيد نفسها مهما تشابهت فيما بينها، فاللازم أن نعتبر بعبرها، لا أن نتلقى دروسًا منها، ومن تم نوجه الأسئلة عن الماضي إلى أنفسنا في الحاضر، فنقول: إن الذين سبقونا قد

انقرضوا لما انحرفوا عن الغاية والهدف من وجودهم، ونحن اليوم في الموقف عينه، فالأصوب إذن أن نقاضي أخطاءنا بدلا عن الانشغال بأخطائهم. وإن سلمنا بوقوعها." ص: ٢٦.

• **قانون المثل الأعلى الحضاري:** وهو المنطلق الأول والأساس لبناء المحتوى الداخلي لأية جماعة أو حضارة، فهو تجسيد لرؤية وعقيدة خاصة، وتحديد للغايات التفصيلية التي تحرك التاريخ من خلال طاقات روحية تُبلِّغ الإنسانَ الحضاريَ إلى هدفه المنشود، لما يمثل شرطًا أساسيًّا لاستدامة التقدم الحضاري في طريقه الإيجابي اللاحب، "كذلك المجتمعات التي لا توجد لها أهداف سامية ومُثُل عليا، أو وُجِدت ولم تَمتلك معها جاهزيةً ذهنيةً تناسبهما، فإنك تجدها تتحرك باستمرار لكنها لا تقطع شوطًا، لأن قطع الأشواط يتطلب -منذ البداية- تعيين هدف سام يوقره الوجدان، ويرغب فيه الانسياق الداخلي في نشوة كنشوة العبادة." ص: ٤١.

• **قانون الانفصام والتشظي الداخلي:** وهو يمثل جوهر أزمة الغرب النفسية الذي فصل العلم عن الدين، ففصل به العقلَ عن القلب، فعاش شقاءً موجعًا لا شفاءَ منه إلا بالرجوع إلى التوحد الذاتي القيمي ضمن معادلة "القلب العاقل" و"العلم المؤمن" "والمؤلم أن فلسفة العلم في أوروبا... قد أوقعت الغرب كله في صراع دائم بين العلم والدين لأمور وأوضاع خصوصية، فخلَّف ذلك انفصامًا بين العقل والقلب، هذا هو السبب الرئيس للمعضلات المتشابهة منذ عصور في النُّظُم الغربية كلها" ص: ٥٤.

إن حوادث التاريخ لا تعيد نفسها مهما تشابهت فيما بينها، فاللازم أن نعتبر بعبرها، لا أن نتلقى دروسًا منها.

nesemat.com نسمات nesemat.com

• **قانون الخصوصية الثقافية الحضارية:** وهو يعتبر الثقافةَ أساسَ الحضارة باعتبار أن الثقافة ليست "معارف" جاهزة تُنقل وتُستورد، وإنما هي مفاهيم وعقائد ومشاعر وأحاسيس متلبسة بإنسان الحضارة منذ ميلادها إلى سقوطها. "فأية أمة أُرسيت قواعدُها بهذه المثابة على أساس ثقافي بهذه الرصانة، فإنها بمرور الوقت ستصل إلى مستوى من النضج، بحيث يكون من الطبيعي لها أن تتخطى كل العقبات التي تعترض طريقها كالجهل والفقر والتشرذم والتسيب والضغوط الخارجية." ص: ٢٥.

والقلب في نظر المؤلف جزء أساسي من مكونات النظام الفكري الحضاري، "إن العقل والقلب والفكر وأحاسيس الإنسان وكذا الوحي بكل ثمراتها، لها جميعًا في نظامنا الفكري أهمية بالغة وكأنها وجوه متنوعة لشيء واحد." ص: ١٠٦.

إن مفهوم الأستاذ كولن لحضارية الثقافة لَيتوغل عموديًّا لِيربطها بالسياق القيمي الخاص بكل أمة انطلاقًا من الأبعاد المعرفية "لفقه القلب" في حمولته الشمولية، "والثقافة هي مجموع الأحوال التي تعبر بها أمة من الأمم... عن قيمها الأخلاقية، وملاحظاتها المذهبية (العقدية)، وأفكارها ورؤاها حول الوجود

والكائنات والإنسان، وعن سلوكياتها الاجتماعية والسياسية وأصول تصرفاتها...، وأنها المجموع العام للأمور التي تُكتسب في سياق التاريخ في إطار الالتزام بالتفكير والإحسان "الذاتي" من أمثال الفكر والفن والعرف والعادة والعمل" ص: ٧٧.

كما أشار إلى المكونات الرئيسية "التصورية الذاتية" الخاصة بالثقافة -أساسًا- والمتمثلة في ثلاثية "الإنسان والكائنات والله" والتي لها علاقة واضحة بالمحتوى الداخلي للإنسان "القلب"، "إن العلاقة بين الإنسان والكائنات والله... من أهم الأسس في نظامنا الثقافي، وجميعُ فعالياتنا الذهنية والفكرية والعملية مرتبطة بهذه العلاقة... ونحن في نظامنا الفكري نعتبر الإنسان والكائنات وسائط تحملنا إلى أفقٍ عرفاني معين، وبها نتوجه إلى الصانع الجليل الأجل ونطلبه ونقصده." ص: ٧٨/٧٧ بتصرف.

الختام

خلاصة هذه الجولة المعرفية في ثنايا هذا الكتاب القيم، هي أن رؤية الكاتب الكبير "فتح الله كولن" استجمعت رؤى هرمه الفكري الحضاري بحلقاتها الثلاث، انطلاقًا من "فقه القلب" الذي لمسنا تواشجه مع جميع طروحاته الحركية الدعوية والحضارية العمرانية، مما يعد مفتاحًا رئيسيًّا لفهم شخصية الكاتب الفكرية/ الدعوية، والتي مزجت بين "شخصية المربي، وشخصية الداعية، وشخصية المفكر المصلح".

- شخصية المربي في بعده التزكوي "فقه القلب".
- شخصية الداعية في بعده الحركي "فقه الدعوة".
- شخصية المفكر المصلح في بعده الحضاري "فقه العمران"، أو البعد التمكيني.

نختم هذه المقاربة بنصوص دالة على التواشج بين قطبي "التكوين" و"التمكين" في "فكره الحياتي" و"حياته الفكرية" المحلِّقة بجناحَي "الكتاب والسنة" في فضاء العرفان الإلهي الفسيح.

"إن انبعاثنا مجددًا بثقافتنا الذاتية يتطلب رجالَ قلوبٍ متحفزين بالإيمان، ومهندسي فكرٍ سائحين في الغد بأفقهم الفكري، وعباقرةً يحتضنون الوجود والأحداث بتصوراتهم الفنية، ويتعرفون بتحسساتهم وتفحصاتهم الدقيقة على آفاق جديدة أبعدَ من الآفاق التي نحن فيها." ص: ٣٦.

"إن الإيمان -بمقدار انكشافه وعمقه- مُولِّد الطاقة الأساس لهذا الإنسان الحركي، والعبادة سنده ومحرِّكه الواقي، والأخلاق ومجموع العلاقات الإنسانية علامته الفارقة وفيصله المميز، والثقافة غدت سجيةً من سجاياه، والفن بدا انعكاسًا لاستطلاعه وتفحصه وحدسه الداخلي ومشاهداته الباطنة." ص: ٥٤. ■

الهوامش

(١) التضوء مصطلح علمي يعني: نفاذ الضوء خلال أنسجة الجسم كنفاذه خلال الأصابع حيث يتجلى بوهج أحمر. (المحرر)

(٢) جميع أرقام الصفحات الواردة في هذا المقال مطابقة للطبعة الثانية من كتاب "ونحن نبني حضارتنا" للأستاذ محمد فتح الله كولن عام ١٤٣٣هـ - ٢٠١١م، دار النيل للطباعة والنشر. (المحرر)

البعد الروحي والخطاب الإنساني في مشروع الخدمة

عبد المجيد بوشبكة

أستاذ التعليم العالي، ونائب رئيس شعبة الدراسات الإسلامية بجامعة شعيب الدكالي بالجديدة -المغرب، وعضو فريق دكتوراه: "فكر الإصلاح والتغيير في المغرب والعالم الإسلامي"، له عديد من الأعمال العلمية ومنها: "دور العمل الاجتماعي في التنمية"، "فلسفة جديدة لفهم القرآن الكريم" كتاب مطبوع وهو من وحي كتاب أضواء قرآنية للأستاذ فتح الله كولن. نُشر له عدد من المقالات في عديد من الصحف والمجلات المحلية والعالمية.

تحتوي "الخدمة" ممثلة في أفكار الأستاذ فتح الله كولن على توازن كبير بين ما هو فكري وروحي وعملي تطبيقي، جعلها أكثر تميزًا وقبولاً لدى عديد من الناس. ويعود الأساس الذي استمد منه الأستاذ هذا التوازن إلى الكتاب والسنة النبعين الصافيين اللذين لا ينضبان. إن أهم ما يميز الخدمة عن غيرها أن هذا التوازن لم يكن على مستوى الفكر والنظرية؛ بل تحول إلى أعمال تطبيقية نراها واقعًا حيًّا وملموسًا ممثلة في مؤسسات تعليمية وصحية وإعلامية واجتماعية وخدمية. لقد عمل الأستاذ فتح الله كولن على إرجاع المعنى الروحي للحياة بعدما فقدت المعنى، وأصبح كل شيء ماديًّا لا قيمة له إلا بالمادة؛ وكان ذلك من خلال تطبيق الخلطة الربانية النبوية والتفنن في تنزيلها تلاوة وتزكية وتعليمًا. حول هذه الأفكار وغيرها كتحديد القصد من مفهوم ورثة الأرض وصفاتهم، وماهية حركة الخدمة، وماذا يمثل فتح الله كولن في نظر المفكرين والباحثين، أجرى نوزاد صواش هذا الحوار الماتع الثري مع الأكاديمي المغربي والمفكر الإسلامي الأستاذ الدكتور عبد المجيد بوشيكة، والباحث والكاتب المصري الأستاذ صابر عبد الفتاح.

نوزاد صواش: أستاذَيَّ العزيزين الأستاذ الدكتور عبد المجيد بوشبكة والأستاذ صابر عبد الفتاح، هل وجدتم في فكر الخدمة خلطة متوازنة بين ما هو فكري وروحي وعملي تطبيقي؟ ما الذي شدَّكم إلى فكر الخدمة؟ وما الذي وجدتموه فيها وفقدتموه في غيرها؟

صابر عبد الفتاح: لدى الأخوة في الخدمة تعبير تمثيلي أبدأ به كلامي، وهو: "كن كالفرجار، قدم ثابتة في المركز، والأخرى تحلق إلى أقصى مدى"، وهو يشير إلى التوازن الذي تتسم به الخدمة. حيث تنطلق من ثوابت مرجعية تستند إلى الكتاب والسنة، وفي الوقت نفسه لها مَقْدِرة فائقة على تنزيل هذه النصوص القرآنية وفق القراءة المعاصرة للكتاب والسنة في الواقع. فالتوازن الدقيق بين السنن الكونية والسنن الشرعية سمة أساسية تكاد تتفرد بها الخدمة عمن سواها. ويبدو هذا جليًّا في حديث الأستاذ عن التقوى في مؤلفه الماتع التلال الزمردية[1]، فقد تحدث كثير من العلماء عن التقوى وذكروا لها تعريفات ومفاهيم مختلفة، وكلها تؤدي غرضًا في حثِّ الإنسان على التمسك بهذا المفهوم الإيماني القويم، لكن الأستاذ حينما تعرض لهذا المفهوم ذكر أن من أبرز معانيه هو التوازن الدقيق والمراعاة والتوفيق بين السنن الكونية والسنن الشرعية، وأعتقد أنه بُعدٌ مختلف للتقوى، لعلي لم أسمع به عند أحد آخر. فالتوازن بين هذين الخطين بصورة دقيقة ليس من السهولة بمكان؛ كثير من الناس بدأوا هذا التوازن وحاولوا أن يسيروا فيه، ولكن توازنهم اختل عند اصطدامهم بأول عثرة في هذا الطريق، لقد غفلوا عن هذا المبدأ مبدأ التوازن مما سبَّب نوعًا من أنواع الصدام مع المجتمع. فتولد عن ذلك أمراض اجتماعية لا زلنا نعاني من آثارها حتى اليوم، ومنها الإقصاء من طرف، والانعزال من الطرف الآخر والتقوقع داخل إطار معين وسب ولعن الآخر، ودخلنا في دائرة مفرغة من الفعل ورد الفعل دون أن ننجز شيئًا، أو نحقق أي غاية. وصارت الفرقة والاختلاف والاستقطاب المجتمعي سمة تميز عالمنا في القرون الأخيرة.

لكن لم تعدم الأمة مصلحيها ومجدديها فكانت الأزمات حينما تحلك وتشتد يرسل الله ﷻ لهذه الأمة من ورثة الأنبياء من يجدد لها أمر دينها من أمثال أساتذتنا بديع الزمان النورسي وفتح الله كولن في تركيا وغيرهم في مختلف البلاد، ممن عملوا على ترميم هذا الصدع، وبذلوا جهدهم ليجمعوا شتات الأمة على أمر رشد. ثم تأتي مجموعة أخرى متهورة وتفجر هذا الترميم من جديد ويكون هناك عود على بدأ. لكن مما يحسب للخدمة ثباتها وتوازنها على هذا الخط الدقيق الذي سنته لنفسها؛ لا يحرفها عنه المغريات المتعددة، ولا الابتلاءات المثبطة.

نوزاد صواش: هذا التوازن الذي نتحدث عنه موجود في الكتاب والسنة، هو ليس اكتشافًا لشيء جديد، لكن ربما هو إعادة فهم لشيء موجود أو غائب أعادت الخدمة إحياءه من جديد. أليس كذلك؟

صابر عبد الفتاح: هذا صحيح، لكن الواقع الذي عايشناه لفترة ليست قصيرة من الزمان، وتراها تختفي ثم تعود لتطل برأسها مرة أخرى، هو غياب

ذلك التوازن في الجانبين، فجانب يرى -مثلا- أن دراسة العلوم الطبيعية تؤدي بالناس إلى الانحراف وإلى الإلحاد، وبالتالي ينبغي عزل الناشئة عن هذا النوع من التعليم، ومن ثمَّ نشأ لدينا جيل منخرط في دراسة العلوم الشرعية ومنكبٌّ على الدراسات الدينية، ولكنه يعيش في عزلة شعورية ومعنوية عن محيطه الذي يحيا فيه، لا يخالط إلا من كان على نفس شاكلته ولا يجد لديه حاجة في هذه المخالطة أصلاً. وجانب آخر رأى أن من موجبات التطور ألا يكون للدين دخل في حياتنا، ومن ثم فلا تطور للأمة ولا تقدم لها -في رأيه- دون الفصل التام بين الدين والعلم. أما الأستاذ كولن ومن قبله الأستاذ النورسي فقد حسموا هذه المسألة حسمًا تامًّا إذ يرى الأستاذ كولن أن الذين يدعون إلى إخلاء الروح من العلوم الطبيعية لا يقل ضررهم عن الذين يدعون إلى إبعاد العلوم الطبيعية عن الناس بدعوى أنها تؤدي إلى الإلحاد.

وهذا الاتجاه لم يتفرد به الأستاذان بل ربما نجد من سبقهما في هذا الاتجاه، لكن الجديد الذي أشرتَ إليه في السؤال والذي أضافته الخدمة إلى واقع الفكر الإسلامي، هو تطبيق هذا التوازن على أرض الواقع في صورة مؤسسات بشرية ومادية، فلم يعد هذا التوازن محصورًا قي إطار الفكر فحسب أو تنظيرًا في صورة كتابات وأدبيات، وإنما تحول إلى واقع وتحولت هذه الأفكار إلى مؤسسات نراها الآن.

نوزاد صواش: دكتور بوشبكة مسألة وفكرة التوازن أظنها قد حُسِمت إلى حد بعيد لدى النخب في العالم الإسلامي في المساحة الفكرية، لكن ربما

يرى الأستاذ كون أن الذين يدعون إلى إخلاء الروح من العلوم الطبيعية لا يقل ضررهم عن الذين يدعون إلى إبعاد العلوم الطبيعية عن الناس بدعوى أنها تؤدي إلى الإلحاد".

nesemat.com نسيمات nesemat.com

المشكلة الآن في المساحة العملية، يعني عندما تقرأ مالك بن نبي، أو عندما تقرأ لأحد من المفكرين الكبار تجد هذه الفكرة موجودة بقوة؛ لكن قبل قليل ذكر الأستاذ صابر أن الأستاذ يأتي فيقيم توازنًا وتأتي مجموعة أخرى فتخلّ بهذه الموازنة، المسألة إذن تربية الناس على هذه الخلطة أليس كذلك؟ والسؤال الآن ماذا يوجد في هذه الخلطة؟ ثم هذه الخلطة كيف ينزلها الأستاذ إلى الواقع؟

عبد المجيد بوشبكة: في الحقيقة من الصعب أن نتحدث عن هذه الخلطة في بضع ثوان. فالموضوع أكبر من أن يشرح ويفسر في جُمل، وسأكون صريحًا إذا قلت إنني لا زلت أتلمس ملامح هذه الخلطة إلى اليوم، فنحن ندَّعي أحيانًا ويظهر لنا أننا فهمنا الخدمة واستوعبناها، لكن يوما بعد يوم يبدو لنا بأن هناك دقائق وتفاصيل تحتاج إلى مزيد من الإمعان، فهنالك العديد من الجُمل والمقالات في بعض كتابات الأستاذ كولن وأقواله تبين أن هناك أمورًا كثيرة لا زالت في جعبة هذا الرجل، ولم يفصح عنها بعد. لذلك فما نراه في حقيقة الأمر ليس إلاّ معالم لهذه الخلطة. ما فعله فتح الله كولن هو أنه استطاع أن يجمع ما تفرق عند الناس، لذلك نجح في

nesemat.com نسمات nesemat.com

ما من مدرسة من مدارس الخدمة في الدنيا إلا ونرى رجال الأعمال يحومون حولها كما يحوم الفراش حول النور، وكما تحوم النحلة حول الزهور، فيأتون بكل مَن في طريقهم يأتون بكل شيء، من أجل الدعم.

تقديري في هذا الأمر، ولذلك هناك مقولة مشهورة نقرأها كثيرًا ونسمعها، وأرى أنها متحققة في الرجل، وهي أن أعلامنا من السلف كنا نقول عنهم: كانوا رهبانًا بالليل فرسانًا بالنهار. فكثير من أعلام أمتنا عاشوا الرهبنة أو عاشوا الفروسية، لكن اليوم نحتاج إلى موازنة حقيقية في هذا الأمر. بمعنى آخر نحتاج إلى شيء من زاد الروح وشيء من المادة، فالتفريق بينهما أو تغليب أحدهما على الآخر هو إفساد للخلطة كلها. الأستاذ يتحدث عن هذا لكن بلغة أخرى، يتحدث عن أبناء العصر والبشرية جمعاء اليوم فيما يسمى بالأمن الروحي.

إن مسألة الأمن الروحي اليوم، أصبحت مطلبًا عالميًا، ولعله لما وفدت أو غزت مجتمعاتنا أو أمتنا الثقافة المادية، وخاصمْنا الدينَ والروح ندم الناس اليوم وكأنهم ندموا على ذلك الزمن وعلى تلك الفعلة، واليوم نراهم يبحثون عن الروح من جديد، وراحوا يهيمون على وجوههم في أصقاع العالم منهم من يذهب عند الطرقيين والزوايا، عندنا في المغرب مهرجان روحي كبير مهرجان فاس للموسيقى الروحية، حينما ترصد من حضر وعدد الحضور ودولهم ومستوياتهم الثقافية تتعجب! نرى في شرق المغرب أيضًا عند الشيخ حمزة حفظه الله وهو شيخ صوفي، الذين يحضرون عنده من كل الأصناف والألوان والمستويات وأعدادهم تُغري بالتوقف، لماذا يأتي هؤلاء كلهم هائمين على وجوههم؟ إنهم يبحثون عن المعنى، يبحثون عن غذاء للروح؛ لقد ضج الناس بالبحث عن الروح لكن كلٌّ يتلمسها بطريقته.

خلطة الأستاذ قدمت هذه الوصفة لكن بالمقادير المطلوبة، جعلت الروح في كل شيء فما من شيء إلا وتجد فيه هذه اللمحة. ولذلك فإن عمل الأستاذ هو إرجاع المعنى للحياة، بعدما فقدت المعنى وأصبح كل شيء ماديًا لا قيمة له إلا بالمادة، وطغى ما يسمى بالصراع والقوة. الكل يبحث عن القوة، والقوة إذا حصلت تدفع إلى الصراع، فذهبت الرحمة بين الناس، وذهب التعاون وكل هذا بسبب فقد هذه الروحانيات والمعنى.

نوزاد صواش: تحدثتم عن العلاقة بين العلم والإيمان وبين الجانب الروحي والمادي، موضوع الهجرة مثلاً، هل هو جزء من هذه الخلطة، كيف فهم الأستاذ الهجرة؟ وكيف فعّلها؟

عبد المجيد بوشبكة: إذا سمحتم لي في هذه القضية قبل أن نمر إلى الهجرة أستحضر هنا قولاً مفيدًا ومهمًّا جدًا لأخي وأستاذي فريد الأنصاري رحمة الله عليه، فقد قال كلامًا نفيسًا حينما تَعرَّف على الأستاذ وتعرَّف على الخدمة وهو يتحدث عن قول الله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾(الجمعة:٢) يقول الأستاذ فريد الأنصاري

رحمه الله: هذه المهمة الشريفة وهي مهمة الأنبياء والرسل عليهم السلام قام بها كثير من الناس، لكن لم يكن لها الأثر المطلوب من التعليم والتزكية والتربية.

فهذه الخلطة النبوية هي الأصل وهي النموذج والقاعدة، يقول الأنصاري في خلاصة كلامه: إنه وجد مواصفات دقيقة لتطبيق هذه الخلطة النبوية بل الربانية القرآنية في واقع أهل الخدمة، بل ووجد الأستاذ متفننًا مبدعًا في تنزيلها، فتلاوته للقرآن بالطريقة التي يتلوها، وما نتج عنها من تفاعل ومن ثمار قوية تجعلنا نشهد بأنها فعلاً هي التلاوة المقصودة. والتعليم الذي فهمه ومارسه ويطبقه في المدارس، وما نراه من نتائج استتبعته تبين من خلاله أنه هو التعليم المطلوب والمقصود في الآية. ثم التزكية وهي القضية والشق الثاني والمهم من الخلطة وهو روح الخلطة، هذه التزكية التي ذهب فيها الناس ونحوا فيها مناحي عدة لكنهم لم يوفقوا بالشكل المطلوب، الأستاذ استطاع أيضًا أن ينزلها تنزيلاً بحيث خالطت كل شيء، لذلك خلطته هذه التي يتحدث عنها في هذا المشروع الكبير بدءًا من الإنفاق مرورًا بالهجرة إلى مجالات أخرى متعددة سنرى بأن الأستاذ بعث فيها روحًا جديدة وأدخل فيها معنى جديدًا والجميع يغترف من نفس المنبع، فنرى الناس هائمين على وجوههم ما بين مهاجر ومنفق من الكبار والصغار حتى من الطلبة الصغار الذين يذهبون إلى أقاصي الدنيا، أنا أقول لهم لماذا أتيتم هنا؟ أنتم لديكم في بلدكم من المدارس والجامعات ما يشرف، فلماذا أنتم في إفريقيا أو أدغال كثير من أصقاع العالم؟ فيجيبك بكل بساطة وبكل براعة نحن مهاجرون، فنخجل نحن من أنفسنا، ونقول ما هذه الروح التي بُثت في هؤلاء القوم؟ كيف هؤلاء الصغار الذين يحملون هذه الأهداف الكبيرة ويضعون عنهم مُتَع الدنيا التي يرتع فيها أمثالهم؟ هؤلاء يتحدثون عن أهداف كبرى؛ عن هجرة وعن إنفاق وعن عمل في سبيل الله ﷻ، من بثَّ فيهم هذه الروح؟ من استطاع أن يشعل هذه الجذوة من جديد في قلوب الناس؟

نوزاد صواش: ذكرت إشعال الجذوة يا أستاذي، في النهاية ما يفعله الأستاذ هو كلمات يقولها، الجميع يقول كلمات، فما الفرق الذي تحدثه كلمات الأستاذ؟

عبد المجيد بوشبكة: كلماتُ الأستاذ حية ليست ميتة. كلنا يقول نفس

صابر عبد الفتاح

باحث وكاتب مصري، متخصص في دراسة حركة الخدمة وفكر الأستاذ كولن، شارك في عديد من الندوات وورش العمل والمؤتمرات عن الخدمة في تركيا وخارجها، له عديد من المقالات والدراسات التحليلية في هذا الموضوع. شارك مؤخرًا في تحرير كتاب: "مواقف في زمن المحنة" الذي يجمع حوارات الأستاذ كولن الإعلامية بعد يوليو ٢٠١٦م. يشرف حاليًا على إصدارة "نسمات" المتخصصة في الدراسات الحضارية والاجتماعية التي تعنى بفكر الخدمة.

الخدمة حولت أحلامنا التي في مخيلتنا إلى واقع ملموس نشاهده، وأثبتت أنه لا عذر لقاعد، كما أثبتت أن مشاكل المسلمين وهمومهم لا تستعصي على الحل.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

الكلمات، كثير من الناس اليوم يقولها وقالها كثيرون قبلهم، اليوم الأستاذ يقول نفس الكلام الذي نقوله، وهو نفسه الكلام الذي جاء في القرآن الكريم، والذي تلفظ به رسولنا الكريم ﷺ، فلماذا هو حي عنده ميت عندنا؟ من قذف فيه هذه الروح؟ كيف استطاع الأستاذ أن يحيي هذه الكلمات ويجعلها حارقة يرمي بها في الناس ويتحركون ويهرولون نحو أهدافهم؟ هنا مربط الفرس! نقول هناك شيء ما في هذه الخلطة، هناك روح ما، من أين جاءت؟ هذا السؤال الذي ينبغي أن نبحث عنه. الأستاذ لم يقل شيئًا جديدًا في حقيقة الأمر ما قاله الأستاذ هو ما قاله الناس وغيره من المصلحين. لكن لماذا قول الأستاذ أنتج فعلاً وحركة وعمرانًا وباقي الأقوال لم تنتج شيئًا بل كثير منها أنتج صراعًا وتخلفًا ودمارًا.

لقد حمل فتح الله كولن همَّ الإنسانية وعاش كأنه مسؤول عن كل المظالم التي تعيشها البشرية؛ لذا سعى جاهدًا أن يقدم ما يزيل البؤس والشقاء عن الإنسان، فقدم مشروعًا مختلفًا عن كل المشاريع المطروحة، ووجهُ الاختلافِ أنه مشروع ذو روح، وهذه الروح هي التي جعلت الناس يقتنعون بهذه الخدمة، ويحبونها حبًا جمًّا، حتى إنك تجد عشرات الناس من مختلف الألوان والأطياف والسياسات والأحزاب والجماعات والمجموعات، تجتمع في طاولة واحدة حول مشروع الخدمة. كيف استطاع الأستاذ أن يهيمن على كل هذه العقول وهذه القلوب ويجعلها تجلس إلى طاولة واحدة بعدما تنافرت إلى زمن طويل وفي جغرافية متسعة؟ وكيف يستطيع كذلك تلاميذه الصغار أن يجمعوا هؤلاء الكبار المختلفين المفترقين الذين لا يجتمعون؟ يجمِّعونهم حول هذا المشروع حول هذه الفكرة، هذا في تقديري يستحق الدرس والتوقف.

نوزاد صواش: هل تريد أن تقول: إن الأستاذ فتح الله كولن فهم كلمة السر التي تفتح القلوب، وكيفية تأثير تلك الكلمة؟

صابر عبد الفتاح: في الحقيقة كلمة السر ليست سرًّا، بمعنى أن الجميع يعلمها، لكن قليل من يستطيع أن يستخدمها ليفتح بها القلوب، كلمة السر هي حرارة الصدق التي يستشعرها المتلقي عندما يستمع إلى كلمات الأستاذ، فتلامس شغاف قلبه، لأنها من القلب خرجت فجدير بها أن تصل إلى القلب وتستقر في سويدائه، كلمة السر هي وقوف الأستاذ كولن أمام كلماته، صحيح أن المصطلحات الكبرى في الخدمة التي تحدثنا عنها والتي دعا الأستاذ إليها والتي أعاد إليها الروح من جديد هي أصلاً مصطلحات إيمانية قرآنية نبوية، لكنك تجد الأستاذ أول الواقفين مع هذه الكلمات، ينزلها من عهد النبوة إلى واقعنا حية تتجسد على الأرض،

ويخرجها من صفحات الكتب وبطون المراجع لتتجول على قدمين بين أظهرنا، لذلك سَرَتْ في الأمة مسرى العافية في السقيم، ودبت في جسدها الخامد دبيب الروح في هذا الجسد.

خذ عندك مثلا قيمة الإنفاق التي يدعو الأستاذ إليها الأصناف (التجار) المنفقين في سبيل الله، تجد الأستاذ أول الواقفين مع هذه القيمة، ينفق من ماله الخاص حتى ينفد، ورغم حقوق الملكية التي يتمتع بها من دروسه وكتبه فإنه لا يملك حجرًا على حجر على حد تعبيره، كل ما يعود عليه من ريعٍ من هذه الحقوق كلها وقف لله تعالى، وبمثل هذا استولت كلماته على القلوب، يروي لنا أحد تلاميذه ما سمعه من بعض التجار المنفقين في سبيل الله عندما سُئلوا عن سر هذا السخاء في الإنفاق قالوا: رأينا أستاذنا لا يملك شيئًا فاستحيينا من أملاكنا؛ فأنفقنا أموالنا مرات ومرات.

نوزاد صواش: هل تريد أن تضيف شيئًا هنا أستاذي؟

عبد المجيد بوشبكة: نعم، لقد أيقظ الأستاذ وأشعل كل المصطلحات حتى المصطلحات الميتة؛ كنا نقرأ مصطلح "الهجرة" ولا زال كثير منا يقرؤها ويعتبرها طقسًا من الطقوس، ويتبرك بها ويعتبرها تاريخًا انتهى "ولا هجرة بعد الفتح"؛ لكن الأستاذ الآن جعلنا وجعل الناس يعيشون هجرة حقيقية اليوم. حينما نرى الأخ الكبير من رجال التعليم يحمل حقيبته ولا يدري أين يتجه، فإذ بالطائرة

nesemat.com نسمات nesemat.com

أرجع الأستاذ المعنى للحياة، بعدما فقدت المعنى وأصبح كل شيء ماديًا، وطغى الصراع والقوة. والقوة إذا حصلت تدفع إلى الصراع، فذهبت الرحمة والتعاون وكل هذا بسبب فقد هذه الروحانيات والمعنى.

تحطُّ به في أقاصي الدنيا وتسأله حينها لماذا أنت هنا؟ يقول مهاجر، كيف مهاجر؟ ماذا تفعل؟ أريد أن أبني مدرسة، كيف تبني مدرسة؟ كلام لا يقبله العقل لكنه واقع.

الوقت لا يسمح لأتحدث عن قصائد كثيرة في هذا الباب، لكن هؤلاء القوم يأتون بهذه النيات بهذا الحب بهذا الصدق ويخبروننا بأنهم في النهاية بنوا مدرسة، بل مدارس. لم تكن معهم ولا ليرة واحدة، لكنهم بنوا مدارس في كثير من بلدان العالم. هذا الإيمان الذي وصل إلى هذا المستوى وهذا الحب بداعي الهجرة في سبيل الله ﷻ والذي جعل كثيرًا من رجال الأعمال يتحركون في كل مكان. ما من مدرسة من مدارس الخدمة في الدنيا إلا ونرى رجال الأعمال يحومون حولها كما يحوم الفراش حول النور، وكما تحوم النحلة حول الزهور، فيأتون بكل مَن في طريقهم يأتون بكل شيء، من أجل الدعم.

نوزاد صواش: كيف ينبغي أن نفهم إنسانية الخدمة، وكيف تسعى لنفع كل البشر؟

صابر عبد الفتاح: هذا أفق آخر للخدمة، وبعدٌ من أهم أبعادها يجب الوقوف عنده وتأمله طويلاً، وهو الأفق الإنساني الرحب في فكر الخدمة، الأفق

الأستاذ أول الواقفين مع كلماته ينزلها من عهد النبوة إلى واقعنا حية تتجسد على الأرض، ويخرجها من صفحات الكتب وبطون المراجع لتتجول على قدمين بين أظهرنا.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

الذي يُخرج المسلمين في واقع اليوم من قوقعتهم التي تشرنقوا فيها إلى آفاق الدنيا كلِّها، والأستاذ بهذا الفكر يعيد التجلي إلى رحمانية الرسالة التي أرسل بها خير الخلق ﷺ في قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء:١٠٧)، ومن روعة التعبير في الآية القرآنية صياغة المعنى في أسلوب الحصر المؤكَّد بالنفي والاستثناء، والعموم المفهوم من قوله تعالى "للعالمين"؛ فلم يقل مثلا :"إلا رحمة للمؤمنين" أو "إلا رحمة للمسلمين". فالرحمة شاملة للعالمين بغض النظر عن أي شيء، وهذا ما يتجلى في البعد الإنساني الذي تحمله الخدمة وتقدمه للناس كافة.

نوزاد صواش: أستاذي العزيزين في أدبيات الأستاذ كولن حديث عن ورثة الأرض الوارد ذكرهم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(الأنبياء:١٠٥)"، فماذا يقصد بهذا؟

صابر عبد الفتاح: مفهوم ورثة الأرض من المفاهيم المفتاحية عند الأستاذ فتح الله كولن، فقد اعتنى به الأستاذ كثيرًا، وأفرد له بعض المقالات في كتابه القيم "ونحن نقيم صرح الروح"، تحدث عنهم تارة بالإجمال وتارة أخرى بالتفصيل، ذكر صفاتهم ومؤهلاتهم التي تؤهلهم لهذه الوراثة، وهذا التفصيل الذي ذكره الأستاذ متحدثًا عن صفات هؤلاء الورثة يذكرني بأسلوب القرآن في الحديث عن صفات "عباد الرحمن"، فالقرآن يتحدث عن صفاتهم وكأنه يخبر عنهم وفي ذات الوقت يجعل هذه الصفات أفقًا عمليًّا إرشاديًّا لمن يريد أن يكون من عباد الرحمن. كذلك الأستاذ كولن متأثرًا بهذا الأسلوب القرآني يعدّد صفات هؤلاء الورثة لكي يقول للجيل الذي يربيه وللأجيال كافة: إذا كنتم تريدون أن تكتسبوا صلاحية التمثيل الحقيقي لهذه الوراثة فعليكم بهذه الصفات؛ تمثلوها واسترشدوا بها واعملوا بموجبها وساعتها ستتحقق لكم الوراثة الحقيقية التي وعدكم الله بها.

عبد المجيد بوشبكة: لقد ورثنا هذا الإرث ولكننا ضيعناه، ونحن مطالبون أن نسترجع ما ضيعناه. لقد قصرنا أو قصر غيرنا فلماذا تم التقصير؟ وما سبب الضياع؟ الأستاذ يبكي في كثير من كلامه على ضياع الإرث، ويئن ويتأوه، فمواصفات الذين ضيعوا والذين يسترجعون ويرثون وهو الصلاح، هو هدف للأستاذ من ضمن أهداف هذا المشروع، مشروع الخدمة.

نوزاد صواش: قابلتم الإخوة التجار ورجال الأعمال والداعمين لمشاريع الخدمة من كل النوعيات والفئات، كلٌّ يسهم حسب استطاعته، وأثنيتم عليهم وعلى صلاحهم وعلى فهمهم، فهل يمكن أن يكون لهؤلاء نصيب في صفات ورثة الأرض؟ لأنهم

لا يجدون لذة أمتع من لذة إنفاقهم في سبيل الله.

عبد المجيد بوشبكة: نعم لقد قابلت عددًا كبيرًا من هؤلاء أثناء تجوالنا في أماكن كثيرة عندما كنا نطلع على مؤسسات الخدمة، وحصل لي الشرف أن زارني بعضٌ من هؤلاء الإخوة في المغرب، تغدينا معًا، ثم ذكر لي مرافقهم أنهم رجال أعمال من أعيان إسطنبول، من رجال المال الكبار، وقد كانوا كبار السن أيضًا، رجال محترمون، فرحت بهم كثيرًا ثم قلت لهم: نسمع عن الإنفاق عندكم وتتحدثون عنه ولكن لا ندري كيف تنفقون؟ وما الذي يدفعكم إلى هذا السخاء في البذل والإنفاق؟ فأجابني رجل منهم قائلًا: أستاذ، نحن لم نكن نفهم معنى الإنفاق في قول الله ﷻ ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾(سبأ:٣٩) حتى التقينا بالأستاذ فتح الله كولن وسمعناه يشرح هذه الآية لنا، وبعد هذا الشرح من الأستاذ قررنا أن ننفق أموالنا كلها في سبيل الله ﷻ، وبالفعل أنفقناها كلها، والذي شجعنا على ذلك أننا رأينا الأستاذ نفسه لا يملك شيئًا، فسألنا أنفسنا لماذا لا ننفق مثله؟ ما الذي يضيرنا إن أنفقنا مقتدين به لا سيما أن الله ﷻ وعدنا بأنه يخلف علينا. تابع الرجل: أنفقنا يا أستاذي فأرجع الله لنا كل شيء وزيادة. ننفق وهو ﷻ يخلف علينا، قال ونصرٌ على الإنفاق، فتذوقنا حلاوة الإنفاق. هذه الحلاوة التي لم يتذوقها كثير من المسلمين اليوم. قال الرجل: إلا واحدًا منا، وأشار إلى واحد منهم قائلاً: قد ابتلاه الله، فهزَّ هذا الرجل رأسه موافقًا له على كلامه قائلًا: لعله

إن المطلع على حياة الأستاذ، وعلى كتبه يراه يجسد مجموعة من القيم النبيلة كالإخلاص والصدق والتقشف والإنفاق وخدمة المجتمع والنظرة الشمولية للإنسان ومحبة الخلق وتخفيف معاناة البشر في جميع أنحاء العالم.

nesemat.com نسمات nesemat.com

ابتلاء وامتحان من الله لذنب عصيته به، ثم ضحكوا. فقلت هذا الجو وهذه الروح وهذا الانبعاث في القلوب كما في الأفعال والأعمال أمر محير، يحتاج إلى رجلٍ من نوع خاص يوقده، رجلٍ ليس كسائر الرجال. لذلك أقول: هذا الرجل ورث سرًا من أسرار النبوة، هذا الرجل العبقري المبدع، رجل من أهل الله ﷻ.

نوزاد صواش: هل يقتصر دور الأستاذ فتح الله كولن على الكلمة فقط؟ أم أن محبيه وجدوا فيه صفات أخرى جذبتهم إلى امتثال أفكاره؟

صابر عبد الفتاح: يرد إلى خاطري الآن كلامٌ كان يُتمثَّل به في معرض الاستمساك بالكلمة والموت من أجلها وهو: "تظل كلماتُنا عرائسَ من الشمع، حتى إذا متنا في سبيلها دبَّت فيها الروح وكُتبت لها الحياة"، لكني أجدني الآن أختلف مع هذا القول بسبب الأستاذ، وبسبب ما رأيته من أخلاق أبناء الخدمة الذين يقتدون بالأستاذ، فكلمات الأستاذ تُولد حية وتظلُّ حية، ينميها بدموعه وإخلاصه، ويغذيها بتطبيقها على نفسه أولاً، لذا لا تحتاج إلى موت أحدٍ في سبيلها حتى تحيا، بل تحتاج أن تحيا بها ولها. وهو ما يحدث بالفعل لدى الأستاذ والخدمة، فالأستاذ وقَّاف عند كل كلمة، وعند كل

الأستاذ كولن رجل لم يترجل عن صهوة جواد التبليغ منذ صغره حتى الآن، وعنَّى رفقاء دربه ولم يتوقف، ولن يشقَّ القادمون خلفه غبار سعيه، لأن كل خطوة خطاها في هذا السعي بألف ميل مما يعدون.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

مفهوم، وعند كل مصطلح يدعو إليه؛ إذا تحدث عن التبليغ والإرشاد تراه قد تجول واعظًا في مدن تركيا كلها من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، لم يقتصر وعظه وتبليغه على المساجد ودور العبادة فحسب، بل زار المقاهي والنوادي والمنتديات الاجتماعية، مردِّدًا بينه وبين نفسه: إذا لم يأت الشباب وبعض الفئات إلى المساجد فلنذهب نحن إليهم. وإذا تحدث عن الإنفاق والتضحية وبذل الجهد في تربية الشباب فستعرف أنه كان يصحب الشباب ويذهب بهم إلى هضاب الأناضول، يقيم لهم المخيمات ويحفر الأرض، ويدك أوتاد الخيام بنفسه، ويشعل النار ويصلح المولدات الكهربائية إذا تعطلت، بل يصنع لهم في بعض الأحايين طعامهم بنفسه، حتى يُذكَر أنه كان يحفر وبعض الطلاب واقفون حوله، وأحدهم يشير عليه بالمكان المناسب للحفر! لقد روى كلماته بدموعه، وغذَّاها بالصلة بالله ﷻ وبمحبة المصطفى ﷺ حتى صارت شجرة كبيرة طيبة الثمار، باسقة الأغصان، وارفة الظلال، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

نوزاد صواش: إذن، هي الحياة في سبيل الكلمة ورعايتها وتجسيدها على أرض الواقع يا أستاذي؟

عبد المجيد بوشبكة: صحيح، ولعل هذا هو أحد أسرار هذا الرجل وخصوصيته التي تفرَّد بها عن غيره، فلو استطعتَ فعل هذا يا أستاذ نوزاد واستطعتُ أنا والآخرون لما كانت هناك مشاكل في هذه الحياة. ويحضرني في هذا المقام، ما سمعته من أحد تلامذة الأستاذ كولن نفسه وهو الأستاذ جمال ترك حفظه الله، فقد حكى لنا كلمة عجيبة، وهي تبين وتدلُّ على مدى تمثل الأستاذ لهذه الحقائق، فالأستاذ ليس رجلاً عاديًا، فهو يتمثل هذه القضايا والحقائق والمبادئ تمثُّلاً عجيبًا بشكل نموذجي. أستاذ جمال وأنا أحادثه في هذه القضية قال لي: إن الأستاذ كان مقبِلاً على خطبة أو درس ذات مرة فوجدته وكأنه يتوجع، بتعبير الأستاذ جمال: وكأنه يعيش آلام المخاض!، قال: فسألته عن حالته تلك، فأجابني جوابًا غريبًا قال: يا جمال الكلمة شهادة، الكلمة شهادة، إذا كنت تهم بقول أشهد أن لا إله إلا الله وأحسست بأنك غير صادق وقلت أشهد فاسكت فلا تتمها فأنت كاذب. الرجل حينما تصل به حساسية النطق والتمثُّل للقضايا وللمبادئ إلى هذا المستوى وهذه الدرجة فهذا رجل غير عادي. إذا كان يَعتبر الكلمة شهادة، ولا ينطق بها إلا إذا كان صادقًا فيها متمثِّلاً لها فأقدر بأن كل كتاباته لا تصدر إلا على أنها شهادات له. وكل كتاباته مفعمة بهذه الروح وبهذا التأثير وبهذه الحرارة، وبهذه القوة، وبهذا الهم لأنها شهادة من طرف هذا الرجل.

صابر عبد الفتاح: وهناك شيء آخر أستاذيَّ

العزيزين أحب أن أضيفه إلى ما سبق، وهو فكرة الهم أو المسؤولية، الأستاذ كولن -كما ذكر أستاذي الدكتور عبد المجيد قبل قليل- يحمل همَّ الإنسانية ويعيش كأنه مسؤول عن كل المظالم التي تعيشها البشرية؛ ولذلك يحدثونك عنه أنه دائم الأرق، متواصل الأحزان، و"مثله يأرق" على حد تعبير المتنبي شاعر العربية الأكبر، لكن الفكرة أيضًا أنه مع رعايته لكل هذه الأفكار سلوكًا وقدوة وتطبيقًا، فقد وضع هذا الهمّ في نفوس محبيه جميعًا، وشغلهم بهذا الهمَّ عن همومهم الشخصية أو الحياتية، ومن ثَمَّ وجدوا في الأستاذ كولن نموذجًا لكل الشخصيات التي يدعوهم أن يتمثلوا بها، نموذجًا للمهاجر، ونموذجًا للمعلم، ونموذجًا للمنفق بلا تردد، يعني وجدوه مُركبًا من جميع الشخصيات الإيمانية التي دعاهم إليها، بالإضافة إلى أنه أورث هذا الهمَّ وتلك المسؤولية لطلابه ومحبيه الذين تربوا في مدرسته، كلٌّ حسب طاقته؛ صحيح قد لا يكونون سواءً في الهمِّ والمسؤولية، لكنهم جميعًا مسؤولون، جميعًا مهمومون بهمٍّ واحد، وهو هم خدمة هذا الدين. فتجد أنك عندما تلتقي بأي أخ من الإخوة في أي موقع من المواقع سواء كان تاجرًا أو معلمًا أو صحافيًا أو إعلاميًا أو مدرسًا أو إلخ، تجده مجنونًا بالخدمة؛ لا يكتفي المعلم بوظيفته التي يؤديها على أكمل وجه، بل يتعقب الطالب بعد المدرسة، يسأل عنه ويرعاه كأنه ولده، ولا يكتفي التاجر بإنفاقه فحسب بل يتحمل مسؤوليته وواجبه تجاه

الخدمة هي مدرسة جديدة لكل مهموم بقضايا الناس اليوم. الخدمة مدرسة لا يهمها شرقٌ ولا غربٌ ولا عربي ولا غير عربي، ولكنها تحمل مشروعًا عالميًا كما جاء به محمد ﷺ وعلى نهجه للناس كل الناس.

nesemat.com نسمات nesemat.com

الدعوة، فيسافر إلى بلاد بعيدة، تاركًا أهله وذويه في عيد الأضحى وغيرها من المناسبات ليفرح الفقراء وذوي الحاجة ويشاركهم إلى جانب المشاركة المادية مشاركةً وجدانية، وكذا كل واحد منهم حسب موقعه ومسؤوليته.

نوزاد صواش: أستاذي كنت تتحدث عن كتاب "النور الخالد" وأن فيه نصوصًا تقريرية، ما المقصود من ذلك؟

عبد المجيد بوشبكة: نعم، لقد وقعت لي قصة غريبة مع طلابي وأنا أدرسهم مقرر الجامعة، فكنت أقرأ للطلبة شيئًا ثم تأتي المحاضرة التالية، فأقول للطلبة، من يُذكِّرنا بالخلاصات الماضية فنجد الطلبة متضاربين حائرين، قالوا يا أستاذنا: نحن وضعنا خلاصات، ولكننا إذا أعدنا قراءة هذه الصفحات وهذه العناوين من جديد فإننا نفهم أشياء جديدة كل مرة، فلا ندري كيف نتعامل مع الكتاب؟ فضحكت وقلت لهم: والله يا أبنائي أنا أعيش نفس الهم، فكلما قرأت كلام الأستاذ أفهم شيئًا، وعندما أعيد القراءة أفهم أشياء أخرى جديدة، وكلما حاولت تلخيصه لم أستطع، كلما حاولت أن أحذف جملة أو كلمة، أجد بأن أسلوب الأستاذ أسلوبٌ قرآنيٌ إلى حدٍ

كلمات الأستاذ تُولد حية وتظلُّ حية، ينميها بدموعه وإخلاصه، لا تحتاج إلى موت أحدٍ في سبيلها حتى تحيا، بل تحتاج أن تحيا بها ولها. وهو ما يحدث بالفعل لدى الأستاذ والخدمة.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

بعيد، بحيث إنك لا تجد فيه إطنابًا وحشوًا في الكلام، كلما أردت أن تزيل جملة أو كلمة قد تترك فراغًا أو بترًا في المعنى المقصود، ومن ثمَّ فالسيرة النبوية بعيون الأستاذ فتح الله كولن في النور الخالد إضافة جديدة لن تجد لها مثيلاً في أيٍّ من كتب السيرة النبوية الأخرى، ولذلك أقول: من لم يقرأ السيرة النبوية في كتب أخرى لن يعرف قيمة هذا الذي قاله الأستاذ والذي كتبه.

إن السيرة النبوية عند الأستاذ فتح الله كولن سيرة من نوع خاص؛ امتزج فيها الموضوعي بالذاتي، امتزج فيها موضوع السيرة النبوية بذاتية الأستاذ الشغوف بهذه السيرة إلى حد بعيد، وكأني أراه يتحدث عن تقرير، وعن سيرة ذاتية لما يعيشه ويعايشه مع أبنائه ومع خدمته، لأن كل اللحظات التي أراه يتمثل فيها يتحدث فيها عن قضايا كأنه يسرد ما عاشه وما يعانيه، حينما يتحدث عن كيفية تعامل الرسول ﷺ مع هؤلاء الرجال من الصحب الكرام، كيف يتعامل مع النوابغ منهم؟ كيف يُعيِّنهم؟ كيف يختارهم؟ كيف أنه حساس لتخصصات الرجال، ويضع كل واحد في مكانه. إنني أدعو الإخوة أن يقرؤوا ما قاله الأستاذ في هذا الصدد، وأن يستمعوا إلى طلابه وأبنائه، وكيفية اختيار الأستاذ كولن لطلابه. كيف ينجحون نجاحًا باهرًا في هذه المهام التي يعينهم فيها دون سابق إنذار. بمعنى أن الرجل يتمثل السيرة النبوية ويتقمصها إلى حدٍّ بعيد، لذلك حديثه عن النبي ﷺ والكل يلاحظ ذلك ويشاهده يكون بلا توقف، فما تحدث الأستاذ كولن ذات مرة عن النبي ﷺ دون أن يتأوه ويبكي لما تعانيه الأمة من ضياع.

نوزاد صواش: إذا سمحتم لي باختصار، إذا أردنا أن نصف الأستاذ كولن من هو؟ وما الخدمة؟ أستاذ صابر نبدأ بك ونختم بالدكتور بوشبكة.

صابر عبد الفتاح: الخدمة هي طريق من طرق الوصول إلى الله ﷻ، وسبيلٌ لإيصال الناس إلى ربهم، من خلال تذليل العقبات التي تعترض سبيلهم.

الخدمة حولت أحلامنا التي في مخيلتنا إلى واقع ملموس نشاهده، ونماذج نفتخر بها ونباهي بها الناس. الخدمة أثبتت أنه لا عذر لقاعد، ولا عذر لمن يتقاعس بأي حجة من الحجج، بحجة أن الأعداء يتآمرون علينا، وأنهم يريدون إفشالنا، وا وا وا إلخ. هناك مجالات كثيرة جدًّا تستطيع أن تقدم فيها شيئًا لله ﷻ وطرق كثيرة تستطيع أن تبلغ بها دين الله ﷻ، وأن تزيل العقبات من أمام الناس للوصول إليه ﷻ. الخدمة أثبتت أن مشاكل المسلمين وهموم المسلمين أمور لا تستعصي على الحل. الخدمة دعوة إلى التفاؤل. الخدمة دعوة تتجلى فيها رحمة رسول الله ﷺ للإنسانية جمعاء. الخدمة تحتضن الناس جميعًا، وتقول لهم إن الإسلام جاء ليحتضن الناس

جميعًا. أما الأستاذ فماذا عساي أن أقول في حقه، ونحن لا نستطيع أن نوفيَّه حقه؟

الأستاذ رجل من بقية السلف الصالح في عصرنا الحديث، رجل نذر نفسه كاملة غير منقوصة لله ﷻ، رجل امتطى جواد الدعوة إلى الله ﷻ منذ نعومة أظفاره، ولم يترجل عن صهوته حتى هذه اللحظة، فأتعب من حوله وما تعب، وعنَّى رفقاء دربه ولم يتوقف، وسيظل القادمون خلفه يشقون غبار سعيه ولن يدركوه، لأن كل خطوة خطاها في هذا السعي بألف ميل مما يعدون، نسأل الله تعالى أن يجزيه خير ما جزى مصلِحًا عن دعوته، ومربيًّا عن تلامذته، وعالمًا عن علمه الذي ورثه، وفهمه الذي أودعه، وسبيله الذي سلكه.

نوزاد صواش: أستاذي دكتور بوشبكة.

عبد المجيد بوشبكة: الخدمة هي مدرسة جديدة لكل مهموم بقضايا الناس اليوم. الخدمة مدرسة لا يهمها شرقٌ ولا غربٌ ولا عربي ولا غير عربي، ولكنها تحمل مشروعًا عالميًا على نهج الحبيب المصطفى ﷺ، للناسِ كلّ الناس. هي مدرسة عالمية وإنسانية، وكلُّ من يحمل همًّا وخيرًا للإنسانية لن يجد خيرا من هذه الخدمة، التي قدمت في مستويات متعددة، ومجالات متعددة، أجوبة مقنعة، وبدائل حقيقية، نافعة لكل الناس في كل أصقاع العالم. الواقع يثبت أنها ناجحة في كثير من البلدان ويقول أهل المنطق من لم يقنعه دليل الوقوع فلا دليل يقنعه.

أما الأستاذ فلا نجد له تعريفًا يليق به، نعرف بأنه يرفض كل تمجيد وتبجيل في حقه وإن كان أهلاً لذلك، لكننا بصدق نقول: إنه الرجل المجدد لهذا العصر. وهذا لا يمنع أن يكون هناك مجددون آخرون في عصر واحد على رأي جملة من العلماء، لكننا نشهد بأن الرجل الآن مجدد العصر، رأينا كيف أنه فقه النصّ والوحي وكيف فقه الواقع، وكيف فقه التنزيل، فكان مبدعًا في الفهم في النصّ، وفي الفقه، وفي التنزيل، وهذا إن دلَّ فإنما يدل على تبحر الأستاذ في العلوم الإسلامية والاجتماعية المختلفة.

إن المطلع على الحياة الشخصية للأستاذ، وعلى كتبه يراه يجسد مجموعة من القيم النبيلة كالإخلاص والصدق والتقشف والإنفاق وخدمة المجتمع والنظرة الشمولية للإنسان وتعميق الإيمان ومحبة الخلق وتخفيف معاناة البشر في جميع أنحاء العالم، وكل ذلك يؤهله أن يكون وحيد عصره، فالله أسأل أن يوفقه ويرعاه ويحفظه.

نوزاد صواش: جزاكما الله خيرًا، كان حوارًا دسِمًا حلّقتما بنا في أجواء مختلفة. ■

الهوامش

(١) في التلال الزمردية للأستاذ فتح الله كولن تعريف شاملٌ للتقوى يقول فيه: "للتقوى معنى شامل وعام إلى حد أنه يَشْغَلُ مساحة واسعة جدًّا من المعاني؛ فمن المحافظة على آداب الشريعة بكل دقة وأمانة.. إلى رعاية قوانين الشريعة الفطرية.. إلى وقاية الإنسان سرّه وخفيّه وأخفاه من الشرك وكل ما يُشم منه الشرك عند كل سلوك يؤدي به إلى جهنم، أو كل عمل يثمر ثماراً في الجنة.. وإلى الوقاية من التشبه بالآخرين في التفكير وطرز الحياة." التلال الزمردية ص ٩٢، دار النيل ط٣، ٢٠٠٦م.

سؤال النهضة
الحلقة المفقودة والنموذج المنشود

محمد ياسين

باحث مصري في فكر النهضة من منطلق قرآني وإنساني، خطيبٌ ومحاضرٌ حرٌّ في مجال الفكر الإسلامي، ومدرب حر في مجال التطوير والتنمية الذاتية والإدارية. حاصل على بكالوريوس الهندسة المدنية، جامعة الأزهر ٢٠٠٤م، وليسانس أصول الدين والدعوة، قسم الدعوة والثقافة الإسلامية، جامعة الأزهر ٢٠٠٨م. وماجستير في الدعوة الإسلامية عام ٢٠١٧م عن أطروحة بعنوان "تجربة الشيخ فتح الله كولن الدعوية دراسة نموذج لنهضة المجتمع والأمة من خلال العمل الدعوى".

يُعَدُّ من أشد فصول المحنة التي يتعرض لها مشروع الخدمة حاليًا استغلالُ المؤسسة الدينية التركية الرسمية في النيل من سمعة الخدمة ومحاولة اغتيال رائدها الأستاذ كولن معنويًّا، عبر اتهامه ومشروعه الدعوي باتهامات ما أنزل الله بها من سلطان، لا تليق بشرف الإنسان العادي، فضلاً عن قامة علمية ودعوية مجدِّدة من أمثال الأستاذ كولن. ولكن من رحم هذه المحنة قد تولد المنح والعطايا الربانية بلا أي تدبير من العبد. فقد شهد عام ٢٠١٧م زخمًا علميًا أكاديميًا على أعلى مستوى ولا سيما في أروقة جامعة الأزهر الشريف، حيث نوقشت فيها رسالتان إحداهما للماجستير والأخرى للدكتوراه حول المشروع الدعوي للأستاذ كولن، وأثره في نهضة الأمة والمجتمع. وهذه الدراسة هي قراءة موجزة لرسالة الماجستير التي تمت مناقشتها في أبريل ٢٠١٧م بكلية أصول الدين بالقاهرة، قسم الدعوة والثقافة الإسلامية، وفيها يفتش الباحث عن إجابة لسؤال النهضة، ويفتش عن الحلقة المفقودة فيها، والنموذج المنشود من خلال تجربة الخدمة الدعوية.

nesemat.com نسمات nesemat.com

لا ريب أن السؤال الكبير الذي ينبغي على كل باحث ومفكر وعالِم أن يبحث عن إجابة له -اليوم- هو سؤال النهضة، كيف يمكن لأمتنا أن تخرج من حالة التيه الحضاري؟ كيف لها أن تنبعث من جديد؟ كيف لها أن تعود مركزًا للحضارة وشمسًا للعرفان ونورًا للوحي الإلهي وضياءً يستضاء به في دياجي المادية المسيطرة على العالم؟ وهل الأمة مؤهَّلة وهذا حالها لتتحمل رسالة الإسلام وتنشر نوره في كل مكان؟ ومن أين يبدأ من يرغب في الإصلاح وينشد النهضة؟ من العمل السياسي الذي يستهدف إزالة أنظمة حاكمة واستبدالها بأخرى؟ وهل نجح هذا ذات مرة وأثبت فاعليته وديمومته؟ أم من العمل الدعوي الذي يستهدف إعادة صياغة الإنسان من جديد، ومن ثم صياغة المجتمع وبناء حضارة الأمة؟ وهل هناك نموذج يمكن الاسترشاد به والبناء عليه؟

كانت هذه الأفكار تدور في ذهني، وتعتمل في خاطري، حين وقع في يدي كتاب "عودة الفرسان" للدكتور فريد الأنصاري -رحمه الله- عن الأستاذ "فتح الله كولن". قرأتُ الكتاب في شوقٍ ولهفة، وجذبتني شخصيةُ الرجل وتجربته الدعوية، وآثاره العملية وزاد من عجبي أن يكون هذا الأمر ليس مجرد تاريخٍ يُسطَّر، ولا رواياتٍ تُحكَى وإنما تجربة حيَّة بين أيدينا.

دفعني هذا إلى مزيد من البحث والدراسة، ثم

دراسة تجربة الخدمة، تجعلنا نوقن أننا قادرون على تجاوز سلبيات الماضي والنظر إلى المستقبل نظرة مغايرة، بأن نحمل القرآن، كرسالة خالدة موضوعها هداية الإنسان كل الإنسان في الأرض مطلق الأرض.

بدأتُ في دراسة فكر الرجل وتجربته من خلال ما يأتي:

- قراءة ما تُرجِم من مؤلفاته.
- دراسةُ ما كُتِب عن شخصه أو فكره أو حركته، ما كان منها بالعربية أو ما تمَّت ترجمته.
- زيارةُ المؤسسات التعليمية لـ "الخدمة"، ومقابلة أبناء الخدمة مرةً بعد مرة، ومناقشتهم حول أفكار الأستاذ وشخصيته وما قيل ويُقال عنه وعن حركته وما طبيعة العلاقة التي تجمعهم، إلى غيرها من النقاشات والزيارات التي اتَّضحت معها الرؤية، وتكوَّنت الفكرة.

رأيتُ في تجربة الأستاذ كولن إجابةً عن سؤال النهضة، وتحديدًا لمعالمها، وغوصًا في أعماقها. وجدتُ فيها الحلقة المفقودة، والنموذج المنشود؛ واخترتُ للبحث في هذه التجربة عنوان "تجربة الأستاذ فتح الله كولن الدعوية: دراسة نموذج لنهضة المجتمع والأمة من خلال العمل الدعوي".

والدراسة في مجملها وعلى تعدد فصولها تدور حول ثلاثة محاور:

- محور الشخصية الفذَّة للأستاذ كولن.
- محور الفكرة والنظرية.
- محور الحركة والتطبيق.

تجربة الأستاذ كولن تجربةٌ لا نستطيع فهمها حقًّا إلا في سياقها التاريخي والحضاري، في ضوء حركات الإحياء والتجديد الإسلامي.

nesemat.com نسمات nesemat.com

وهي دراسة معنيَّة في الأساس بتقديم هذا النموذج باعتباره نموذجًا نهضويًا ومثالاً حضاريًّا والمقصود بـ"النَّموذج" هنا:

• مجموعة القيم والتصوُّرات والأفكار التي تمَّ تنزيلُها على أرض الواقع، وتصلُح لأن تكون مثالاً يهتدي به السائرون في طريق النهضة

• تقديم هذا النموذج بهذا المعنى لا يعني كونه صورة مثالية، بل هو اجتهادٌ بشريّ، قابلٌ للتصويب والمراجعة والنقد.

• من خصائص النموذج قابليته للتعميم، ومن ثمَّ فهذا النموذج يحمل في طيَّاته الخصائص الصالحة للنمو في بيئات مختلفة على مستوى الأمة ككُلٍّ، تماما كما تحمل البذرة الصغيرة خصائص الشجرة العملاقة، لاسيما وقد اختُبِرت في بيئات متفاوتة وآتت ثمراتٍ نافعةً حيثما حلَّت.

المحور الأول: الأستاذ كولن الشخص والتجربة

لا تكاد تنفصل تجربة الأستاذ فتح الله كولن الدعوية عن حياته على اختلاف مراحلها وتعدُّد فصولها، وهذا المحور معنِيٌّ بمحاولة رسم المعالم الرئيسية لشخصية الأستاذ "فتح الله كولن" باعتباره أحد الرموز الدعوية والفكرية الإسلامية العالمية المعاصرة التي تسهم على نحو فعَّال في تجديد الخطاب الإسلامي، ورسم الطريق نحو نهضة إسلامية وإنسانية شاملة تجمع بين الفكر والحركة، والنظرية والتطبيق، والعقل والعاطفة والتربية والسلوك دون ذاك الفصام بين هذه الثنائيات، الذي عانت منه أمتنا الإسلامية ولاتزال، لذا، فقد حاولتُ الاقتراب من عالَم الأستاذ في هذا المحور، من خلال طريقين:

الأول: إلقاء الضوء على حياته وتجربته الشخصية.

الثاني: تحديد موقع تجربة الأستاذ كولن في ضوء تجارب الإصلاح والتجديد في تاريخنا القديم والحديث، ليتضح جليًّا كيف أن الأستاذ قد مدَّ خطَّ التجديد والإصلاح الإسلامي على استقامته.

١- حياة الأستاذ وتجربته الشخصية

يمكننا أن نلمح عدة سمات تميَّزت بها حياة الرجل ومنها:

أ- النشأة الروحية والمناخ الجاد: نشأ الأستاذ فتح الله كولن في بيئة ذات طابع خاص، فأسهم من حوله جميعًا في بناء شخصيَّته؛ فلنشأته مناخ متميز هيّأته له خصائص أسرته الروحية، وملازمة أهل الذِّكر والقلوب النيّرة لبيتهم بسبب حب العلماء.

نهل في صباه الباكر من هذا المنهل الصافي، وارتمى بكلِّيته في هذا المحضن الدافئ، أما شيخه الأول الشيخ الألوارلي، فقد بقي الأثر الذي تركه

حاضرًا في وجدانه على الرغم من مرور عشرات السنين، يقول الأستاذ: "رغم مرور السنين لا زلتُ أشعر ببرد لمسات الشيخ محمد لطفي الحانية على أذني، وهو يقول لي: "ألِنْ أُذُنيك، وأصغِ جيِّدًا، لكي يتفتح ذكاؤك وتقوى فراستُك".

ب- التكوين العلمي الذاتي: على الرغم من أن الأستاذ كولن هو ابن للمدرسة التقليدية في التعليم الديني، إلا أنه لا يمكن اعتباره أسيرًا لتلك المدرسة على الإطلاق، والسبب المباشر في هذا أن تكوينه العلمي كان ذاتيًا بامتياز، فلم يكتف الأستاذ فتح الله بالعلوم الشرعية وعلوم اللغة والتراث، وإنما أخذ ينهل من كلِّ معين يرى فيه علمًا نافعًا، فـركَّز على تلقين نفسه مبادئ العلوم الطبيعية والفلسفة والأدب والتاريخ، إضافة إلى التراث الفلسفي الغربي والشرقي على حدٍّ سواء.

والقارئ لكتابات الأستاذ لن يجد عناءً يُذكر في اكتشاف هذه العقلية الموسوعية المطَّلعة على الثقافات المختلفة، فمهما كان تخصصك فإنك واجدٌ في كتاباته ما يحفِّز عقلك ويُثري قريحتك.

جـ- تأثير رسائل النور وشخصية الأستاذ النورسي: على الرغم من أن تجربة الأستاذ كولن -في رأيي- قد استوعبت تجربة النورسي، ثم تجاوزتها إلى آفاق أرحب، إلا أن هناك حالة من الوفاء والتقدير لشخص الأستاذ النورسي وتجربته لا تكاد تفارق الأستاذ كولن، فالنورسي -بحق- هو شيخه الذي لم يره، وأستاذه الذي لم يجلس بين يديه.

"الخدمة" إطارٌ نظري، لكنه تحوَّل بفعل ما نُفِث فيه من طاقة روحية وحركية وفكرية وثقافية، إلى واقع حركي متميز.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

تُرى هل كان الأستاذ النورسي ببصيرته الفذَّة يرى أنه يمهد الطريق لآخرين يفتح الله على أيديهم مغاليق البلاد وقلوب العباد، فيقول: "يا ناظر! أظنُّني أحفر بآثاري المشوَّشة عن أمرٍ عظيم بنوع اضطرارٍ منّي. فيا ليت شعري هل كَشَفتُ.. أو سينكشفُ.. أو أنا وسيلة لتسهيل الطريق لكشَّافه الآتي"[١].

هذه الرابطة شديدة الوضوح بين الرجلين العظيمين لا تكاد تخطئها عين، فـ"عندما يتحدث كولن عن الإسلام اليوم يمكننا سماع صوت النورسي ورسالته"[٢].

د- الحياة في محراب الدعوة: الدعوة إلى الله هي محور حياة الأستاذ فتح الله كولن، والتأثير الكبير لمواعظه ودروسه، هي حجر الزاوية والعنصر الفعال في هذه الحياة الدعوية. إن الصفة الأولى للأستاذ كولن هي أنه داعٍ إلى الله، والدعوة إلى الله عنده لها مفهوم واسع شامل يتناول الموعظة والخدمة والتربية والتعليم والحوار والإغاثة ومجاهدة النفس واكتشاف الذات. من هنا بدأت فكرة "الخدمة"، من العمل الدعوي، بدأت الدعوة تشق طريقها في سكون وهدوء، وهكذا هي الأشجار الباسقة العملاقة، حيث تبدأ من نبتة

كيف يمكن لأمتنا أن تخرج من حالة التيه الحضاري؟ كيف لها أن تنبعث من جديد؟ ومن أين يبدأ من يرغب في الإصلاح وينشد النهضة؟ وهل هناك نموذج يمكن الاسترشاد به والبناء عليه؟

nesemat.com نسمات nesemat.com

صغيرة.

ويمكننا القول إن الخطوة الأولى نحو تأسيس التجربة يكمن وراء شخصية الأستاذ كولن المؤثرة، وعشقه للدعوة، وقوة كلماته وتأثيرها في رجال الأعمال وطلاب العلم الذين كانوا ينصتون إلى خطبه ودروسه ومواعظه.

٢- تجربة الأستاذ فتح الله كولن في ضوء تجارب التجديد والإصلاح

تتبَّعْتُ بعض المدارس التجديدية ودرسْتُ تجربة الأستاذ كولن في ضوئها، وكان من أهم هذه المدارس:

١- مدرسة الإمام أبي حامد الغزالي في إحياء الدين في نفوس الناس.

٢- مدرسة الإمام عبد القادر الجيلاني في إخراج جيل جديد من المربين والعلماء.

٣- مدرسة مولانا جلال الدين الرومي مدرسة الحب والتسامح واحتضان البشرية.

٤- مدرسة الإمام محمد عبده مدرسة إصلاح التعليم.

٥- مدرسة الأستاذ بديع الزمان النورسي مدرسة إنقاذ الإيمان وخدمة الإنسان.

إن هذه المدارس الإحيائية قدَّمت نماذج لنهضة المجتمع والأمة من خلال العمل الدعوي والفكري والروحي، وهو ذاته المجال الذي نبحث فيه وعنه، وقد خرجتُ من هذه الدراسة لتجربة الأستاذ كولن في ضوء هذه التجارب بما يلي:

أ- أن تجربة الأستاذ كولن امتداد لهذه المدارس الرائدة، فهي تجربةٌ حديثةٌ بالمعنى الزمني، لكنها متجذِّرةٌ في أعماق الأمة على الحقيقة، مع مراعاتها لطبيعة الزمان والمكان.

بـ- تشترك هذه المدارس في أنها تبنَّت منهج الإصلاح التدريجي الذي يبدأ من المجتمع ويعتمد على تغيير النفوس.

جـ- تشترك هذه المدارس في كونها تجارب بدأت فردية بشخصٍ ذي همَّةٍ عالية، ثم تحولت إلى مدارس إحيائية.

د- أن هذه المدارس اتَّفقتْ أو كادتْ تتَّفقُ على أن محور نشاطها الأساسي هو التربية والتعليم.

هـ- الأثر الكبير للتصوف في صياغة حياتهم الشخصية، ومن ثَمَّ في آثارهم الفكرية وفي مناهجهم في الإصلاح والتجديد.

إن تجربة الأستاذ كولن -إذًا- تجربةٌ لا نستطيع فهمها -حقًّا- إلا في سياقها التاريخي والحضاري، في ضوء حركات الإحياء والتجديد الإسلامي.

المحور الثاني: الأفكار المُلهِمة

فيما يأتي نموذج لتلك الأفكار الراشدة التي كانت

ملهمة لتلاميذ الأستاذ الذين حملوا هذه الأفكار وطاروا بها في كل مكان، ينشرون ضياءها ويطبقون معانيها

١- الانطلاق من العمق الداخلي للإنسان إلى نهضة المجتمع والأمة: لم ينشغل الأستاذ كولن بأمرٍ من الأمور بقدر انشغاله بـ"الإنسان" من حيث كونه إنسانًا: وفي التجربة الدعوية للأستاذ فتح الله كولن، يحتلُّ بناء الإنسان قمة الأولويات، فهو يشير إلى أن: "المخاطَب في الإسلام هو قلب الإنسان الذي يسع ويستوعب السماوات والأرض بسعته المعنوية، وهدف الإسلام هو سعادة الإنسان الدنيوية والأخروية."[٣].

إنه لا يمكن قياس حضارة أي مجتمع بما يمتلك من أعراض الحياة وثرواتها، وإنما بمستوى ما تحتويه من إنسانية وأخلاق، وهذا -عند الأستاذ- هو مفهوم "وراثة الأرض" وهو المفهوم المستوحى من قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(الأنبياء:١٠٥) وهو المفهوم الأقرب لإعادة صياغة الإنسان من جديد لبناء حضارة راشدة تقوم بهذا الإنسان ومن أجله.

وهو إذ يسعى جاهدًا لإعداد هذا الجيل، يرسم ملامحه بريشة فنان مبدع، وينحتها نحت خبير مدقِّق، فهذا الإنسان هو صاحب الإيمان الكامل الذي يستطيع تحدِّي كل القوى الدنيوية، وهو صاحب العشق والرغبة التي لا تقاوَم في سبيل الوصول إلى الحقيقة، وهو ما يعتبره الأستاذ كولن

إن الخطوة الأولى نحو تأسيس التجربة يكمن وراء تأثير الأستاذ كولن، بشخصيته المؤثرة، وعشقه للدعوة، وبقوة كلماته في رجال الأعمال وطلاب العلم الذين كانوا ينصتون إلى خطبه ودروسه ومواعظه.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

أهم إكسير للحياة في الانبعاث من جديد، وهو إنسانٌ حر في تفكيره ومُوقِّرٌ لحرية التفكير حيث إن التحرُّرَ وتذوُّق حس الحرية عمقٌ مهم لإرادة الإنسان وباب سحري ينفتح على أسرار الذات".

٢- الفكر والحركية في آنٍ واحد: يُلخِّص الأستاذ فتح الله كولن خط كفاح "ورثة الأرض" بكلمتي (الحركية والفكر)، حركيةٌ وفكرٌ قادران على تغيير الذات والآخرين. بل إنه لا يكتفي بمجرد أن يتزاوج الفكر مع الحركة فينصهرا في بوتقةٍ واحدة، بل أن يكون الفكر والحركة في حالةِ استمرارٍ دائمين، فيدعو إلى الحركية المستمرة والفكر المستمر، ومن ثَمَّ يُعرِّف الفكر لا باعتباره مصطلحًا مجردًا، ولكن باعتباره حركة نابضة بالحياه، فيقول: "إن الفكر عملٌ حركيٌّ داخلي، فالفكر المنظم والهادف هو التساؤل من الكائنات بذاتها عن المجاهيل التي تجابهُنا في وتيرة الوجود، والاستماع إلى جوابها عنها، أو بتعبير آخر، فعالية الشعور الباحث عن الحقيقة في لسان كل شيء وفي كل مكان، بتأسيس قرابة بين ذاته والوجود كله."[٤].

إن الأستاذ فتح الله كولن هنا يجعل الفكر

تجربة الأستاذ فتح الله كولن تجربة دعوية خالصة سواء في المنطلقات والغايات، أو في الوسائل والأساليب، فهي ليست تنظيمًا مغلقًا، أو حزبًا سياسيًّا، ولا حتى حركة ذات إطار محدد، أو شروط عضوية مثلاً.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

والحركة كجناحي طائرٍ، لا يمكنه التحليق إلى الآفاق بدونهما معا، ومهما كانت قوة أحدهما فإنه وحده لا يستطيع مهما حاول أن يطير.

٣- الهدف الأسمى إحياء الأمة "الانبعاث من جديد": إن الغرض من هذا البحث في الأساس هو محاولة عرض نموذج نهضوي ينطلق من منظور دعوي إسلامي. من السهل أن يكتب المفكرون والعلماء عن الإسلام كبديل، وأن يطرحوا رؤية شاملة لهذا، لكن التحدِّي سيكون حتمًا عند "التطبيق"، ومحاولة تقديم النموذج، ومن خلال قراءة ما سطَّره الأستاذ فتح الله كولن نجده يرسم معالم هذا النموذج المنشود:

- النموذج له هدفٌ محوري شديد الوضوح وهو عنده إنشاء أمة عظيمة.
- النموذج لا يَعيبُه أن يكون في "دائرة صغيرة" ما دام يسير نحو الهدف.
- النموذج يقدم حالة نجاح ولو بقدر معين، وتوضيحًا للفكرة ذاتها يذكر الأستاذ أن هناك ثلاثة مراحل تقطعها الأممُ الناهضة في مسيرتها الحضارية، وهي:
- تعيين هدف سام يوقره الوجدان، وهو هنا هدف إحياء الأمة.
- تفعيل منظومة سليمة حسب معطيات الظروف والبيئة العامة المؤسسية.
- توجيه مختلف دورات الطاقات إلى نقطة واحدة معينة، ويعني تسخير التراكم العلمي والتجريبي والطاقة الكامنة لهذا الهدف السامي وتلك الغاية المنشودة.

وحين يتضح عند الداعية أو رجل الخدمة الإيمانية هذا الهدف السَّامي، ومراحله وطبيعته، فإن نار الشوق تمُور في وجدانه، منطلقًا إلى غايته لا يلوِي على شيء، "تجده وقد شرع أجنحته وحلَّق مثل الطائر حينًا، وحطَّ على الأرض وسار ماشيًا حينًا آخر؛ فهو ميمِّمٌ وجهه نحوه ﷺ يهرول إليه دون توقف، وقد احتضن كل شيء بمحبة غامرة، في كل منزل يحطُّ رحاله فيه، يشعر بظلالٍ جديدةٍ للوصال تظلله فيعيش بهجة "ليلة عُرْس"[٥]سعيدة، وفي كل منحنى يطفئ نار شوق، ويلتهب في الوقت نفسه بنار شوقٍ أخرى، فيبدأ بالاحتراق من جديد، ومن يدري كم من مرة في اليوم يجد نفسه مغمورًا بنسمات الأنس"[٦].

٤- التبليغ وظيفة الأمة: التبليغ عند الأستاذ كولن هو الوظيفة المقدَّسة التي لا حياة للأمة ولا نهضة بدونها، فـ "هذا الواجب المقدَّس السَّامي إن لم ينفَّذ في حياة الفرد، فإن انتظار نشوء مجتمع فاضل لا يعني غير الخيال، وذلك للعلاقة الوطيدة

بين الفرد والمجتمع، وبخلافه سيبدأ التقهقر تدريجيًا حتى ينتهي بانتهاء ذلك المجتمع، وللحيلولة دون بلوغ هذه النتيجة لابد من إذكاء القوة المعنوية وجعلها في حيوية مستمرة، وهذا يحصل أيضًا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بمعنى أن هذه الوظيفة المقدسة حياةٌ للفرد وللمجتمع على السواء"[٧].

٥- عمق التمثيل لقيم الوحي الإلهي: إن أي مشروع نهضوي يحاول أن ينهض بالأمة متجاوزًا القرآن الكريم هو مشروع مكتوب عليه الإخفاق سلفًا، والأستاذ فتح الله كولن عندما يستحضر القرآن باعتباره مُلهِمًا لنهضة أمتنا، فإنما يستحضره باعتباره وحيًا نابضًا بالحياة كأنما يتنزَّل باستمرار إلى أن تقوم الساعة، وهذا هو ما يقصده الأستاذ فتح الله بأن: "الكتاب المعبَّر عنه بالكلمة المقدسة: "القرآن"، هو المجلِّي للبصيرة والمعمِّق للشعور والموسِّع للفكر.. وهو المصدر الثرُّ بشكل يأخذ بالألباب، والكافي بمرونته لكل عصر بما فيه من مختلف أنواع البيان؛ من محكمه ومتشابهه ونصه وظاهره ومجمله ومفصله، وأيضًا بإيمائه وإشارته وتشبيهه وتمثيله واستعارته ومجازه وكنايته وغيرِ ذلك... لكن الاستفادة من عظيم خيره منوطة بمقدار ما تتسع له العقول المنصفة."[٨].

وهناك رؤية مركزية في مشروع فتح الله كولن الإصلاحي، هي طرد اليأس واستحضار الأمل في المستقبل، وشرط ذلك أن تتمثل الأجيال الحالية القرآن كما تمثله المسلمون الأوائل.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

التجربة الدعوية للأستاذ كولن بنائية شمولية حضارية متكاملة، قابلة للتعميم والاستفادة منها في المجتمعات العربية والإسلامية، فهي تجربة إسلامية في منطلقاتها، إنسانية وعالمية في أهدافها ومراميها.

إن دراسة تجربة الأستاذ كولن، تجعلنا نوقن أن لدينا نحن -المسلمين- قدرة هائلة على تجاوز سلبيات الماضي والنظر إلى المستقبل نظرة مغايرة، بأن نحمل القرآن، ليس ككتابِ محليٍّ لعقيدة محلية وإنما كرسالة خالدة موضوعها هداية الإنسان كل الإنسان في الأرض مطلق الأرض.

فـ: "الخدمة نهجٌ يفسِّر القرآن ميدانيًّا من خلال إحلال الدلالة محلاً إنجازيًّا، فالأستاذ يحدوهم إلى أن يكونوا قرآنيين قولاً وفعلاً، فإذا تحدثوا عن التقوى كانوا تُقاة بالقوة والفعل، وإذا تحدَّثوا عن الفَلَاح كانوا مفلحين بالقلب والقالب، وإذا تحدثوا عن الموت كانوا أمواتًا بالاحتساب والامَّحاء والرقابة ونكران الذات وهم أحياء."[٩].

٥- احتضان البشرية والحب غير المشروط: العشق وفق "الرومي" و"كولن" هو احتضان الإنسانية، وحب الناس كل الناس من زاوية أنهم "خلق الله". إن هذا الحنوَّ على البشر والنظر إليهم بعين الإشفاق وتفهم ألوان ضعفهم هو عِرفانٌ من نوع خاص، لا يصل إليه إلا أصحاب القابليات العالية والنفوس الكبيرة، وهذا التلاحم بين حبِّ الله ﷻ

منح الأستاذ كولن لمفهوم الهجرة بعدًا رائعًا عبقريًّا بكل المقاييس، فالهجرة عنده منوطةٌ بمهمة النبوة لا بشخص النبي ﷺ، فما دامت أسباب الهجرة باقية فإن الحكم باقٍ إلى يوم الدين.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

وحب خلقه يثمر الحركة نحو خدمة الخلق ابتغاء مرضاة الله ﷻ. ويمكن أن نعتبر أن الأستاذ كولن هو صدى صوت الرومي في هذا الزمان، لكن الأستاذ كولن تشرَّب العشق من بحر الرومي ثم نزل به إلى ساحة الحركة.

٦- خدمة الخلق: الجهاد على طريقة كولن: الأستاذ فتح الله كولن اختار "الطريقة" التي يمارس بها "الجهاد"، وليس هذا ابتداعًا من عنده، وإنما هو فهمٌ وإدراكٌ لحاجات العصر ومتطلَّباته وآليات العمل فيه وَفْق الظروف التي يعيشها والدور الدعوي والنهضوي الذي اختاره لنفسه.

الجهاد بمعناه الواسع الشامل يُعَدُّ ركيزةً أساسية تنطلق من خلالها تجربةُ الأستاذ كولن نحو بناء مجتمعٍ سديدٍ وأمةٍ راشدةٍ، فمن خلاله يوجِّه الطاقات إلى الإبداع الحضاري، وإقامة المشاريع التربوية، وسدِّ الثغرات في كل مجال، فهو يؤكد أن "الجهاد" واجب كل مؤمن، وأنه لا عذر لأحدٍ في تركه.

وهو يعتبر العمل الدعوي في خدمة الخلق جهادًا حقيقيًّا بل إنه ليعتبر أن التخلِّي عن ميدان العمل الدعوي في خدمة الناس، وترك الساحات الثقافية والتعليمية والتربوية من معاني "التولِّي يوم الزحف"، يقول: "إن استعمال تعبير "التولي يوم الزحف" يعني أن الكفاح إن كان مستمرًا مع عالم الكفر، فلا يجوز النكوص، حتى وإن لم يكن كفاحًا وصراعًا حارًّا، أي حتى لو كان حربًا باردة ساحتها الثقافة والتربية والتعليم والسياسة والفن... الخ من الساحات المختلفة والمهمة التي يجري الصراع فيها في أيامنا الحالية مثلاً، فإن المؤمن المنسحب والمتقوقع على نفسه -حتى ولو كان بنية زيادة كماله الروحي- سينطبق عليه هذا المعنى، ويكون آثمًا."[١٠].

المحور الثالث: الحركة الراشدة

• تجربة فتح الله كولن بين النظرية والتطبيق

حركة الخدمة، ما هي؟

من الجدير بالذكر أن "الخدمة" في الأساس إطارٌ نظري، لكنه تحوَّل بفعل ما نُفِث فيه من طاقة روحية وحركية وفكرية وثقافية إلى واقع حركي متميز؛ فـ"الخدمة" فكرة تحولت إلى مشروع انبعاث حضاري هدفه أن يحرك الأمة وينهض بها.

وقد اختصر كولن هذه القيم الإنسانية السامية المشتركة فيما يأتي:

- الحريات، وحقوق الإنسان، واحترام المعتقدات، والانفتاح على الحوار.
- تنزيه الدين عن الأغراض السياسية الحزبية الضيقة، واحترام القانون، ورفض استغلال إمكانيات الدولة استغلالاً سيئًا، وضرورة المحافظة على المسار الديمقراطي.
- الثقة بالمجتمع المدني، وتوظيف التعليم

لإحلال ثقافة السلام في المجتمعات.

• ابتغاء مرضاة الله في كل قول وفعل، ومحبة الخلق من أجل الخالق.

- الوحدة الروحية والوعي الجماعي، بحيث لا يمكن لأي جهة خارجية التلاعب بهم بهدف خرق القيم الآنفة الذكر[١١].

• من السمات العملية لحركة الخدمة

١- التشارُك والمؤسَّسِيَّة: ونعني بها ترجمة الأفكار إلى مشاريع، وتجسيدالإيمان بها في مؤسسات. ولا شك أن هذه سمة من أبرز سمات "الخدمة"، لكنها سِمَةٌ مبنية على أسس فكرية وروحية في الأساس، أصَّل لها هذا العبقريّ الفذُّ متخذًا من القرآن الكريم حاديَه وهاديَه، ومن الرسول الأعظم ﷺ قائدَه ومرشدَه.

وفي مقال "التشاركية في الأعمال الأخروية"، يذكر الأستاذ أن لهذه التشارُكيَّة البنَّاءة شروطًا لابد منها كي تُثمِر الثمرة المرجوَّة، وتُعطي النتائج المأمولة:

• التشاركيّة المبنية على سرّ الإخلاص

• التساند المبنيّ على سرّ الأخوّة

• توزيعُ المساعي المبنيُّ على سرّ الاتحاد

وهذه العناصر الثلاث هي من السمات المرئية في حركة الخدمة على الرغم من كونها أمورًا معنوية في الأساس، لكنك تشعر بها حين تخالطهم، أو تزور مؤسساتهم أو تشاركهم أعمالهم.

والأعمال المؤسسية تحتاج إلى "الشورى"، والشورى مبدأ إسلامي سواء في الأعمال المؤسسية أو في الشئون الفردية، ولذا فإن الشورى كآلية لاعتماد العمل المؤسسي في تجربة كولن تُعَدُّ وصفًا حيويًّا وقاعدةً أساسيةً لا يمكن الاستغناء عنها.

٢- الهجرة من أجل الخدمة: يأخذ مفهوم "الهجرة" شكلاً عمليًّا ذا بُعدٍ عقائدي عند "مشروع الخدمة"، بل يمكن القول إن هذه السمة العملية والتي تعني التغرُّب لخدمة الناس في بلدانٍ أخرى هي السمة الأبرز من الناحية المرئية في حركة الخدمة.

ويحتل مفهوم "الهجرة" مكانًا بارزًا في خطاب كولن لأبناء الخدمة ومحبِّيها فيتناوله من زاوية أن الهجرة من أجل الخدمة "رحلةٌ مقدَّسة"، يقول موضحًا مدى أهمية الهجرة لرجل الدعوة: "الهجرة أساسٌ مهم في كل دعوة كبيرة، ولا بد من تثبيت النقطة الآتية: لا يوجد رجل دعوة كبرى، ولا رجل فكر كبير ولا رجل تحمل عبء وظيفة عظيمة لم يهاجر، لقد ترك كلُّ رجلِ دعوةٍ البلدَ الذي وُلد فيه وذهب من أجل دعوته إلى بلدٍ آخر."[١٢].

صحيحٌ أن الهجرة إلى المدينة المنورة بمعنى الفرار بالدين انتهت لكنه يدعوهم لأن تصير كلُّ مدينةٍ يهاجرون إليها "منورةً" بتعاليم الإسلام، يقول:

حركة "الخدمة" حركة تجديدية، والأستاذ كولن من المجددين الكبار في أمتنا، وهذا لا يخفى على القارئ للأستاذ والمتابع للحركة، ويمكننا أن نرى ملامح هذا التجديد في الفكر والحركة على السواء.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

هناك رؤية مركزية في مشروع فتح الله كولن الإصلاحي، وهو طرد اليأس واستحضار الأمل في المستقبل، وشرط ذلك أن تتمثل الأجيال الحالية القرآن كما تمثله المسلمون الأوائل.

nesemat.com نسمات nesemat.com

"صحيح أنه لاتوجد الآن "مدينة منورة"، يهاجَر إليها، ولكن ستكون هناك مدنٌ تحاول تقليد مثال "المدينة"، وبتعبيرٍ آخر لكي نستطيع المثول بين يدي صاحب المدينة ﷺ علينا أن نُنشِئ مُدُنًا عدة"[١٣].

ألقِ نظرة على خريطة العالم، ضع إصبعك على أي مكان في هذه الخريطة، وتساءل: هل للخدمة هنا أثر؟ سيكون الجواب قطعًا: نعم، قد مرُّوا من هنا. إذا كان لي أن أختار سمة تميّز الخدمة عن غيرها من مشاريع الصحوة والنهوض فهي الهجرة، وإذا كان من حقي أن أقيِّم فكر الأستاذ ومشروعه الحضاري بالمقارنة بغيره من المشاريع الحضارية والأفكار التجديدية -وما أظنني أصلح لهذا-، فلن أجد أعظم أثرًا وأبقى نفعًا من إحيائه مفهوم الهجرة على هذا النحو. الهجرة عند الخدمة ليست رحلة عابرة أو سياحة ترفيهية، إنها هجرة بمعنى اللاعودة، هجرة نفسية وبدنية وروحية.

رأيتُهم في نيجيريا قد حطُّوا رحالهم من زمن، تسأل أحدهم أما تحنُّ إلى بلدك، فيقول: هذه بلدي وهؤلاء هم أهلي! أطباء ومدرسون وإداريون، رجال ونساء، وهبوا أنفسهم للخدمة، ونذروها لله ﷻ، يقيمون صروح العلم، يشيِّدون المدارس، ويبنون صروح الحوار بين مختلف الثقافات، يواجهون بِصَمْت محاولات الإفساد المستمرة في إفريقيا السوداء وغيرها من الدول الفقيرة، ليس بالخُطب الرنانة، ولا بالهجوم اللاذع، بل بالعمل الدؤوب دون كلل أو ملل.

٣- التفاني في الخدمة ونكران الذات: هذا العنوان "الخدمة" بقدر ما فيه من معاني التواضع، فإنَّه يدلُّ على الجدِّية الكاملة، فالسنبلة الممتلئة لا تشمخ بأنفها إلى السماء وإنما تنحني تواضعًا بعكس السنبلة الفارغة، والإناء الفارغ أعلى صوتًا من الإناء الممتلئ. والأستاذ فتح الله كولن يُرشد ويوجه إلى الجمع الدائم بين روح التفاني مع عدم رؤية العمل، فـ:" حديث النفس مثل: أنا فعلتُ كذا، وقمتُ بكذا، ليُقَوِّض ركنًا من القواعد التي نرفعها من أجل غايةٍ عظمى في المستقبل وقد يحملنا على الأنانية والغرور، أجل، لأن نكون أفرادًا عاديين في هذا الأمر لهو أثمنُ شيءٍ عندنا، فخيرٌ لك وأقوم أن تكون جنديًا بسيطًا بباب الله دائمًا."[١٤].

ومع هذه الدعوة إلى "الفناء" في الخدمة، فهو لا يفتأ يدعو إلى التفاني في العمل والأداء، والاستمرار في العمل للدخول من عملٍ دعويّ إلى عملٍ دعويّ آخر، فلا مجال للركون إلى الراحة، وفي درسٍ له يقول: "لا تأتوني بشخصٍ فعل هذا الأمر العظيم، وأسَّس هذا الصرح العظيم، بل ائتوني بهذا البطل الذي رغم أنه أسَّس "مائة" مدرسة، لكنه لا يتذكَّر

ما فعل، ومتى فعل. ائتوني بذلك الأسد الذي رغم أنه أخذ بيد الكثيرين ممن ضلُّوا طريقهم، فساقهم إلى طريق الإنسانية الحقَّة، وارتقى بهم إلى القيم الإنسانية الكبرى، لكنك إن سألته عن هذا قال: لا أعرف، لا أتذكَّر! ائتوني بمن إذا فتح "إسطنبول" قال: لا أدري كيف حدث هذا؟ ليس لي من الأمر شيء، لا تأتوني بالمُعجَب بعمله الذي إذا عمل عملاً وَزْنُه مثقال ذرة، يصوِّره كالجبل."[١٥].

تلك سمةٌ لستَ في حاجة إلى بذل المزيد من الجهد لتشعر بها، بل تراها رأي العين وأنت تتعامل مع أبناء الخدمة، لذا، فإن أحد أهم السمات العملية لحركة الخدمة، والتي تعتبر أهم أسباب نجاح مؤسسات هذه الحركة هو الالتزام الناشئ عن التفاني في العمل ونكران الذات. "إن سببًا رئيسيًّا لنجاح مؤسسات الخدمة هو التزام وتفاني الأفراد الذين يديرونها، سواء كانوا أطباء أو إداريين للمستشفيات أو مديري مدارس أو معلمين أو موظفي وكالة الإغاثة. فقد علَّقوا جميعًا بأنهم لا يعملون من أجل المال فحسب، بل لأنهم يؤمنون بما يفعلون، ونتيجة لذلك تمتدُّ ساعات العمل، مع ندرة الشكوى والتذمر من الوظيفة في كل المؤسسات، بل يشعر الأفراد بأنهم جزءٌ من أنشطة تستحق الجهد، وممتنُّون لأنهم يخدمون إخوانهم"[١٦].

٤- عدم التحزُّب السياسي: في قراءتي لفكر الأستاذ كولن، لم ألاحظ أن هناك عداءً ما بينه وبين السياسة كمنهج، أو بين السياسيين كأفراد أو حكَّام؛

nesemat.com نسيمات nesemat.com

الخدمة تقدم صورة نموذجٍ إنسان راقٍ في تمثله للقيم الإنسانية والإيمانية على حدٍّ سواء، يدور في فلك الإسلام ولا يتصادم مع عالمه المحيط، يجيد قراءة عصره ويتوافق مع القواعد التشريعية والأوامر التكوينية.

فهو لم يلعن السياسة كالإمام محمد عبده، ولم يستعذ بالله منها كالإمام النورسي، ولكنه تعامل معها من منطق أن: "السياسة هي فن الإدارة التي تجلب رضا الله ﷻ ورضا الناس، وبنسبة قيام الحكومات -بما تملك من قوة وقدرة- بالمحافظة على شعبها من الشرور والمفاسد، وصيانته من الظلم تكون نسبة نجاحها وتوفيقها."[١٧].

والأستاذ كولن باعتباره صاحب مشروع حضاري لنهضة المجتمع والأمة، لا يرى لزامًا عليه أن يدعو لتكوين "دولة إسلامية" تتبنى هذا المشروع النهضوي، فالرجل معنيّ بالمجتمع لا بالدولة، وبالأمة لا بالسياسة، وهو يحدِّد رسالته بأنها: تجديدٌ مستمَدٌّ من جذورنا التاريخية، وتربيةٌ لأبطالٍ جدُدٍ يستلهمون جذور المعاني ويرتبطون بها، وليست هناك حاجة إلى حكم إسلاميّ أو حزبٍ لتحقيق ذلك.

صحيحٌ أن حركة "الخدمة" ليست لها أهداف سياسية، كما أنه مما لا شك فيه أن هدفهم السامي هو إحياء الأمة ونهضتها، إلا أن هذه الأهداف لابد وأن تتلامس مع السياسة من قريبٍ أو بعيد، سواء

في ذلك سياسة الدول المحلية، أو السياسة العالمية.

إنَّ خُطَب الأستاذ كولن وكتاباته حربٌ فكرية ضد أي ألاعيب سياسية للاستيلاء على المال العام وتزييف الوعي العام واستعباد الجماهير تحت أي لافته. يقول كولن: "الخدمة ليس لديها هدف سياسي بمعنى تأسيس حزب، بيد أن القيم والمبادئ التي تعمل الخدمة من أجلها والتي تشكل الديناميكية الأساسية لـ"الخدمة"، لا بد أنها تتلامس مع السياسة"[١٨].

الختام

لقد حاولتُ في السطور الماضية أن أُجمِل ما فصَّلتُه في الدراسة التي تحمل عنوان هذا المقال، محاولاً الإيجاز قدر الاستطاعة، وأود أن أختم الحديث بأهم ما خرجتُ به من خلال هذه الدراسة، ويتمثل ذلك فيما يأتي:

١- الأستاذ فتح الله كولن داعيةٌ ذو تجربةٍ فريدة، وصاحب مدرسة فكرية حضارية جديرة بالبحث والتأمُّل وإمعان النظر في معطياتها وكيفية الاستفادة منها، فشخصيته متعدِّدة المعارف والمواهب، اجتمعت فيه صفات الداعية المربي القدوة، والمفكر الذى يعي مشكلات عصره وقضاياه، فضلاً عما يمتاز به من عاطفة جياشة، وزهد وتعفُّف عما في أيدى الناس، بالإضافة إلى مقدرته الخطابية، وروحه الشاعرة، وأسلوبه الأدبي الراقي، وشخصيته الفذَّة التي تجمع ولا تفرِّق، وتبنى ولا تهدم، هذا إلى جانب فكره المتدفِّق، وقلمه السيَّال، وحركته الدؤوبة، فهو بهذا يُعَدُّ شخصية دعوية جديرة بالبحث والدراسة، ليستفيد منها عموم الدعاة إلى الله، سواء في تكوينهم الفكري والروحي، أم في حركتهم بين الناس.

٢- تعتبر التجربة الدعوية للأستاذ كولن تجربة بنائية شمولية حضارية متكاملة، قابلة للتعميم والاستفادة منها في المجتمعات العربية والإسلامية، فهي تجربة إسلامية في منطلقاتها، إنسانية وعالمية في أهدافها ومراميها، فهي تتبنى فقه الائتلاف حول المقاصد العليا للإسلام، دون الدخول في خلافاتٍ فقهية أو اختلافات فكرية، ومن ثَمَّ استطاعت عرض الإسلام على شعوب الغرب في صورته الحضارية بعيدًا عن الصورة التقليدية التي يُروَّج لها عن الإسلام من خلال بعض وسائل الإعلام العالمية، التي دائما ما تربط بين الإسلام والإرهاب، وتجمع بينهما في بوتقة واحدة.

٣- تجربة الأستاذ فتح الله كولن تجربة دعوية خالصة سواء في المنطلقات والغايات، أو في الوسائل والأساليب، فهي ليست تنظيمًا مغلقًا، أو حزبًا سياسيًّا، ولا حتى حركة ذات إطار محدد، أو شروط عضوية مثلاً، وإنما هي طريقُ عمومي ليس ملكًا لأحد أو حكرًا على فئة أو طائفة، وطريقةٌ في العمل الدعوى أبوابها مُشرَعة للناظرين مفتوحةُ للدارسين، فكانت من هنا تجربة جديرة بالدراسة والعرض، لتكون بين يدى الدعاة نموذجًا عمليًّا يأخذ كلٌّ منه ما يناسبه ويطرح ما لا حاجة له إليه، ذلك أنها -بحق- استطاعت الجمع بين الفكر

والحركة، والنظرية والتطبيق، والعقل والعاطفة، والتربية والسلوك، في توازنٍ فكرى وحركية مبدعة، دون تقييد لحرية العاملين أو حجرٍ على إبداعهم. وأمتنا -اليوم- في أمسِّ الحاجة إلى الجمع بين الفكر والحركة، وتحويل النظريات إلى نماذج حيِّة واقعية، والسير على دربٍ يزاوج بين العقل والعاطفة، والتربية والسلوك.

من خلال الدراسة النظرية والمعايشة الميدانية وإن كانت محدودة فإنني أستطيع القول -كباحث- أن حركة "الخدمة" حركة تجديدية، وأن الأستاذ كولن من المجددين الكبار في أمتنا، وهذا لا يخفى -في الحقيقة- على القارئ للأستاذ والمتابع للحركة، ويمكننا أن نرى ملامح هذا التجديد في الفكر والحركة على السواء، فمن ملامح هذا التجديد:

أ- أن الرسالة التي تقدمها الحركة تلبِّى الاحتياج الذى تنشده الأمة بل الإنسانية في مجموعها، ومن معانى التجديد أن يتوافق الفكر وتتلاءم الحركة مع حاجة الأمة أو "واجب الوقت"، والأمة اليوم أشد ما تكون احتياجًا إلى "إنسانٍ جديد" و"جيل ذهبي" و"رجال فكر وحركة" و"وارثين حقيقين للأرض"، وهذا عينه ما تقدمه لنا الحركة في نموذجها العملي وما يطرحه الأستاذ كولن في نموذجه الفكري. فتجربة الأستاذ ليست معنيَّة بشيء من الأساس غير هذا، هذه رسالتها الأولى، فهي تقدم صورة نموذجٍ إنسان راقٍ في تمثله للقيم الإنسانية والإيمانية على حدٍّ سواء، نموذجٍ رغم أنه يدور في فلك الإسلام فهو لا يتصادم مع عالمه المحيط، نموذجٍ يجيد قراءة عصره ويتوافق مع القواعد التشريعية والأوامر التكوينية. وتقدم التجربة في الوقت ذاته نموذجًا للحركة التي أُسِّستْ على الإرشاد والتبليغ، هدفها مرضاة الله ﷻ ووسيلتها في ذلك خدمة الإنسانية، ونموذجها الأعلى عصر الصحابة الكرام ﷺ.

ب- بعث الحياة من جديد في مفاهيمَ أصابها الجمودُ والتقليدُ ووقفت عند فهم واحدٍ لا تفارقه، فجاء الأستاذ ونفض عنها الغبار، وأحياها من جديد في ثوب قشيب، فجمع بذلك بين فضيلتين: أنه لم يأتِ الناس بشيء لم يعرفوه من قبل بل هو عندهم محبوب ومرغوب، وفي الوقت ذاته أضاف لهذا المفهوم معنى جديدًا نحن في أمس الحاجة إليه، وإنْ شئت قل: أعاد إليه رونقه الأول وبهاءه القديم، وهذا -في الأصل- هو معنى التجديد.

فمن ذلك مفهوم "الهجرة"؛ لقد منح الأستاذ لمفهوم الهجرة بعدًا رائعًا عبقريًّا بكل المقاييس، فالهجرة عنده منوطةٌ بمهمة النبوة لا بشخص النبيﷺ، فما دامت أسباب الهجرة باقية فإن الحكم باقٍ إلى يوم الدين، فحرَّر مفهوم الهجرة من إطاره التاريخي ومنحه بعدًا عقائديًّا عمليًّا يرتبط بالواقع أيَّما ارتباط، ولست في حاجة أن أذكر لك كيف كان لإحياء هذا المفهوم أثره الكبير في انتشار الخدمة وقوة تأثيرها.

ومن ذلك أيضًا مفهوم "الوقف"؛ فقد أحيا الأستاذ مفهوم الوقف الإسلامي ابتداءً، وذلك بعد

اندثاره تقريبًا، ولعله استفاد من الواقع التركي في هذا المجال استفادة كبيرة. والوقف في الإسلام يعظِّم دور "الأمة" في مواجهة "الدولة" التي أصبحت تتحكم في دورة المال فتتحكم بالتالي في حرية الإنسان ومن ثَمَّ في إنسانيته، ثم إنه مَنَحَ مفهوم "الوقف" بُعدًا عالميًّا وإنسانيًّا -من ناحية الغاية- ومَنَحَه بعدًا ديناميكيًّا واقعيًّا -من الناحية العملية- ولك أن تتخيل كيف نمت هذه الفكرة لتصبح مؤسسات ومشاريع عملاقة وهيئات إغاثية ومنابر فكرية وكيانات اقتصادية.

كذلك هو الأمر في مفاهيم مثل "الإنفاق والبذل" الذي تحول من كونه أداة لتفريغ الطاقة الإيمانية لدى المحسِن أو المتبرِّع بإعطاء ماله للفقير والمحتاج إبراءً للذمة إلى وسيلة لإعلاء صرح الإيمان وإنشاء أجيال ترفع رايته، وتضمن استمرارية العمل الخيري الذي يمنع الفقر من منبعه. وكذلك مفهوم الحوار الذي أضاف له الأستاذ بعدًا عالميًّا وكونيًا ينطلق من جوهر رسالة الإسلام الذي هو "رحمةٌ للعالمين".

هذا بعض ما وصلتُ إليه مما اطَّلعتُ عليه، وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين، وأحمد الله ﷻ أن وفقني إلى التعرف على هذه التجربة والاقتراب من نموذجها العملي، سائلا المولى ﷻ أن يرزقني على هذا العلم عملاً يؤازره وأن يجعلني أهلاً للخدمة وأن يسير بي في طريق السالكين. ■

الهوامش

(١) سعيد النورسي، مقدمة ذيل الحبة " المثنوي النوري العربي"، ص٢٤١، دار سوزلر للنشر، ط٦، ٢٠١١م.

(٢) م. حاقان يافوز، "نحو تنوير إسلامي، حركة فتح الله كولن" ص ٤٢، منتدى العلاقات الدولية والعربية، ط١، ٢٠١٥م.

(٣) فتح الله كولن، "ونحن نبني حضارتنا"، ص ٥١، دار النيل للنشر، ط٢، ٢٠١١م.

(٤) فتح الله كولن، "ونحن نقيم صرح الروح" ص ٥٨، دار النيل للنشر، ط٤، ٢٠٠٨م.

(٥) من تعبيرات جلال الدين الرومي يعبر بها عن فرحة الوصال بالموت ولقاء الله ﷻ، مستفاد من قراءتي لسيرته الذاتية.

(٦) فتح الله كولن، مقال "سمات المؤمن الحق" حراء العدد ٤٤، المقال الافتتاحي.

(٧) فتح الله كولن، "طرق الإرشاد في الفكر والحياة" ص ٥٦، دار النيل للنشر، ط٤، ٢٠٠٨م.

(٨) فتح الله كولن، "ونحن نبني حضارتنا"، ص ٨٣، دار النيل للنشر، ط٢، ٢٠١١م.

(٩) سليمان عشراتي "العبادة التنفيذية وقرآنية الخدمة" حراء، العدد ٤٢، ص ٩٨.

(١٠) فتح الله كولن، "أضواء قرآنية في سماء الوجدان"، ص ١١٦، دار النيل للنشر، ط٥، ٢٠١٠م.

(١١) فتح الله كولن، "كلمات شاهدة" حوار مع جريدة الشرق الأوسط ٣/٢٤/ ٢٠١٤م، ص ٢٩، دار النيل للنشر، ٢٠١٥م.

(١٢) فتح الله كولن، "أسئلة العصر المحيِّرة" ص ٢٨٨، دار النيل للنشر ط٤.

(١٣) فتح الله كولن، "الاستقامة في العمل والدعوة" ص ٢٧١، دار النيل للنشر، ط١.

(١٤) فتح الله كولن، الموشور، ص٣٢، دار النيل للنشر، ٢٠١٥م.

(١٥) موقع مجلة حراء www.hiramagazine.com.

(١٦) هيلين روز ايبو، "تحليل سوسيولوجى لحركة مدنية متجذرة في الإسلام المعتدل"، ص١٧٧، تنوير للنشر، ط١، ٢٠١٥م.

(١٧) فتح الله كولن، "الموازين أو أضواء على الطريق" ص ١٢٦، دار النيل للنشر، ط٣، ٢٠٠٦م.

(١٨) فتح الله كولن، "كلمات شاهدة" حوار مع جريدة الشرق الأوسط ٣/٢٤/ ٢٠١٤م، ص ٢٩، دار النيل للنشر، ٢٠١٥م.

صرخة العندليب
فلسفة الحب من الرومي إلى كولن

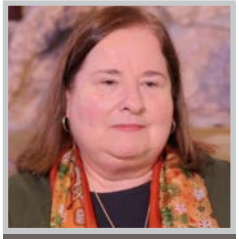

كاثرين ب. يوستيس

باحثة وكاتبة وناشطة أمريكية في حوار الأديان وقضايا المجتمع المدني. تخرجت في قسم الصحافة من جامعة لويلا بشيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكية. عملت لعدة سنوات في تايمز بيكايون في نيو أورلينز. وكانت رئيسة رابطة العلاقات الخارجية في نيو أورلينز. وهي عضو مؤسس في مؤسسة أطلس وهي منظمة غير ربحية تهتم بحوار الأديان. التقت بالأستاذ كولن شخصيًا في أمريكا، وحضرت بعض دروسه مع سيدات أخريات، وطالعت كتاباته المترجمة إلى الإنجليزية، ولها أكثر من مقال ودراسة عن الخدمة والأستاذ كولن.

تتساءل الكاتبة في هذا المقال: هل يمكن لأصوات قوية من عبق الماضي تعج بالحياة والحقيقة أن يتردد صداها عبر العصور دون أن يعترض طريقها عائق زماني أو مكاني؟ وهل يُعدُّ الرومي وكولن مثالاً للصوت وصداه؟ من خلال هذا المنطلق تعرض الكاتبة ما يمكن أن يكون وجوهًا للتشابه بين الشاعر الصوفي في القرن الثالث عشر جلال الدين الرومي، والعالم التركي وصوت السلام في القرن العشرين فتح الله كولن.

فكلٌّ منهما برز كزعيم روحاني، يتوافد الناس عليه من جميع الأنحاء للاستماع إليه والتحاور معه والتماس مشورته، ورسالة كليهما تقوم على الحب والتسامح، والانطلاق كالفرجار؛ قدم ثابتة على قيم ومبادئ الإسلام، والأخرى منفتحة بحب وتقدير على عقائد الآخرين. ويخلص المقال إلى أن كولن هو -بحق- المترجم المثالي في العصر الحديث لأفكار الرومي، وهو صدى الصوت الذي يحمل رسالة السلام التي توقظ الإنسانية النائمة على رسالة الرومي في المحبة والرحمة من خلال التفاهم والحوار.

تكون هناك أحيانًا أصوات من عبق الماضي البعيد تتسم بالقوة الشديدة وتعج بالحياة والحقيقة لدرجة أن صداها يتردد على مر العصور، كما لو أنه لا يمكن لأي وقت أو مسافة أن تحول دون وصولها؛ فهي تتنقل من قرن إلى قرن في انتظار العثور على شخصية العصر الحديث التي يمكن أن تدرك كلاً من الرسالة والرسول.

سوف أركز في هذه المقالة على أوجه الشبه بين الشاعر الصوفي في القرن الثالث عشر "جلال الدين الرومي"، والعالم التركي وصوت السلام في القرن العشرين "فتح الله كولن"؛ وسأحاول أن أشرح كيف أن كولن هو الرسول المثالي لأفكار الرومي. هذا وستنصب نقاط المقارنة حول خلفيتهم وتعليمهم المبكر، وتصوفهم، ورسالتهم في التسامح والمحبة؛ ومن الأسئلة التي آمل أن أتناولها: هل وجدتْ كلمات الرومي صوتًا وصدى لدى فتح الله كولن؟ وكيف ينبِّهنا كولن إلى حقائق رسالة الرومي في الحب لله ﷻ والعمل في سبيله وحب وخدمة بعضنا البعض؟ هل كولن هو روميُّ العصر الحديث؟

منذ قرابة ٧٠٠ عام في الأناضول (قونيا الآن)، قال المعلم والشاعر الروحاني مولانا جلال الدين الرومي هذا النواح: "أريد صدرًا مزَّقه ألم الفراق عن الله إربًا إربًا، كي أبوح له باشتياقي وحنيني"[١].

لقد قضى الرومي حياته بأكملها في البحث عن أولئك الذين يشاطرونه نفس الشوق، الذين كانت محبتهم لله متقدة لا تخمد مثل محبته، الذين هم مرآة لروحه.

تتحدث الأبيات الافتتاحية لعمل الرومي الأكثر شهرة وهو المثنوي في "أغنية أنين الناي" عن ذلك بشكل أفضل:

أَنْصِتْ إلى النَّاي يأْخُذُ في الشِّكَايةِ،
ومِن ألم الفِراق يمْضي في الحِكايةِ،
منْذُ أنْ كان مِنَ الغاب اقْتِلاعي
ضَجَّ الرجالُ والنساءُ من صوتِ التياعي،
أبتغي صُدورًا يُمَزِّقُها الفِراق،
لأنَّها وحدها تَفْهم أَلَمَ الاشتياق،
فكلُّ من قُطِع بعيدًا عن أصوله،
لا يزال يَروم زَمان وصاله،
وعلى كل شهود سعداء أو أشقياء،
صِرتُ أهتِف بنفس النُّواح،
يظنّ كلُّ امرئ وفْقًا لفهمه،
لكن لم يبحثْ أحدٌ في داخلي عن أسراري،
وليس سري ببعيد عن نُواحي،
لكنَّ العين أو الأذن دون النُّور لا تدركه..."[٢].

وفي أحد المقابلات الصحفية قال فتح الله كولن، الزعيم الروحي والشاعر التركي: "إنني أبحث عن شخصٍ يحمل همومًا بداخله؛ شخصٍ يمكن أن أتحدث معه عن العالم الإسلامي، والوضع في تركيا، ويشاطرني همومي. فأنا أبحث عن قلب مهموم"[٣].

وأضاف قائلًا: "إن لديه عديدًا من الأصدقاء

المقربين لكنه لا يستطيع أن يشاطرهم كل شيء، فالصديق في الفكر يحتاج إلى أن يكون مثلك؛ ويحتاج إلى أن يحترق من الداخل مثل الموقد، وأن يكون لديه علاقة قوية مع الله ﷻ، ولكن يبقى متواضعًا. ويبدو أن كولن يردد صرخة الرومي الحزينة من الفراق عن المصدر، ومن كونه غريبًا على أرض غريبة في قصيدته"صرخة العندليب":

في اللَّحْظَة التي تَتَراقَص فِيها الزُّهُور،
ينْشُدُ فيها العَنْدَلِيبُ في الرَّوْضَات مُنْعَزِلاً،
كلُّ لَحْنٍ من أَلْحَانه كأنَّه صَفِير الرِّياح،
لِأَولئِك الذين يعيشون غُرَباء في وَطَنِهِم،
فهو يصْرُخ مثْلَ عَويلي ونُواحي الذي لا ينقطع،
كلُّ صرْخة لها صَداها العَالي والمنخفض في المُنْحَدَرات.
فهو يَنُوح طُوَالَ الليل حتى تُشرِق الشمس،
كلُّ نَفَسٍ يخْرُجُ مثلَ التَنْهيدة المُحْترِقة.
على أشجارٍ عذراءَ لم تمسَّها يدُ إنسان،
يتأوَّه دون توقف أو كَلل مَدَى الحياة،
يذْرُف الدموع المليئةَ بالأَسَى؛ ولكنْ مَنْ هُنَاك؟
ليقدِّر عبراتِه ويتعاطفَ مع آلَامه؟"[٤].

ويبدو أن هناك وَتَرًا (فردًا) متعاطفًا في نُواحهم، والأكثر من ذلك أن أسماءهم تُذكر في كثيرٍ من الأحيان معًا في نفس الوقت، فإذا التقى جلال الدين الرومي مع فتح الله كولن وجهًا لوجه في شوارع قونيا القديمة منذ ٧٠٠ سنة مضت، أو اليوم في الشوارع المزدحمة في فيلادلفيا، فهل سيعرف بعضهما البعض كأرواح قريبة طيبة يمكنها أن تسمع وتدرك اشتياقها العميق لبعضها البعض؟

nesemat.com نسيمات nesemat.com

لا شك أن ميراث الرومي وكولن سيعيش في أصوات وأفعال أتباع هوجا أفندي، "العبد المتواضع وصديق الجميع"؛ ويبدو أن صرخة عندليب كولن تُسمع ويُلبَّى نداؤها.

وعلى الرغم من أن كلاً من الرومي وكولن كتَّابٌ وشعراء مثمرون، فإن هذا لن يكون محور الحديث في هذا العرض. ويكفي القول إن كلا الشاعرين مسلمان تُعبِّر كلماتهما عن اشتياقهما العميق للوصال مجددًا مع الحبيب السرمدي؛ وعن امتنانهم العميق للجمال الذي يحيط بهم كانعكاس لخالقهم وفقرهم المتذلل، وعن إحساسهم بالعدَم أمام ربهم.

إن تعاليم القرآن، والأحاديث النبوية، والسنة تقدم الأساس لحياتهم وأعمالهم، يقول كولن: "إن القصائد مثل التوسلات، تعبر عن مِزاج الصعود والهبوط والحماسة والحزن في العالم الداخلي، إلى الحد الذي يركز فيه الأفراد على الحقائق السامية، ويصبحوا مثل الأنفاس الإلهية". ويتضح من كتاباتهما أن كلاً من الرومي وكولن ينزعان نزعة روحية ويتحدثان باللغة العالمية للروح تجسيدًا لهذه "الأنفاس الإلهية"[٥].

الخلفية والتعليم المبكر

ولد الرومي، الذي كان ينحدر من سلسلة طويلة

nesemat.com نسيمات nesemat.com

الحب عند الرومي هو روح الكون، وأساس وجوده، وهو ما كان خالصًا مطلقًا لله ﷻ. وهو ما ينبغي أن يُترجم إلى الحب والشوق الإلهي. ورسالته تتمثل في فناء الأنا والاستسلام التام لله ﷻ.

من السلاطين وعلماء الدين، في عام ١٢٠٧م في بلْخ (أفغانستان الحالية)، خلال أوقاتٍ كانت تعج بالاضطراب والفوضى الشديدة؛ وكانت الإمبراطورية السلجوقية تعاني داخليًا من الفساد السياسي والديني، وخارجيًا من الهجمات الصليبية من الغرب، والهجمات المغولية من الشرق، ترك الرومي موطنه وهو صبيٌّ صغير مع عائلته، وبدأ في السفر إلى جميع أنحاء الأراضي الإسلامية، واستقر أخيرًا في الأناضول (قونيا حاليًا).

قام والد الرومي بتعليمه أهمية العمل على اكتساب الأخلاق السامية من خلال النقاء الذاتي بقراءة القرآن والصيام، والابتعاد بالنفس عن أي شيء يمنع معرفة الله ﷻ؛ وتعلم عن الحب والرحمة اقتداءً بالنبي الكريم محمد ﷺ الذي تعامل مع كافة الناس باللطف والاحترام، بغض النظر عن العرق أو الدين أو المكانة الاجتماعية، وتعلَّم من والده أيضًا أن هناك نوعين من المعرفة: المعرفة التقليدية التي يتم تعلُّمُها، والمعرفة الحقيقية التي لا يمكن الحصول عليها إلا بنعمة من الله ﷻ. لقد غرس في الرومي شعور الحب الإلهي، والتقوى، والعفة، والتواضع، والكرم، والعمل في سبيل الله، وتذكر الله، وهي أساسيات طريق التصوف.

وطوال حياته، نادرًا ما كان الرومي بدون معلم أو مرشد، وبرز كزعيم روحي وأستاذ جامعة يتمتع بدرجة عالية من الاحترام؛ وتوافد الناس من جميع الأنحاء للاستماع إلى حديثه، والانخراط في الحوار معه، والتماس مشورته. وعلى الرغم من شهرته العريضة، فقد كان غير راض وقال: "ألم تسمع اسمي في العالم؟ ولكنني حقًّا لا شيء، لا شيء، لا شيء"[٦].

ولد فتح الله كولن بعد ٧٠٠ سنة في عام ١٩٣٨م في أرضروم شرق تركيا خلال فترة تغيير جذري لبلده؛ وشهدت العقودُ التي سبقت مولدَه انهيارَ الإمبراطورية العثمانية، وسقوط كل من السلطنة والخلافة، وتأسيس الجمهورية التركية على يد كمال أتاتورك، وإغلاق الطرق الصوفية وأماكن التعبد الخاصة بها، والاستعاضة عن الشريعة الإسلامية (القانون الإسلامي) بالقانون المدني، واستبدال الأبجدية اللاتينية بالكتابة العربية، -وهي مجموعة من التغيرات الضخمة-؛ وكان هذا القرن يعج بالعنف حيث عانى من حربين عالميتين، والقنبلة الذرية، وتصاعد الإرهاب[٧].

ومثل الرومي، يمكن أيضًا اقتفاء أثر شجرة عائلة كولن إلى نسب نبيل وسلسلة طويلة من علماء الدين، لكنه عاش بتواضع ولا يزال يفعل ذلك؛ وكان أول معلمي كولن أيضًا هم أفراد أسرته. وهو يتحدث بتبجيل كبير عن جدِّه الأكبر المُلا أحمد، والصفات الصوفية التي تعلمها منه مثل الزهد،

والجمع بين المعرفة والتقوى، والأكل والنوم قليلاً، وخدمة الآخرين. وتعلم من والدته، التي يَذكر أنها حفظت القرآن وعلمته لأهل القرية. وعلمه والده كذلك اللغة العربية، ولقنه الحب العميق للنبي الكريم محمد ﷺ.

وقد درس بعد ذلك على يد علماء مسلمين بارزين، وتلقى تدريبًا خاصًا في العلوم الدينية من محمد لطفي أفندي الزعيم المسلم والروحي الشهير.

ويقول كولن: "أثناء دراسة العلوم الدينية، قرأت كتبًا أخرى ودرست الممارسات الصوفية؛ وبالنسبة لي، فإن آثار العلوم الدينية والصوفية تُنتج دائمًا نفس الإيقاعات"[٨]. وتعرَّف كولن فيما بعد على بعض طلاب بديع الزمان سعيد النورسي وتعاليمه في كتابه رسائل النور؛ ومن خلال ذلك بدأ كولن يدرك أهمية الجمع بين العلوم الطبيعية مع التعليم الروحي. وفي رأيه أن إحداها دون الأخرى مثل الطائر الذي يحاول الطيران بجناح واحد فقط، ووصل كولن إلى أن أصبح معلمًا للعقول والقلوب.

ونتيجة لتميز تعليمه، بدأ كولن التدريس في سن ١٥ عامًا، وبوصفه معلمًا صغيرًا، كان تعليمه يحظى باحترام كبير لدرجة أن طلابه أصبحوا قوة نشطة لتربية جيل يرغب في خدمة أفكاره لأهمية الجمع بين التنوير الفكري مع الروحانية البحتة، والحكمة مع النشاط المستمر. وعلى هذا النحو، فقد قاموا هم وطلابهم الآن بفتح آلاف المدارس داخل تركيا

لقد قضى الرومي حياته بأكملها في البحث عن أولئك الذين يشاطرونه نفس الشوق، الذين كانت محبتهم لله متقدة لا تخمد مثل محبته، الذين هم مرآة لروحه.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

وخارجها. ومثل الرومي فقد برز كولن كزعيم روحي موثوق بدرجة كبيرة ويحظى باحترام كبير، ومفكر، وصوت للعدالة الاجتماعية. ومثل الرومي أيضًا، فقد توافد الناس من جميع الأنحاء للاستماع إليه، والانخراط في الحوار معه، والتماس مشورته.

وقد تعلم كلٌّ من الرومي وكولن العلوم الطبيعية والتقاليد الإسلامية الراسخة بعمق في القيم الصوفية.

طرقهم الصوفية

لقد كُتبت مجلدات عن كل من الرومي وكولن بوصفهما صوفِيَيْن؛ ومع ذلك فمن الجدير بالذكر هنا أن ذلك حدث؛ لأن كل ما فعلوه في حياتهم كان يرتبط بفهمهم للصوفية. وفي البداية، لم ينضم أحد منهما إلى المذهب الصوفي، على الرغم مما يقال من أن الرومي قد بدأ طُرق المولوية لرقصة الدراويش. ويقول كولن إن: "الرومي لم يكن تلميذًا، أو درويشًا، أو ممثلًا ... بين الصوفيين التقليديين؛ وطوَّر طريقة جديدة لها طابع الإحياء والتفكير الفردي الشخصي من خلال اتخاذ القرآن والسنة، والتقوى الإسلامية نقاطًا مرجعية له"[٩].

لقد كانت طريقتهما صوفية تأسست بحقائق

في أحد المقابلات الصحفية قال فتح الله كولن: "إنني أبحث عن شخصٍ يحمل همومًا بداخله، شخصٍ يمكن أن أتحدث معه عن العالم الإسلامي، والوضع في تركيا، ويشاطرني همومي. فأنا أبحث عن قلب مهموم".

nesemat.com نسيمات nesemat.com

القرآن الكريم، ولكن مع انفتاح وتقدير لروحانية الديانات الأخرى التي تركز أيضًا على الحب المطلق لله ﷻ؛ وكان لكل منهما معلموه للطريقة الصوفية، وهي إضافة محددة في حياتهما لأنهما منذ البداية تدرَّبا لخدمة الآخرين، ونسيان أنفسهما إلا في تنقية قلوبهما. وقد غُرس في كل منهما شعور بالرهبة والجلالة لخالقنا ﷻ، وأهمية عيش حياتهما فقط لإرضاء الله ﷻ وفي نهاية المطاف استئناف التواصل معه.

يقول مولانا عبد القادر الجيلاني في كتابه "سر الأسرار": "إن الصوفيين يعيشون بتواضع مع أكل وشرب قليل"؛ وقد اتبع كل من الرومي وكولن هذه الممارسة، ليس كغاية في حد ذاتها بل كوسيلة للاقتراب من الله ﷻ؛ وبالنسبة للكثيرين فهم يضربون أفضل الأمثلة على الصوفية المثالية، ولكن لا يرغب أحد منهما في أن يكون مُوقرًا كقديس أو مُبجلًا كشخص لديه روحانية غير عادية؛ ويشتركان في مثل هذه الصفات الصوفية مثل التواضع، والتقوى، وإحساسهما بالعدم. وقد كتب الرومي:

"لقد أصبحت عبدًا، عبدًا، عبدًا؛

لقد انحنيت وضاعفت نفسي لخدمتك.

يفرح العباد والعبيد عندما يتحررون،

بينما أفرح أنا عندما أصبح عبدًا لك"[١٠].

هذا ولم يصف كولن نفسه أبدًا بأنه صوفي قائلًا: "إن المرء لا يكون صوفيًا بالاسم، وإنما بالروح والقلب؛ وقد سعى ليكون ليس أكثر من عبد متواضع لله ﷻ وخليل للجميع"[١١]. وبالنسبة لكولن، فإن معرفة "عجز، وفقر، وانعدام" المرء هي طريقة الفناء في الله. "فالمرح، والألعاب، والمتعة ليست في طبيعتي؛ حتى عندما كنت صغيرًا، كنت أفعل شيئًا مثل الرياضة (تحقيق الذات الباطنية)... لا أريد أن أفعل شيئًا إذا لم يكن مفيدًا ... وهذا هو السبب في جلوسي بالداخل وقراءة القرآن أو ترديد دعائي ووردي اليومي"[١٢]. وبالنسبة لكولن، فإن التصوف عملية تنمية روحية مدى الحياة. فهو"... إفناء الأنا، والإرادة، والتمركز الذاتي من قبل الله والإحياء الروحي اللاحق مع تنوير جوهره"[١٣].

وقال نجل الرومي، سلطان ولد، إن الرومي اعتاد أن يدعو بأن يلتقي بأحد الربانيين الخفيين لله ﷻ، ومن ثم يتحول على يديه؛ وقد استُجيبت دعوة الرومي عندما التقى مع الدرويش المتجول شمس التبريزي الذي أصبح المرآة المثالية لروحه وحوَّله من عالِمٍ مُتعلم إلى صوفي النشوة. وقال كولن عن العلاقة بين الرومي وشمس ما يلي: "التقت اثنتان من الأرواح الماهرة صاحبة الفطنة معًا، مثل اثنين من المحيطات يندمجان في بعضها البعض. ومن خلال تقاسم النعم الإلهية والهدايا الربانية، فقد وصل كل منهما إلى القمم التي لا يتمكن معظم

الناس من تحقيقها من تلقاء أنفسهم. ومن خلال تعاونهم الروحي، أقاموا معسكرات على قمم المعرفة والحب والرحمة والسعادة لله؛ وبقدر ما أناروا عقول أولئك الذين في نفس أعمارهم، فإنهم أثَّروا في القرون التالية..."[١٤].

وبدون فهم بعض التقاليد الصوفية الإسلامية للحب، وأبرزها المحبة بين المعلم والتلميذ، سيكون من الصعب وصف الحب بين الرومي وشمس دون جعله يبدو تافهًا ودنيويًا؛ وقد استشهد كبير هلمينسكي بكلمات مُراد ياجان الذي قارن لقاء الرومي مع شمس بلقاء إبراهيم مع ملكيزيديك قائلًا: "ملكيزيديك وشمس هم رُسل من المرْسِل. ولم يقوما بشيء بنفسيهما، ولكنهم حملوا التنوير إلى شخص يمكنه تلقيه، شخصٍ إما أن يكون كاملاً للغاية أو فارغًا للغاية؛ وكان مولانا كاملاً للغاية. وبعد ملاقاته، يمكنه أن يطبق هذه الرسالة لصالح البشرية"[١٥]. ويُثبت ذلك تنبؤ معلمه السيد برهان الدين، بأن الرومي في يوم ما "سوف يغمر النفوس بحياة جديدة، وفيض لا يُقدر ولا يُحصى من الله ... وسوف يبعث الحياة في موتى هذا العالم الكاذب بالمغزى الصادق والحب"[١٦].

لقد استطاع شمس أن يوقظ حب الرومي للحبيب الحقيقي، وألهمه بذلك لمدة ١٠ سنوات بعد اختفاء شمس. وقد كتب الرومي مجموعة من القصائد الغنائية والصوفية تسمى ديوان شمس، يتحدث فيها عن حبه لمعلميه وأصدقائه وخاصة شمس. ومع ذلك وعلى مستوى أعمق بكثير، نستطيع

nesemat.com نسيمات nesemat.com

لقد أيقظنا جلال الدين الرومي الباحث والواعظ، والزوج والأب، والصوفي والشاعر، إلى حقيقة أن الله ليس فقط الحبيب للبشرية، ولكن أيضًا أن البشرية هي حبيبة الله تعالى.

أن نفهم أن الحب، والشوق، وآلام الفراق التي كان يتحدث عنها ليست سوى الشوق إلى الله ﷻ. وفيما بعد أكد في المثنوي الذي يقول عنه الكثيرون إنه من بين أعظم كتابات الشعر الروحي الذي كُتب في أي عصر، أهميةَ حبِّ بعضنا البعض، وأن نكون نماذج للحب لبعضنا البعض. والكثير مما كتبه الرومي مأخوذٌ من القرآن الكريم، والسنة المطهرة، ومصادر أخرى في الأدب العربي والفارسي. وقد شجعت أبياته الرجال على اتباع القيم الأخلاقية، والأدبية، والروحية؛ وبالنسبة للرومي، فإن الحب هو روح الكون، وأساس وجوده، ولكن ليس الحب العابر المؤقت؛ فهو يتحدث عن الحب الخالص المطلق لله ﷻ. وعلى الرغم من أن كتابته تبدو عن المواقف الإنسانية والمشاعر، فإن الأهمية الأعمق هي أنها ينبغي أن تُترجم إلى الحب والشوق الإلهي. ورسالته تتمثل في فناء الأنا والاستسلام التام لله ﷻ.

إن نهج الرومي الصوفي قد أَسَر قلوب الباحثين عن الروحانية في كل مكان، ليس فقط بسبب عمقها وجمالها، ولكن أيضًا بسبب حقيقتها. وقد جسدت أعماله هذه الحقيقة، وفاضت برسالة الحب التي صمدت على مر العصور.

فتح الله كولن هو الرسول المثالي في العصر الحديث، وهو صوت السلام الذي يوقظ الإنسانية النائمة على رسالة الرومي عن الرحمة والمحبة من خلال التفاهم والحوار.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

رسائلهما في الحب والتسامح

لقد أيقظنا جلال الدين الرومي الباحث والواعظ، والزوج والأب، والصوفي والشاعر، إلى حقيقة أن الله ليس فقط الحبيب للبشرية، ولكن أيضًا أن البشرية هي حبيبة الله، وكتب:

"لا يسعى أبدًا في الحقيقة الحبيب دون أن يسعى إليه محبوبه،

فعندما يُضاء نور الحب في هذا القلب، ويعرف أن هناك حبًّا في هذا القلب،

وعندما يتعاظم حب الله في القلب، إلى ما وراء الشك، يكون الله أيضًا لديه حب لك"[١٧].

تستند وجهة نظر الرومي عن العالم إلى مبدأ الحب، فهو يعتقد أن حب بعضنا البعض باسم الله ﷻ يفتح الطريق إلى (الحب) المطلق. وأصبح اسم الرومي يدل على الحب والرحلة السعيدة إلى اللامتناهي؛ وقد أطلق عليه طلابه وتلاميذه المخلصون اسم "مولانا" التي تعني "سيدنا".

وباعتباره واحدًا من أفضل الشعراء مبيعًا لأعماله في أمريكا الشمالية، فإن رسالة الرومي عن الحب والتسامح التي تمثل الإسلام كديانة للسلام والأخوة، بدأ يسمعها الباحثون عن الروحية اليوم كنموذج إيجابي للحوار بين الأديان في هذا العالم المضطرب المكلوم. وكان دينه هو الإسلام، لكنه كان مدافعًا عن التسامح الديني غير المحدود، وتَقَبُّل المسلمين واليهود، والمسيحيين بنفس العين والقلب المحِبَّين. وفي المقابل، كان يُحترَم ويُبَجَّل من قِبَل الناس من جميع الأديان. ومن المثير للاهتمام بشدة، أن كلمات الرومي التي يصف نفسه بأنه مثل الفرجار، فبينما يقفُ بساقٍ ثابتًا على شريعة الإسلام، يدورُ بالأخرى على عقائد الآخرين يمكن أن تنطبق أيضًا على كولن نفسه[١٨]. وعلى الرغم من أن الكثيرين اليوم قد قرأوا أو سمعوا عن الرومي، فإن القليل هم من يشعرون بألم البشرية، أو لديهم قلوب تحترق بمحبة الله، أو يسعون لعصر من الحب والتسامح والسلام بقدر ما يشعر به فتح الله كولن؛ وقليلون هم من يفهمون ويمثلون عمق رسالة الرومي كما يفعل كولن.

إن هذا العالِم التركي، والزعيم الروحي، والمعلم، والمؤلف، وناشط السلام هو ميراث العصر الحديث. يجلب لنا رسالة الرومي عن الحب الذي يحتضن الإنسانية جمعاء؛ الذي يقول: "إن حب الله هو جوهر كل شيء". ووفقًا لكولن "فإن الروح بلا حب لا يمكن أن تسمو إلى أفق الكمال البشري؛ وحتى لو عاشت تلك الروح مئات السنين، فلن تستطيع أن تُحرز أي تقدم على الطريق إلى الكمال. وأولئك المحرومون من الحب، الواقعون في شراك الأنانية، ليسوا قادرين على حب أي شخص آخر، ويموتون وهم غير

مدركين للحب الراسخ بعمق في كينونة الوجود"[١٩].

وفي موعظته وشعره وتدريسه لا يُسمع فقط النُواح، بل تسمع آمال الإنسانية وأحلامها؛ وبينما يحمل أحزانه الخاصة، تؤلمه أيضًا أحزان الآخرين، ويشعر بأن كل ضربة وُجّهت إلى الإنسانية قد وُجّهت أولًا إلى قلبه؛ كما أن معتقداته ومشاعره عميقة جدًا، لدرجة أن موعظته كثيرًا ما ترافقها دموعه. وبالنسبة لكولن ليس هناك وقت يضيعه، فهو يسعى في محاولة تغيير العالم إلى مكان يحلُّ فيه الحب والسلام محل الكراهية والعنف؛ فكل شيء في حياته مُكرَّس لهذا الغرض. وقد اعتبره الكثيرون مفكرًا روحيًا مؤثِّرًا، ولم يُبدِ كولن اهتمامًا بتحقيق أي سلطة سياسية، أو إشادة شخصية، أو قداسة. وفي الواقع فهو يتجنب ذلك، ويفضل أن يبقى في هدوء خلف الكواليس يُلهم الآخرين بمثاله. ويعتقد كولن اعتقادًا راسخًا أن الدين الصحيح يعظ بالحب لا الكراهية، والتسامح لا القضاء، والرحمة لا القسوة، والسلام لا الحرب. ووفقًا لكولن، فإن الدين الحقيقي يقود الناس إلى حياة الفضيلة والكمال.

قد يتساءل البعض كيف كان هذا المفكر المتواضع، وهذا الصوفي، وهذا العالِم الإسلامي قادرًا على أن يدفع فعليًا بالملايين حرفيًا إلى خدمة البشرية؟ وهي خدمة لا تقتصر على المثل القومية، وإنما تمتد إلى المدارس والأسس الدينية في جميع أنحاء العالم، من تركيا إلى ماليزيا إلى سيبيريا إلى جنوب إفريقيا إلى الولايات المتحدة. لقد أوضح

إن هذا العالِم التركي، والزعيم الروحي، والمعلم، والمؤلف، وناشط السلام هو ميراث العصر الحديث. يجلب لنا رسالة الرومي عن الحب الذي يحتضن الإنسانية جمعاء.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

كولن أنه من خلال التعليم فقط يمكن أن نسمو بالأجيال التي سوف تفهم وتمارس التسامح ومحبة البشر؛ فالمرء يكون إنسانًا حقيقيًا عندما يتعلم ويُعلِّم ويُلهم الآخرين. ويقول الطلاب الذين كانوا محظوظين بما فيه الكفاية للعيش والدراسة معه: "إنه كان محبوبًا بشدة ويُحترم لأنه يمارس ما يعظ به، ويتوقع من نفسه أكثر مما يتوقع بكثير من الآخرين". وأولئك الذين يحبونه ويتبعوه يسموه (هوجا أفندي)، وهي تعني "السيد المعلم". ويقول: "إن الإنسان الحقيقي يجب أن يكون مُكرسًا تمامًا لخدمة الآخرين لدرجة ألا يشعر بالتعب إلا عندما يتوقف قلبه عن النبض"، وكثيرًا ما ذكر كولن أنه لا يكفي أن نتحدث عن الحب والتسامح دون القيام بعمل إيجابي؛ العمل الذي لا ينتظر شيئًا في المقابل.

هذا ويعتقد كولن -وهو رائد الحوار بين الأديان لأكثر من ٣٠ عامًا- "أن الحوار ليس مسعى لا لزوم له، بل ضرورة حتمية ... وإن الحوار من واجبات المسلمين لجعل عالمنا مكانًا أكثر سلامًا وأمانًا"[٢٠]؛ ولهذا الغرض، التقى مع القادة الروحيين والسياسيين في العالم. وفي لقائه مع البابا يوحنا بولس الثاني، اقترح العمل معًا لبناء تفاهم بين الإسلام والكاثوليكية؛

منذ قرابة ٧٠٠ عام في الأناضول (قونيا الآن)، قال المعلم والشاعر الروحاني مولانا جلال الدين الرومي هذا النواح: "أريد صدرًا مزَّقه ألم الفراق عن الله إربًا إربًا، كي أبوح له باشتياقي وحنيني".

nesemat.com نسمات nesemat.com

وقد تم انتقاده في بعض الأحيان على أنه يخالف الإسلام بسبب تقبله للديانات الأخرى، ولكن كولن يعتقد أن ما يوحد البشرية أكثر بكثير مما يفرقها؛ فالجسور بين الثقافات، والأديان، والأجناس كلها موجودة ولكن تحتاج فقط إلى إعادة اكتشاف. وقد كرَّس كولن حياته للدراسة والكتابة والتدريس والعمل بلا كلل من أجل تعزيز الروابط بين الناس من مختلف الثقافات والمعتقدات الدينية.

وفي الواقع، فقد استطاع كولن أن يأخذ رسالة الرومي عن الحب والتسامح العالميين ويبعث فيها الحياة من خلال تطبيق الصوفية في الحياة العملية. إن الرومي وكولن مثل "الإخوة" الذين يستمدون نظام الفكر والفلسفة من نفس المصدر؛ وعند قراءة قصائد الرومي على أعمق مستوى، نجد أنها تتحدث عن أكثر بكثير من مجرد صور بسيطة مثل وردة، أو كوب، أو حانة، أو حديقة، أو ناي، أو عندليب، فهي دليل للعثور على الله ﷻ. ويفهم كولن هذا الدليل ويجسد إرثه كوسيلة للانسجام ليس فقط مع الله ﷻ ولكن أيضًا مع رفاقه؛ ويعيش كولن مثل الرومي، حياة راسخة بعمق في الحب والعاطفة لله ﷺ. ومن خلال تذكرهما الدائم لله، فقد أصبحا مثل منارات مشرقة تدعو الناس إلى الحب الحقيقي الموجود في الوجود الإلهي.

لقد أصبح الرومي الإنسان السامي الذي كان منقسمًا بسبب الأصدقاء والمعلمين الذين رافقوه على طول الطريق؛ فهم نعمة من الله وبركة هائلة. ولأنهم ممتلئون بالنور الإلهي، فإنهم يعكسونه بشكل جميل إلى الرومي؛ وعلى الرغم من وفاة الرومي، فلا يزال الشوق إلى توحده النهائي مع الحبيب السرمدي، وعودته إلى "غاب الناي موجودًا".

يقول كولن إنه لم يلتق بعد بالشخص الذي يفهم حقًا اشتياق روحه العميق؛ وفي وحدته يسأل العندليب إذا كان هناك أي شخص يسمع صرخته، ويشهد دموعه، ويشعر بألمه. ورغم ما قد يبدو أنه لا يوجد عندليب واحد يجيب نداءه، فهناك الآلاف، وربما الملايين من المحيطين به الذين سمعوا رسالته عن الحب والتسامح واستجابوا من خلال تكريس حياتهم لنشره؛ يقول الله تعالى في أحد الأحاديث القدسية: "إذا أحببت عبدي كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي"(رواه البخاري بهذا اللفظ في غير الصحيح). إن فتح الله كولن هو أحد هؤلاء العِباد المحبوبين.

فتح الله كولن هو الرسول المثالي في العصر الحديث، وهو صوت السلام الذي يوقظ الإنسانية

النائمة على رسالة الرومي عن الرحمة والمحبة من خلال التفاهم والحوار. ولا شك أن ميراث الرومي وكولن سيعيش في أصوات وأفعال أتباع هوجا أفندي، "العبد المتواضع وصديق الجميع"؛ ويبدو أن صرخة عندليب كولن تُسمع ويُلبَّى نداؤها. ■

الهوامش

(١) www.wikiquote.org/wikiJalal_al-Din_Muhammad_Rumi.
(٢) Jonathan Starr, "The Song of the Reed," Rumi in the Arms of the Beloved p.21.
(٣) Zaman newspaper, Tuesday, March 30, 2004.
(٤) www.slife.org/index.htm POEMS.
(٥) Gulen, Advocate of Dialogue, p. 8.
(٦) Zaman, Nuriye Akman interview with Sheikh Sefik Can, Jan. 31, 2005.
(٧) Gulen, ibid, "Introduction," p. ii.
(٨) Gulen, ibid, p. 14.
(٩) The Fountain, "Mevlana Jalal al-Din Rumi," July-Sept. 2004, issue 47.
(١٠) Ibada, 'Ubudiya, and 'Ubuda (Worship, Servanthood, and Deep Devotion) Sizinti, Aug. 1993, Vol. 15, Issue 175.
(١١) Gulen, Key Concepts in the Practice of Sufism, "Author's biography," vol. 1, 2004.
(١٢) Zaman interview with Nuriye Akman, March 28, 2004.
(١٣) F.Gulen, Sufism,vol. 1 p. xiii.
(١٤) Fethullah Gulen, "Foreward," Fundamentals of Rumi's Thought: A Mevlevi Perspective" p. xi.
(١٥) Helminski, Rumi Daylight, p. 10.
(١٦) Ibid, p. 11.
(١٧) William Chittick, "The Sufi Path of Love – the Spiritual Teaching of Rumi," p. 209.
(١٨) Kurtz, "Gulen's Paradox," Muslim World, p. 328.
(١٩) www.fgulen.org/a.page/life/biography/a756html.
(٢٠) Saritoprak p. 336.

المراجع

- Al-Jilani, Hadrat Abd al_Qadir Al-Jilani (1992) "The Secret of Secrets," Cambridge: Islamic Texts Society.
- Bakar, Omar (2005) "Gulen on Religion and Science: A Theological Perspective," The Muslim World, Special Issue, July 2005, vol. 95, Issue 3, p. 359-370.
- Barks, Coleman (1997) "The Essential Rumi," Edison, NJ: Castle Books.
- Can, Sefik (2004) "Fundamentals of Rumi's Thought, A Mevlevi Sufi Perspective," Somerset, NJ: The Light.
- Chittick, William (1983) "The Sufi Path of Love, the Spiritual Teachings of Rumi," Albany: State University of New York Press.
- Chittick, William (2004) "Me and Rumi, The Autobiography of Shams-I Tabriz," Louisville, KY: Fons Vitae.
- Gulen, Fethullah (2004) "Key Concepts in the Practice of Sufism," Vol. 1 and 2, Rutherford, NJ: the Light.
- Gulen, Fethullah ((2000) "Pearls of Wisdom," Fairfax, VA: the Fountain.
- Gulen, Fethullah (2004) "Toward a Global Civilization of Love and Tolerance," Somerset, NJ: The Light.
- Gulen, Fethullah, (2000) "Advocate of Dialogue," compiled by Ali Unal and Alphonse Williams, Fairfax, VA: The Fountain.
- Helminski, Camille and Kabir (1999) "Rumi Daylight, A Daybook of Spiritual Guidance," Boston and London: Shambala.
- Helminski, Kabir (2000) "The Rumi Collection," Boston and London: Shambala.
- Khan, Hazrat Inayat Khan (1999) "The Heart of Sufism," Boston: Shambala Publications Inc.
- Kurtz, Lester (2005) "Gulen's Paradox: Combining Commitment and Tolerance," The Muslim World, Special Issue, July 2005, vol. 95, Issue 3, p. 373-381.
- Michel, Thomas S.J. (2005) "Sufism and Modernity in the Thought of Fethullah Gulen," The Muslim World, Special Issue, vol. 95, Issue 3 p. 341-356.
- Saritoprak, Zeki (2005) "Fethullah Gulen and the 'People of the Book': A Voice From Turkey for Interfaith Dialogue," The Muslim World, Special Issue, Vol. 95, Issue 3 p. 329-338.
- Sells, Michael (1996) "Early Islamic Mysticism, Sufi, Qur'an, Miraj, Poetic and Theological Writings ," New York: Paulist Press.
- Smith, Margaret (1994) "Readings from the Mystics of Islam," Westport, CT: Pir Publications.
- Star, Jonathan (1997) "Rumi, In the Arms of the Beloved," New York: Penguin Putnam Inc.

مواقع الإنترنت

- www.en.fgulen.com
- www.rumiforum.org
- www.whirlingdervishes.org
- www.zaman.com
- www.slife.org

العلماء المدنيون والسلطة
مقاربة فكرية للواقع التركي

محمد عارف ساي

كاتب ومفكر تركي، متخصص في شؤون التاريخ الاجتماعي للحركات الإسلامية والفكر الإسلامي. له باع طويل على الأخص في رصد الحركات الصوفية والفكر العرفاني الإسلامي.

في هذه الدراسة إطلالة فكرية وفلسفية عامة للعلاقة الجدلية بين السلطة الحاكمة والعلماء المدنيين، وكيف تستغل السلطة الدين في هذا الصراع لتشويه الشخصية المعنوية للعلماء، أو الاستعانة بتلك الشخصية لتخطي حدود الشريعة أو ممارسة حكمها الشمولي، وما يترتب على ذلك من فساد ديني وسياسي وأخلاقي. بدأ الكاتب بنظرة خاطفة إلى التقاليد العلمية التي نشأ عليها العلماء، وخلص إلى أن الإطار المرجعي الفكري للعقل الإسلامي اليوم ينتمي إلى ما قبل القرن السادس الهجري، وأن المجتمعات الإسلامية استطاعت رغم أزمة الجمود الفكري أن تحافظ على وحدتها واستمراريتها الثقافية والسياسية والاجتماعية عن طريق اضطلاع العلماء المدنيين بدور قيادي في الحد من الأزمات الفكرية والاجتماعية والأخلاقية. ثم ختم بالمقاربة بين هذه الإطلالة، والصراع الحاصل الآن في تركيا، وكيف استغلت السلطة الشؤون الدينية المنخرطة في السلك البيروقراطي في حملتها ضد الأستاذ كولن وحركة الخدمة لإصدار تقرير يشوه الصورة المعنوية والفكرية الإيجابية للأستاذ كولن ومن ثم خلق أرضية للفتوى بتكفيره من خلال ادعاءات زائفة.

إن الأستاذ فتح الله كولن عالم ومفكر وناشط مسلم، وأكثر ما دار الحديث حوله هو:

١- نشاطه المتواصل في مجال المؤسسات التربوية التي تأسست على مستوى العالم مسترشدةً بتحفيزاته العلمية والفكرية.

٢- بالإضافة إلى خطابه المؤكِّد على الحوار الفكري من أجل مكافحة العنف.

والدافعُ الأساسي للقيام بهذه الدراسة التحليلية العامة الموجزة هو حملات الافتراء والتشويه والإبادة المنظمة التي تنفّذها -على صعيد عالمي- حكومةُ حزب العدالة والتنمية التي تزعم أنها "حكومة إسلامية" ضدَّ شخص الأستاذ كولن وحركةِ الخدمة. وواحدة من تلك الحملات ذلك التقرير الذي أعدته رئاسة الشؤون الدينية مؤخرًا -بتعليمات من السلطة الحاكمة- ضد الأستاذ فتح الله كولن[١].

وبالنظر إلى محتوى التقرير يُلاحَظ أن الذين أعدوه قد استهدفوا من ورائه أمرين:

أولهما -وقبل كل شيء- هو خلق أنواع من الشكوك والريبة حول الشخصية العلمية والمعنوية والفكرية الإيجابية التي يحظى بها الأستاذ كولن لدى الرأي العام، بغية فتح باب النقاش حول مصداقيته الاجتماعية. وثانيهما: تأسيس أرضية للفتوى بتكفير كولن وإخراجه عن دائرة الإسلام، من خلال ادعاءات زائفة.

إن هذا النوع من المخططات الذي يُنفَّذ عن

nesemat.com نسمات nesemat.com

تحريف لجنة الشئون الدينية التركية لنصوص الأستاذ وتشويهها وتوجيهها نموذج فريد للتزوير، فهو صادر عن ممثل رسمي ديني، مما يشي بما انحط إليه التصور الديني الرسمي في تركيا مؤسسيًا وعلميًّا وأخلاقيًّا.

طريق استغلال الدين بأسلوب غير منصف، يحكي تاريخًا قديمًا وينبئ عن قصة طويلة، فمنذ عصر التابعين وإلى الآن لم تزل السلطات الحاكمة تستغل الدين للمساس بالسمعة الدينية والروحية التي كان العلماء المدنيون[٢] يتمتعون بها، كما أنها اعتَبرت ذلك أداة لإضفاء الشرعية على سلطتها السياسية. ويَرى البعضُ أن السبب وراء ذلك هو عدم نجاح المسلمين على مدى تاريخهم في تطوير نظرية حول معارضة سياسية ذات مشروعية قانونية، ومن ثم فقد قامت السلطة العلمية والأخلاقية والاجتماعية التي يتمتع بها العلماء المدنيون بسد هذا الفراغ الذي حصل في النظرية السياسية من بعض الوجوه. ولذلك لوحظ أنه قد تكرر بين الحين والآخر في التاريخ السياسي الإسلامي أنْ حدث مثل هذا القبيل من التوترات بين السلطة السياسية والعلماء المدنيين، وهذا الطرح وإن كان صحيحًا من بعض الوجوه، لكن لا يمكن اعتباره صحيحًا بالكلية؛ لأن قراءة تقاليد العلوم الإسلامية وتاريخ علمائها على أساس جدلية السلطة الحاكمة والعلماء المدنيين (المعارَضة)، ومعالجتَها في هذا الإطار العام ربما تسهِّل الأمر على من يريد تحليلها، ولكنها في الوقت ذاته ستؤدي إلى مشكلة دينية

جميع التخصصات الإسلامية تقريبًا مندرجة في نظامِ مرجعيةِ "البيان"، في حين أن العلوم الفلسفية والعقلية تندرج في نظام مرجعية "البرهان"، كما أن التصوف يندرج تحت مرجعية "العرفان".

nesemat.com نسيمات nesemat.com

وأخلاقية وعلمية ومنهجية. ولكن من المؤكد أيضًا أن استخدام السلطات الحاكمة لكل ما لدى الدولة من أدوات القوة والعنف في حملاتها المنظَّمة ضد العلماء المدنيين، قد أدى إلى فساد ديني وسياسي وأخلاقي خطير في التاريخ الإسلامي والمجتمعاتِ الإسلامية.

وسنتطرق في الفقرات الآتية إلى هذا الفساد الخطير عندما نتحدث عن الحملة التي أطلقتها رئاسة الشؤون الدينية "في تركيا" ضد الأستاذ فتح الله كولن. ولكن قبل الدخول في ذلك الموضوع من المفيد أن نلقي نظرة تحليلية موجزة على التقاليد العلمية الإسلامية التي ينحدر منها الأستاذ فتح الله، لأن ذلك سيساعد -من جانب- على مزيد من التعرف على شخصية الأستاذ الدينية والأخلاقية والفكرية، كما سيمنحنا الفرصة -من جانب آخر- للاطلاع على أسباب لجوء السلطات الحاكمة في التاريخ إلى استهداف السلطة المعنوية التي كان يتمتع بها العلماء المدنيون، الأمر الذي أدى إلى إفساد المجتمعات دينيًا وأخلاقيًّا.

ولا شكَّ أن التقرير الذي نشرته رئاسة الشؤون الدينية التركية ستكون له عواقب خطيرة من الناحية العقدية والأخلاقية والعلمية والمجتمعية، لأن الفساد الديني والمجتمعي الذي سيؤدي إليه كل واحد من هذه الأمور على حدة من الخطورة بحيث يستحق أن يؤلَّف فيه كتاب كامل. ولكننا بدلاً من التركيز على الافتراءات التي يسردها التقرير للنيل من مكانة الأستاذ وتشويه سمعته، أردنا أن نتطرق في هذا المقال إلى شخصيته العلمية والأخلاقية والمعنوية، حتى نُبرز للعيان -ولو بعض الشي- هذه الشخصية العلمية التي تتمتع بنصيب وافر من الدين والأخلاق والعلم، على الرغم من محاولة كاتبي تقرير الشؤون الدينية تعتيم هذه الشخصية من خلال تحريف أقواله وكتاباته.

ولكننا قبل الخوض في ذلك نريد أن نلقي نظرة خاطفة على كيفية نشوء التقاليد الإسلامية العلمية والعرفانية ونشأة العلماء على مدى التاريخ الإسلامي.

التقاليد العلمية ونشأة العلماء

إن الإسلام ظهر وحيًا ودعوةً، وبلغ حدودُ تأثيره في فترة قصيرة من الزمن تقدَّر بربع قرن إلى أراضي أذربيجان، كما أنه في وقت قصير بلغ أراضي شاسعة من إفريقيا الشمالية إلى أسبانيا، ومن إيران وخراسان إلى جميع مناطق ما وراء النهر، ومن بلاد الروم إلى بلاد الترك. وكلما اتسعت رقعة الإسلام زادت الحاجة إلى مزيد من الوسائل العلمية لنقل نظامه العقدي إلى الأجيال الجديدة، والدفاع عن نفسه ضد ما كانت تواجهه في تلك الأراضي الجديدة من أنظمة المرجعيات الثقافية والدينية الأجنبية.

ولذلك لوحظ أنه بدأ في فترة قصيرة من الزمن نشاطٌ محموم في كل الساحات العلمية، وكانت هذه الأنشطة تَصبُّ من جانب في الحفاظ على التراث الإسلامي، بينما كان هذا التراث يتم مَنهجته وتنظيمه في الحلقات العلمية. وبنهاية القرن الأول الهجري كان الفكر الإسلامي قد تشكَّل من جميع جوانبه تقريبًا. وفي القرون الثلاثة-الأربعة التالية كان التراث الإسلامي قد وصل إلى مستوى من القوة بحيث يستطيع أن يقدم نظامًا فكريًا وفلسفيًا ينظم الرؤية الإسلامية بكاملها.

ووفقا للقبول الفلسفي، ظهرت في تقاليد الفكر الإسلامي ثلاثة أنظمة مرجعية أساسية تتمتع بإطار أبستمولوجي وهي: البيان، والبرهان، والعرفان.

وبناء على هذا الطرح فإن جميع العلوم الإسلامية تقريبًا مندرجة في نظامِ مرجعيةِ "البيان"، في حين أن العلوم الفلسفية والعقلية تندرج في نظام مرجعية "البرهان"، كما أن التصوف يندرج تحت مرجعية "العرفان".

ومن الطبيعي أن يتعرض هذا التصنيف للنقد من جهات عدة؛ فلقائلٍ أن يقول: ما المانع من اعتبار علم الفقه والكلام والأصول في "البرهان" أيضًا، وبالأخص إذا كان الفقه والأصول شكلاً من أشكال التعقل الخاصة بالإسلام؟ ويمكن أن تأتي اعتراضات أخرى من هذا القبيل.

ولكننا عندما نتحدث عن التقاليد الفكرية الإسلامية نكون في الأساس متحدثين في الوقت ذاته

nesemat.com نسيمات nesemat.com

ينبغي لمن يريد متابعة آثار التراث الفكري للإسلام أن يقنفي أثرها في شخصية العالم الاجتماعية والثقافية ودورِه في هذا المجال. فلا يمكن أن نحلل جهدًا فكريًّا ولا اجتماعيًّا في التراث الإسلامي بمعزل عن العالِم.

عن نظام مرجعي من الناحية الفكرية والمعرفية، وبالتالي بإمكاننا أن نقول: إن العقل الإسلامي قد تكوَّن في ثلاثة أنظمة مرجعية مختلفة. ولا ضير في ذلك، وانطلاقًا مما ورد في حديث جبريل المشهور من المفاهيم الثلاثة: الإيمان والإسلام والإحسان، يمكننا أن نعرِّف العقل الإسلامي في ضمن الأنظمة المرجعية الثلاثة التي هي: الكلام، والفقه، والعرفان.

ومع أن الفلسفة الإسلامية والفكر الميتافيزيقي بصفة عامة يتمتعان بثقل نوعي عالٍ، فإنهما لم يضطلعا بدور فعال ومباشر في التحول الذهني والأخلاقي في التاريخ الإسلامي والمجتمع الإسلامي، ولذلك حَصَرْنا الأمر في تلك المرجعيات الثلاثة التي هي: الفقه والكلام والعرفان.

إن الفلسفة الإسلامية قد ركدت في القرن الرابع-الخامس الهجري (العاشر الميلادي)، بحيث يصعب تتبع الخط الميتافيزيقي الفلسفي الممتد من ابن سينا إلى الملا صدرا (٩٨٠هـ-١٠٥٠هـ / ١٥٧٢م-١٦٤٠م) في القرن السابع عشر الميلادي.

ولكن كما هو الحال في التصنيف الأول يمكن إيراد اعتراضات على هذا التصنيف أيضا من شتى

بنهاية القرن الأول الهجري كان الفكر الإسلامي قد تشكَّل من جميع جوانبه تقريبًا. وفي القرون الثلاثة التالية كان قد قَوِيَ بحيث يستطيع أن يقدم نظامًا فكريًّا وفلسفيًّا ينظم الرؤية الإسلامية بكاملها.

nesemat.com نسمات nesemat.com

الوجوه. فرغم أنه لم تكن للفلسفة الإسلامية مَظاهر وآثار اجتماعية وأخلاقية وسياسية مباشرة ومكثفة كشأن سائر العلوم الأخرى، فإنه لا يمكن معالجة وتفسير الميتافيزيقا الإسلامية بمعزل -كليًّا- عن هذا النظام المرجعي الفلسفي.

ولذلك نلاحظ أنه كما برز في ساحة العلوم الإسلامية نموذج "الفقيه"، و"المتكلم"، و"العارف"، ظهر إلى جانب ذلك نموذج "الحكيم" الذي يأخذ مرجعيته من النظام الفلسفي. صحيح أن هذا المصطلح كان في القرون الإسلامية الأولى يُطلق في الأغلب على الفلاسفة الذي يشتغلون بعلم الفلسفة، إلا أنه أصبح فيما بعدُ يعبِّر عن الشخصية التي لها سلطة في التصوف والعرفان إلى جانب التخصصات الإسلامية الأخرى. ولكن بعد القرنين السادس والسابع للهجرة أصبح هذا المصطلح يحمل مفهومًا ميتافيزيقيًّا يتمحور حول علم الكلام-الفلسفة-التصوف.

وهنا يمكن الحديث عن تراث عقلي مختلف يأخذ مرجعيته عن دعوة الرسول ﷺ وعن جانبه السياسي-الإداري؛ كأن نعبر عنه بـ"العقل السياسي الإسلامي". والسبب في استخدامنا الدولة والسياسة بشكل متداخل هو أن مبدأ الدعوة والتبليغ في الحياة العملية للرسول ﷺ هو أهم مبدأ يحفز جميع أنشطته. فمبدأ الدعوة والتبليغ بصفته واحدًا من الأهداف الأساسية للإسلام قد أصبح مؤثرًا نوعًا ما بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في جميع الأنظمة المرجعية للإسلام.

وقد ذكرنا آنفًا مدى صعوبة البحث عن الآثار الفكرية للتراث الفلسفي الإسلامي من خلال الخط الممتد من ابن سينا حتى الملا صدرا في القرن السابع عشر الميلادي. ورغم عدم وجود فجوة معرفية كبيرة مع التراث الإسلامي، فإن الواقع هو أن هذا الجهد الفكري قد عانى من أزمة الاستمرارية. وإذا كانت متابعة الآثار الفكرية للنظم المرجعية الثلاثة الأخرى أمرًا ليس سهلاً فإنه لم تزل للفقه والكلام والتصوف آثار اجتماعية وسياسية وأخلاقية عميقة على المجتمعات الإسلامية.

وبناء على ذلك، يمكن القول: إن الإطار المرجعي الفكري للتراث الإسلامي اليوم ينتمي تقريبًا إلى ما قبل القرن السادس الهجري؛ بمعنى أنه ينبغي لأولئك الذين يبحثون عن آثار الملحمة الفكرية للعقل الإسلامي أن يعلموا أنه قد تم إنشاء الإطار المرجعي الرئيسي لهذا العقل في تلك الفترة التاريخية.

وقد يسأل سائل: هل يعني هذا أن هذا الحكم يشمل علم الفقه والكلام والفكر العرفاني إلى جانب الفكر الفلسفي أيضًا؟ والجواب: نعم، من

بعض النواحي. ولكن إذا كان الأمر كذلك فكيف استطاعت المجتمعات الإسلامية رغم هذه الأزمة المبكرة أن تحافظ على وحدتها واستمراريتها الثقافية والسياسية والاجتماعية؟ إن هذه النقطة هي التي نريد أن نؤكد عليها باهتمام وإصرار.

روح العالِم في التاريخ الإسلامي

لقد أظهر التاريخ عادة أنه لم تستطع أي حضارة أن تحافظ على كيانها لمدة طويلة على الرغم من تجمد مواردها الفكرية وانسدادها واستنفادها، أما الحضارة الإسلامية فرغم أن تراثها الفكري قد فقد إنتاجيته وروحه التجديدية في وقت مبكر جدًّا وبدأت تُكرر نفسها فإن شخصية العلماء التي لعبت دورا اجتماعيًّا وفكريًّا نشطًا حالت -على الأقل- دون تحوُّل هذا الجمود إلى أزمة مجتمعية وأخلاقية وفكرية.

صحيح أن الفكر الإسلامي لم يستعد ذلك النشاط الحيوي الذي كان يتمتع به في القرن الثالث إلى القرن السابع الهجري، لكنه مع ذلك لم يقع في أزمة الانعدام الكلي والاستمرارية.

ولذلك نقول: إن العالِم هو شخصية فكرية اضطلع بدور قيادي في الحدِّ من الأزمات الفكرية والاجتماعية والأخلاقية في التاريخ الإسلامي والمجتمع الإسلامي. بل نستطيع القول بأن العالِم هو السلطة الوحيدة التي حققت التحول الذهني والأخلاقي بالمعنى الحقيقي في المجتمعات الإسلامية.

ولذلك ينبغي للذين يريدون متابعة آثار التراث الفكري للإسلام وجردَها وفهرستها أن يبحثوا عنها في

إن الأستاذ كولن لا ينحدر من تقاليد مشايخ التكايا والزوايا، ولكن شخصيته العلمية وحياته الشخصية زاخران بالتجارب العرفانية التي ترجع إلى أعوام طويلة.

nesemat.com نسمات nesemat.com

الشخصية الاجتماعية-الثقافية للعالم ودورِه في هذا المجال. فمن غير الممكن أن نتناول ونحلل جهدًا فكريًّا ولا اجتماعيًّا في التراث الإسلامي بمعزل عن العالِم.

الخصومات بين العالِم المدني والسلطة

إن أكثر المؤسسات التي أدت إلى الفساد الاجتماعي والأخلاقي في التاريخ الإسلامي هي في أغلب الأحوال السلطة الحاكمة والقوى السياسية. وأما المقاومة المعنوية والأخلاقية تجاه هذا الفساد فإنما جاءت في معظم حالاتها من العلماء المدنيين، وبالتالي فلم يزل هناك توتر متكرر بين السلطة الرسمية والعلماء المدنيين.

لقد قام العالِم المدني من جانبٍ بمناقشة مشروعية السلطة الحاكمة دينيًّا وأخلاقيًّا، ومن جانب آخر قام بدور اجتماعي-فكري من أجل الرقابة على نزوع السلطات وميلها نحو ممارسة حكم شمولي على المجتمعات.

وما كان للسلطة الرسمية على مدى التاريخ الإسلامي أن تتخطى حدود الشريعة وتمارس حكمًا سلطويًّا على المجتمع إلا بالدخول في معركة مع شخصية معنوية مدنية، أو بالاستعانة بتلك الشخصية.

جميع التخصصات الإسلامية تقريبًا مندرجة في نظامِ مرجعيةِ "البيان"، في حين أن العلوم الفلسفية والعقلية تندرج في نظام مرجعية "البرهان"، كما أن التصوف يندرج تحت مرجعية "العرفان".

nesemat.com نسمات nesemat.com

وفي الفترات التي كانت سلطة المذاهب الدينية فيها في مرحلة النشوء، عاش أئمة المذاهب توترات من هذا النوع مع أصحاب السلطات الحاكمة. فقد كانت السلطة الحاكمة تعرف جيدًا مدى ما يتمتع به "العالِم المدني" من سلطة معنوية واجتماعية على المجتمع، لذلك كانت تريد تعزيز شرعيتها من خلال ترويضه وضمه إلى الكوادر البيروقراطية. وبالتالي متى نجحت السلطة الحاكمة في تحقيق هذا الأمر وتحويلِ العالِم إلى أداة لإضفاء الشرعية على البيروقراطية السياسية، والقضاء على دوره باعتباره وسيطًا مدنيًا، فإنها تتمكن من إحكام قبضتها السياسية على الرعية من دون أن ينازعها أو يجادلها أحد.

لقد نشأت تقاليد "العالِم المدني"، في البدايات على أرضية مجتمعية مدنية كليًا، وعلى هذه الأرضية انتظمت قيادته الفكرية والاجتماعية، إلا أنه بمرور الزمن اندمج في الهيكل البيروقراطي للنظام. ولكن القبول العام هو أن العلماء عندما اندرجوا في الدولة وبيروقراطية السلطة الحاكمة، فقدوا سلطتهم المدنية المستقلة وكفاءتهم الدينية والفكرية، فأدى ذلك إلى التخلف الاجتماعي، والجمود الفكري.

أما في العصر الحديث، فلم ينشأ في العالَم الإسلامي -للأسف- لا شخصية علمية وفكرية تتمتع بذلك المستوى من الكفاءة الدينية والفكرية، ولا مَن وصل إلى تلك الدرجة من الاستقلال الفكري، إلا بضعة أشخاص قلائل، ويبدو أن الفائز في هذا الصراع الخفي بين السلطة الفكرية والاجتماعية للعالم المدني وبين السلطة الرسمية للجهات الحاكمة كان دائمًا هو السلطة الحاكمة التي تمتلك إمكانات الدولة الضخمة وتحتكر أدوات العنف.

فالذي يريد أن يبحث عن الخلفية التاريخية للجمود الفكري والفساد الأخلاقي الذي يعاني منه العالَم الإسلامي اليوم فعليه أن يتلمس ذلك في نزوع السلطات الحاكمة واندفاعها إلى بسط الهيمنة على المجال المدني بأكمله وفرضِ سيطرتها عليه تمامًا.

إن العلماء المدنيين لم يخوضوا مثل هذه الصراعات بدافع الحصول على القوة، بل كان همهم الأساسي أن يحموا الدين والمجتمع من بأس تلك السلطات التي كانت تَعتبر الدين والمجتمع تهديدًا لوجودها.

ورغم هذه الحقيقة التاريخية، فإن السلطات الحاكمة في التاريخ الإسلامي غالبًا ما توهمت وجود سلطة فكرية مدنية مجتمعية، فأدى بها ذلك الوهم إلى الفساد الأخلاقي والسياسي والاجتماعي.

وأحيانًا كانت السلطات الحاكمة تتصور في العالِم تهديدًا يبلغ بها إلى درجة الوهم، فكانت تتصور أن المَخرج هو أن تلجأ إلى اتخاذ تدابير من

شأنها أن تُثير الشكوك حول سمعته المجتمعية ومصداقيتِه وسلطته المعنوية. ولكن في الحالات التي لم تكن هذه التدابير كافية للقضاء على سمعة العالِم ورصيده لدى المجتمع، تلجأ إلى استخدام ما تملكه الدولة من وسائل العنف العملاقة مثل القمع والاضطهاد والتهجير. وكثيرا ما استُخدم العلماء الرسميون والمؤسسات الدينية الرسمية في هذا الصراع باعتبارها واحدة من أدوات العنف والقمع التي بيد الدولة، من أجل التشكيك في تدين العالِم وتصوراته الدينية وعقيدته وأفكاره.

وقد أدى هذا التشارك بين السلطة الحاكمة والمؤسسة الدينية في بعض الأحيان -للأسف- إلى دمار الأخلاق الإسلامية والقيم العلمية الأخلاقية، وتسببت في انحطاط شامل ومتجذر في تدين المجتمع، وأحيانًا وصلت هذه الأزمة الأخلاقية إلى مستوى من الشمول والعمق بحيث إنه لو كانت لدينا حضارة راقية لدمرتها هذه الأزمة.

ولا شك أنه إذا تم تناول العلاقة بين الدين-السلطة-المجتمع باستخدام مصطلحات العلوم السياسية ومناهجها، فحينئذٍ يمكن الحصول على جردٍ يُحصي بشكل واضح مدى الفساد الناجم عن هذا التوتر بين السلطة الحاكمة والعالِم المدني. ولكننا في هذه العجالة أشرنا بنظرة موجزة وسريعة إلى الآثار الدينية والتاريخية لهذا الفساد.

الوضع الحالي

في يومنا هذا أيضا يتكرر في العالَم الإسلامي

nesemat.com نسيمات nesemat.com

سلطة حزب العدالة والتنمية تُوزِّع على الجماعات الإسلامية ما تغتصبه ظلمًا من ممتلكات المواطنين الأبرياء، فتجعلها مدمنة على المكاسب غير المشروعة التي لم يحصلوا عليها بعَرَق جبينهم.

التوتر بين السلطة وبين العلماء المدنيين، ولا تزال السلطة الحاكمة تتحرك بردة الفعل التاريخية فتحافظ على نفس ما وقع في التاريخ من التراجع الديني والأخلاقي والمجتمعي. ولا يختلف الوضع بحسب توجهات السلطة، التي نشأت وتأسست إمَّا على أسس تزعم أنها إسلاموية، أو على أسس علمانية. إن السلطة الحاكمة في تركيا هي المسؤولة المباشرة وغير المباشرة عن كل أنواع الفساد. هذه حقيقة لا بد من التأكيد عليها.

ففي الغرب تتستر السلطة الحاكمة وراء عديد من الأدوات والمعاني الرمزية، ولذلك فإنَّ فَضْح مراكز القوة والسلطة هناك يتطلب مزيدًا من الجهد الفكري والفلسفي، أما في تركيا فإن السلطة الحاكمة والدولة لا تشعر بالحاجة إلى إخفاء ميولها نحو ممارسة العنف، بل تقوم بفظائعها بشكل مباشر وبلا استحياء. وها هي حكومة حزب العدالة والتنمية التي تصنِّف نفسها إسلامية وتحكم البلاد منذ خمس عشرة سنة، تصر على مواقفها المتهورة وتعلن عنها على مرأى ومسمع الملايين ممن يتابعون من الرأي العالمي، على لسان رئيس حزبها أو رئيس حكومتها أو رئيس

ينبغي لأولئك الذين يبحثون عن آثار الملحمة الفكرية للعقل الإسلامي أن يعلموا أنه قد تم إنشاء الإطار المرجعي الرئيسي لهذا العقل إلى ما قبل القرن السادس الهجري.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

جمهوريتها، من دون أن تشعر بأي حرج في ذلك.

وعلى الرغم من هذا الكم الهائل من الفساد المالي والإداري والممارسات الظالمة والمؤامرات والعنف والقسوة والانحطاط الديني والأخلاقي لا تزال سلطة حزب العدالة والتنمية تحكي بحالتها هذه وضعَ ديكٍ يجوب شوارع القرية مرفوعَ الهامة لكنَّ ساقيه مغمورة بالقاذورات.

ومهما كان القائمون على هذا الحزب منحدرين من تقاليد إسلامية محافِظة إلا أنهم قد تسببوا بشكل فظيع في خرم العلاقة بين الدين والدولة، والدين والمجتمع، والدين والأخلاق. لأنهم بمرور الأيام أصبحوا يبتعدون عن الواقع السياسي الحقيقي الذي تعيشه تركيا والعالم، وظلوا يلهثون وراء طموحاتهم السياسية وعُقَدهم الرومانسية الإسلاموية.

لقد أنفق أردوغان في العقْد الماضي من حكم حزب العدالة والتنمية معظم جهده السياسي لإشباع نهمه العميق في سبيل تغذية نزعته القيادية، وقد استَخدم كل أدوات السلطة والقهر غير القانونية من أجل خلق صورة عن "القائد الإسلامي القوي" لدى الرأي العام داخل البلاد وخارجها.

ولذلك نقول: إنه لا حاجة هناك إلى بذل جهد فكري وذهني جادٍّ من أجل الكشف عن الأسس السياسية والفلسفية والأيديولوجية للسلطة الحاكمة في تركيا، فإن السلطة الحاكمة تفشي نفسها بنفسها بأسلوب فظ وغليظ بكل أسسها المؤسسية والبيروقراطية، وهي لا تلجأ إلى المعاني الرمزية إلا من أجل إخفاء نفسها، بل للإشعار بقوتها، لذلك لا يوجد في العالم الإسلامي جهد فكري وفلسفي تراثي يهدف إلى التنقيب عن مصادر القوة والسلطة والعنف والشمولية. وإنما يوجه العالِم والمفكر كل جهده ونقده الفكري والفلسفي إلى ما يَظهر من الوجه الاجتماعي والأخلاقي والسياسي للسلطة.

وإذا نظرنا من هذا المنظور نلاحظ أن حزب العدالة والتنمية لم يتعرض في فترة حكمه في تركيا لأي انتقاد جادّ، بل يمكن القول إنه وصل إلى يومنا هذا بمباركة من شتى الأطياف والأطراف، وقد أدى هذا بالفعل إلى تدهورٍ ديني وسياسي وأخلاقي تطوَّر بشكل خفي قلَّما نجده في التاريخ الإسلامي.

وليست المشكلة في تركيا منحصرة في ما بين السلطة الحاكمة وبين المفكرين والمثقفين فحسب، بل إنها في إشكالية مع قطاع عريض من المجتمع أيضًا، فإن كل من يتعارض مع الكاريزما الشخصية لأردوغان يُعتبر عدوًّا له، وكل من ينتقد سياسات أردوغان أو كاريزماه القيادية الشخصية فإنه إما سيقبع في السجون أو يغادر البلاد بغض النظر عن الطبقة التي ينتمي إليها سواء كانت فكرية أو سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية.

تقرير رئاسة الشؤون الدينية

والآن تعالوا بنا نَرجع بعد هذه المقدمة إلى الغرض الأساسي من كتابة هذه المقالة، وهو الحديث عن حملة الافتراءات التي أطلقتها سلطة حزب العدالة التي تزعم أنها تستند إلى تقاليد الحركات الإسلاموية، حيث لا زالت تستخدم كل أدوات القوة ووسائل العنف من أجل تشويه حركة الخدمة والأستاذ فتح الله كولن.

ولا يمكن تناول التوتر الحاصل بين الأستاذ فتح الله كولن وبين السلطة الحاكمة على أنه من نوع تلك التوترات التي وقعت في التاريخ الإسلامي الطويل بين العلماء التقليديين وبين السلطات السياسية الحاكمة آنذاك؛ لأن تلك التوترات كانت تحصل في حدودٍ سياسية وأخلاقية، في حين أن الحملات التي تُمارَس ضد حركة الخدمة والأستاذِ فتح الله كولن لم تَبْقَ لها أي حدود دينية ولا أخلاقية بل ولا إنسانية. فأردوغان يستخدم منذ سنوات جميع ما يمتلكه من الإمكانيات البيروقراطية العملاقة المستنِدة إلى القوة والعنف، في سبيل ممارسة ما يشبه الإبادة الجماعية ضد المنسوبين إلى حركة الخدمة وعائلاتهم ومحبيهم وشخص الأستاذ فتح الله كولن.

ويبدو أن كل هذا القمع والظلم المادي والجسدي لم يشف غليله وحقده، حتى لجأ إلى استهداف شخصية الأستاذ العلمية والعرفانية والمعنوية، وقد أدى به هذا التهور إلى أن يضيف أخيرًا إلى طابور حملة الافتراء المنظَّمةِ رئاسةَ الشؤون الدينية التي

لم تزل السلطات الحاكمة -منذ القدم- ترى العوامل الدينية أدواتٍ للمساس بالسمعة الدينية والروحية التي كان العلماء المدنيون يتمتعون بها، كما اعتَبرت تلك العوامل وسيلة لإضفاء الشرعية على سلطتها السياسية.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

هي مؤسسة دينية، فأوصل حملته إلى مرحلة مختلفة. ورغم أن دور إدارة الشؤون الدينية هو تنسيق الأحوال المرتبطة بالدين، إلا أنها بانخراطها في طابور حملة الافتراءات والإمحاء هذه بنزوة واندفاع قد جَعلت نفسها عرضة للنقد والمراجعة.

إن أردوغان الذي ذاع صيته في السنوات الأخيرة بالفساد في علاقاته المالية والأسرية والسياسية والتجارية، وبدأت سمعته الدولية تهبط إلى الحضيض، قد طلب من المؤسسة الدينية أن تكتب تقريرًا ضد الأستاذ فتح الله كولن من خلال البحث عن مثالبَ وثغرات في كتب الأستاذ ومحاضراته الصوتية، لأن الطريق الوحيد لمواصلة أردوغان لخدعته السياسية في داخل البلاد هو أن يُدَعِّم أكاذيبه وافتراءاته بأكاذيب جديدة، فطبيعة الكذب الاجتماعية لا تتمكن من الصمود إلا بمساندة الكذبة الواحدة بعدد آخر من الأكاذيب. ومن ثم قامت الشؤون الدينية بوصفها مؤسسة رسمية، بتشكيل "هيئة علمية" تم تكليفها بتنفيذ هذا العمل تلبية للأمر الصادر لها من رأس الهرم.

وبعد صدور التقرير فوجئنا بكم عجيب وغريب

من الغريب أن أعضاء اللجنة تحاشت التلال الزمردية "البالغ أربع مجلدات"، الذي بُني على قواعدِ أهل السنة والجماعة الرصينة وأُسُسِ علم الفقه والأصول والكلام والعقيدة، ولم يقتبسوا منه ولو كلمة واحدة.

nesemat.com نسمات nesemat.com

من المغالطات والتحريفات التي تنبئ عن مستوى من الفساد الديني تفوَّق على الفساد المالي والسياسي الذي تتخبط فيه البلاد. فما قامت به اللجنة من تحريف نصوص الأستاذ وتشويهها وتوجيهها لهو نموذج فريد للتزوير، خاصة وأنه صادر عن ممثل رسمي ديني، مما يشي بما انحط إليه التصور الديني الرسمي في تركيا مؤسسيًا وعلميًّا وأخلاقيًا.

إن التعليقات والتفسيرات التي علَّقَت بها اللجنة في تقريرها على الاقتباسات المقتطعة من كلام الأستاذ فيها تجنٍّ متعمد وتحريف مقصود ظاهر وواضح للعيان، يبرز في ثناياه لكل من يمعن النظر فيه مدى الموقف العدائي الذي يجنح إليه أعضاء هذه اللجنة في صياغة التقرير.

إن موضوع النقاش إذا كان أمرًا دنيويًّا عاديًّا أو فكريًّا بحتًا فقد يمكن تفسيره تفسيرًا مختلفًا بما يتوافق مع الأغراض الشخصية، وهذا رغم تنافيه مع المبادئ والقيم لكن قد يُعثر له على مُبَرِّر، أما أن ينبري أناس لإعداد تقرير من أجل التشكيك في إيمان شخص وأخلاقه ورؤاه وتأثيره الاجتماعي والروحي لتعبئة الرأي العام ضده، وخاصة إذا كانوا منسوبين إلى هيئة دينية يفترض فيها أن تكون على رأس منظومة القيم التي تدعو الناس إلى الالتزام بها فإن هذا أمر لا يمكن تفهُّمه على الإطلاق بأي شكل من الأشكال، لا من الوجهة الأخلاقية ولا الدينية ولا الإنسانية. إذ كيف تناسى هؤلاء وهم يضعون توقيعهم على مثل هذا التحريف والتشويه اليومَ الآخِرَ والوقوف أمام الديان يوم العرض عليه ﷻ، ومن أين واتتهم الجرأة على الإقدام على عمل تحت عباءة إدارة الشؤون الدينية ليس له سابقة من قبل، إن هذا التقرير لا يمكن وضعه إلا تحت عنوان"الفجور العلمي"؛ فلم يَسبِق لهذه المؤسسة أنْ لجأت إلى مثل هذه اللامبدئية العلمية والأخلاقية حتى في أيام الانقلاب العسكري والأحكام العرفية، بل ظلت محافِظةً على جديتها ووقارها، وتحاشت طوال تاريخ الجمهورية الانخراط في النشاطات التي تبعث الشكوك حول عقيدة أي شخص أو علمه أو عرفانه أو وجوده الاجتماعي. وليت شعري ماذا تردَّى بهذه المؤسسة إلى أن وقعت في أيدي سلطة تزعم أنها إسلاموية إلى هذا المستوى من الانحطاط الديني والأخلاقي؟!

وهناك حقيقة وهي أنه في ظل سلطة حكومة العدالة والتنمية في السنوات الأخيرة انتشر بين الناس نوعٌ من التدين الفضفاض، يجعل الناس يتصرفون وكأنه ليس هناك يوم حشر يحاسَبون فيه على أعمالهم، تديُّنٌ تطورت فيه مَظاهر دينية ذات أُبَّهَة ولكنه ضعيف لا يحرص على الاستناد إلى أساس أخلاقي.

إن سلطة حزب العدالة والتنمية لا تتوقف عند حدود التحكم في المواقف والسلوكيات الدينية والأخلاقية للجماهير الدينية بل تجعلهم يفقدون الحساسية حيال الحقوق الإسلامية والقيم الأخلاقية من خلال المِنَح والتبرعات غير المشروعة، بل إنها تُوزِّع على الجماعات الإسلامية ما تُصادره وتغتصبه ظلمًا من ممتلكات آلافِ المواطنين الأبرياء، فتجعل تلك الجماعاتِ مدمنة على المكاسب غير المشروعة والمِنح والتبرعات التي لم يحصلوا عليها بعَرَق جبينهم.

إن سلطة العدالة والتنمية اخترعت قيادة إسلامية ترفع مستوى سيطرتها على هذا التدين الشكلي الذي لا يحتاج إلى بذل مزيد من الجهد وتحمُّل المعاناة، وعلى الرغم من أن هذا الشكل القيادي لا يتمتع بتأثير ملموس في المنطقة، إلا أنه يمكن القول بأن له نوعًا من التأثير على الجماعات الإسلامية في تركيا "وبعض الجماعات المسيَّسَة في أنحاء العالم الإسلامي".

فهذه القيادة الإسلامية التي تم تطويرها في طبيعة أردوغان اللامبالية وكاريزماه الشخصية، تُزرَع في لاوعي الجماهير من خلال رسائل غير مباشرة ضُمّنت في المسلسلات المحلية التي تُموَّل من ميزانية الدولة. فمن جانبٍ تُعالَج هذه القيادة السياسية بشكل ضمني من خلال أمثال هذه المسلسلات التي ترعاها الدولة من أمثال "قيامة أرطغرل، والسلطان عبد الحميد الثاني" وغيرها من المسلسلات، ومن

إن أكثر المؤسسات التي أدت إلى الفساد الاجتماعي والأخلاقي في التاريخ الإسلامي هي في أغلب الأحوال السلطة الحاكمة والقوى السياسية. وأما المقاومة المعنوية والأخلاقية تجاه هذا الفساد فقد جاءت في معظم حالاتها من العلماء المدنيين.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

جانب آخر يتم التسويق لما تم تطويره في السنوات الأخيرة من هوية إسلامية قوامها شخصية فظَّة متنمرة. والحقيقة أن لكل هذه الجهود معنى رمزيًّا أبعد من ذلك، وهو إنتاج أحلام جديدة نحو الخلافة والعثمانية من خلال الرسائل المبطنة غير المباشرة، من ضخ صورة "رئيس شجاع وقوي" إلى أذهان العالم الإسلامي، وبالتالي فعندما نشاهد -بين حين وآخر- جماهير الناس وهم يتدفقون إلى الشوارع ملوِّحين بالأعلام التركية أو لافتات الجماعات الإسلامية، تحت شعار الاحتجاج ضد انقلاب ١٥ يوليو أو النضال من أجل الديمقراطية، فإنما يحملون في مخيلتهم مثل هذه الرمزيات والأحلام حيال الخلافة والعثمانية. والحال أن هذه الجماهير كانت إلى الأمس القريب تعارض بشدة الخطاباتِ التحررية والديمقراطية. فهذه هي النقطة التي وصل إليها التدين في غضون خمسة عشر عاما بأيدي سلطة حزب العدالة والتنمية الذي يزعم أنه إسلاموي، وهذا هو نتاج فهمهم للتدين.

والقارئ للتقرير الذي أعدته رئاسة الشؤون

nesemat.com نسمات nesemat.com

إن أبرز سمات المفاهيم الصوفية هو أن كلماتها ومصطلحاتها تُستخدم في أكثر من معنى واحد، إذ يلجأ أصحابها في عباراتهم كثيرًا إلى المجاز والتشبيه والاستعارة والرمز والإشارة والإبهام.

الدينية والذي تزعم أنه "علمي"، سيلمس في أسلوبه هذه اللغة الفظة التهميشية والإقصائية.

التحريف الذي قام به مُعدُّو التقرير

إن أبرز ما يلفت النظر في التقرير هو أن الذين أعدوه ركزوا في معظمه على مقالات الأستاذ فتح الله كولن ودروسه التي تحتوي على مصطلحات ومفاهيم صوفية؛ ومن المعلوم أن أبرز سمات المفاهيم الصوفية هو أن كلماتها ومصطلحاتها تُستخدم في أكثر من معنى واحد، إذ يلجأ أصحابها في عباراتهم كثيرًا إلى المجاز والتشبيه والاستعارة والرمز والإشارة والإبهام. ومن ذلك على سبيل المثال مصطلح: المعية والحضور والقرب والمحبة والمشاهدة والسر ونحوها، فهذه الكلمات إلى جانب معانيها اللغوية قد اكتسبت -من خلال التجربة العرفانية الإسلامية- معنى وعمقًا عرفانيًا خاصًا؛ ولا شك أن الأستاذ يستخدم هذه المفاهيم مراعيًا لمعانيها الصوفية.

إن لغة الأستاذ وأسلوبه يتغذيان من لغةٍ وثقافةٍ ثرية تحتوي وتمزج بين جميع البِنَى الأساسية للعلوم الإسلامية وعالَمها المفاهيمي وتصوراتها المستقبلية؛ فالأستاذ من العلماء الذين لهم باعٌ طويلٌ في جميع هذه التخصصات تقريبًا ومن ثمَّ فمن غير الممكن لمن يتجاهل المصطلحات وقواعدَ الخطاب لهذه العلوم أن يفهم ويناقش العبارات التي تُستخدم فيها هذه اللغة بشكل عميق وعلى نطاق واسع. ولكن العجيب هو أن أعضاء اللجنة العلمية التابعة للمجلس الأعلى للشؤون الدينية، الذين درسوا في التخصصات الإسلامية، في حين أنهم يزعمون أنهم أعدّوا تقريرًا علميًا، لم يتجشموا -على أقل تقدير- عناء الرجوع إلى الأسس الاصطلاحية والمفاهيمية لتلك العلوم الإسلامية، فبدلاً من أن يوجهوا نقدًا علميًا إلى خطاب الأستاذ الزاخر بهذا الكم الكبير من العبارات المستنِدة إلى المفاهيم والمصطلحات، نراهم اقتربوا منها منحصرين بلغة يستخدمها العوام في الخطاب اليومي. وبطبيعة الحال قد أدى هذا الصنيع بالدراسة إلى تشويه الخطاب الصوفي والعرفاني الذي يستخدمه الأستاذ، وهذا يعني أن هدف أعضاء اللجنة من التأكيد على ما في خطاب الأستاذ من المفاهيم الصوفية والعرفانية هو سهولة تحريف المفاهيم التي تستخدمها اللغة العرفانية على لسان العوام وأذهانهم.

والحال أن كثيرًا من علماء الصوفية وعرفائهم، بمن فيهم السَّرَّاج والقُشيري والحجوري والكلاباذي وأبو طالب المكي والإمام الغزالي، قد ألفوا كتبا تشرح التجربة الصوفية ومصطلحاتها، من أجل حماية التجربة الصوفية ومصطلحاتها من "عبث" علماء

"الظاهر" ومن بساطة لغة الكلام اليومي وتحريفاتها.

غاية ما أقوله هو أن أعضاء اللجنة على الرغم مما تراكم في هذا المجال من حصيلة ألف عام من المصطلحات والأدبيات والتراث، نراهم قد تغاضوا عنها وتعمَّدوا الخيانة العلمية تجاه التقاليد العلمية الإسلامية، من أجل تحريف تجربة الأستاذ الصوفية والعرفانية والتلاعبِ بها في نطاق اللغة اليومية.

والحال أن هناك تأليفًا موسوعيًّا جادًّا ومطبوعًا ألفه الأستاذ وتناول فيه العالَمَ المفاهيمي للمصطلحات الصوفية، وهذا الكتاب المسمى "تلال القلب الزمردية" يتناول تلك المواضيع التي يتهمون الأستاذ بها. ولكن من الغريب أنهم لم يقتبسوا ولو كلمةً واحدة من هذا الكتاب الضخم "البالغ أربع مجلدات"، لأن هذا الكتاب بالإضافة إلى رصانته وأسلوبه العلمي ينم عن مدى الاطلاع الواسع على الساحة، كما أنه تم تأليفه وإعداده بالاستناد إلى معاناة وخبرة عرفانية طويلة دامت أعوامًا طويلة مما جعله يتأبَّى على التشويه والتلاعب بسهولة. ويُلاحظ أن أعضاء اللجنة قد تهيبوا وتحاشَوا بأنفسهم -قصدًا- عن الخوض في غمار هذا الكتاب الجادِّ الذي بُني على قواعدِ أهل السنة والجماعة الرصينة وأُسُسِ علم الفقه والأصول والكلام والعقيدة. وهذا هو السبب في أن هذا التقرير برز عرضة للنقد من كل جوانبه، ونموذجًا واضحًا على الافتراء المتحيز والمتعمد، ومستنِدًا على الأحكام المسبقة والنوايا العدائية، والتحيز والعداء.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

أردوغان يستخدم منذ سنوات جميع ما يمتلكه من الإمكانيات البيروقراطية العملاقة المستنِدة إلى القوة والعنف لممارسة ما يشبه الإبادة الجماعية ضد أبناء الخدمة وعائلاتهم ومحبيهم وشخص الأستاذ كولن.

الأسس المفاهيمية العلمية والصوفية للأستاذ فتح الله كولن

أ- الإطار الذي تتمركز حوله شخصيته العلمية

ذكرنا آنفا أنه يوجد في تقاليد العلوم الإسلامية والعرفان الإسلامي والفكر الإسلامي ثلاثةُ أنظمة مرجعية ذات إطار إبستمولوجي، ولا شك أن الأستاذ فتح الله كولن شخصية علمية يمكن تعريفه من خلال هذا المركب الثلاثي من تقاليد العلوم الإسلامية. وبعبارة أخرى، فإن النظام المرجعي المعرفي الذي يقابل شخصيته العلمية في التصنيفات الثلاثية التي أجريناها هو صورة "العالِم والعارف والحكيم"، لذلك فكل كتاباته ودروسه ومحاضراته مرتبطةٌ ارتباطًا وثيقًا بهذه التقاليد المعرفية ونظامها العقدي والأخلاقي والعلمي واللغوي والمفاهيمي. فهو في كل مَواقفه وخطاباته يظل تابعًا لأصول هذه العلوم الثلاثة "الفقه والكلام والعرفان" على الأقل، ويراعي قواعدها التعبيرية والفكرية بدقة فائقة وبالتالي فليس من الممكن إخراج أقواله وكتاباته إلى خارج نطاق القواعد الأساسية للإسلام السني وتقاليده المعرفية، وتعريضُها لتشويه واضح

nesemat.com نسمات nesemat.com

إذا رجع القارئ المتحمس للحقيقة إلى الموسوعات والمعاجم المنشورة للاطلاع على المواد المرتبطة بالموضوع، أدرك جهد أعضاء اللجنة في التزوير وقراءة النوايا بدافع من الفساد الديني والأخلاقي.

أو تفسير شخصي يحرِّفها عن سياقها ومسارها.

وقلّما نجد في الشرق أو الغرب من الذين نشأوا في واحدة أو أكثر من الأنظمة المرجعية المعرفية للفكر الإسلامي مَن يستطيعون أن يستخدموا في جميع خطاباتهم وكتاباتهم الأسسَ العقدية والكلامية والأخلاقية والفقهية والعرفانية لهذه العلوم بكل دقة وحذر. وليس من الميسور لكل أحد أن يستخدم هذا الكم من التقاليد المعرفية بهذا المستوى من الدقة والحذر ضمن نظام خطاب بشكل شمولي وبهذه السهولة؛ فخطاب الأستاذ يستمد غذاءه من هذه المجموعة الواسعة من التقاليد الفكرية.

ويمكن الكشف عن هذا النظام المرجعي الواسع من خلال نبشٍ أثري ودراسةٍ فكرية مفصلة حول اللغة التي يستخدمها الأستاذ ونظام خطابه، ويمكن لكل من له دراية بالخطابات الفلسفية-الفكرية إذا تسنى له الاستماع لبضع دقائق إلى إحدى محاضراته، أن يلتقط ما يحمله خطابه من الأسس الفلسفية والفكرية والأخلاقية، ويفهمَ مدى اطلاعه على هذه المجالات.

ولكن بطبيعة الحال إذا أخذنا بعين الاعتبار أنه إلى جانب هذا كله شخصية تنحدر من تقاليدِ القيادة الاجتماعية والروحية والموعظة "بالمعنى السائد الذي يعني مجالس التزكية والمحادثات التثقيفية والتربية الروحية"، فعلينا أن نعلم بأن جميع محادثاته التي يلقيها لا تجري بأسلوب فلسفي وفكري بحت. فمن الممكن أن نلمس في خطاباته انعكاسات لمعظم أدوات الخطابة والموعظة التقليدية الإسلامية.

ومن دواعي الأسف أن أعضاء اللجنة عندما تناولوا أحاديث الأستاذ وكتاباته بطريقة مغرضة ومنظور عدائي، تجاهلوا قواعد التفسير والاجتهاد المتعلقة بهذه التخصصات الثلاث، ولم يراعوا المعايير العلمية والأخلاقية حتى في أدنى حدودها، كما أن هؤلاء الأعضاء بما قاموا به من التحريف وسوء الظن، لم يأخذوا بعين الاعتبار أيَّ أداة من أدوات "الوعظ" المستخدَمة في تقاليد الخطابة والوعظ.

ب- الإطار الذي تتركز عليه شخصيته الصوفية

إن الأستاذ لا ينحدر من تقاليد مشايخ التكايا والزوايا، ولكن شخصيته العلمية وحياته الشخصية زاخران بالتجارب العرفانية التي ترجع إلى أعوام طويلة، وقد عاش في أيام شبابه -على الأخص- تجارب عرفانية طويلة وعميقة، فالذين يعرفونه عن قرب يعلمون أنه إلى جانب معرفته العلمية الواسعة يتمتع بشخصية معنوية عميقة ومكثفة بمعنى أنه عندما يتحدث عن العالَم المفاهيمي للصوفية لا يتكلم من خلال الأدبيات المتعلقة بهذا المجال فحسب، بل يتحدث منطلِقًا من تجربة

روحية طويلة مرهقة ومليئة بالمعاناة.

ومن المعلوم أن العرفان الإسلامي يتكون من جانبين هما: الجانب النظري والجانب التطبيقي، وهذا يعني أننا عندما نتحدث عن "التصوف الإسلامي" فإنما نقصد به التجربة العملية المعنوية التي يعيشها الشخص في عالَمه الداخلي والمعنوي وفي شُعيراته الدموية، بالإضافة إلى الجانب المفاهيمي اللفظي والتخصصي الذي يعبِّر عن هذه التجربة في منهجية علمية. ولكن هذه الساحة بالنسبة لكثير من الأكاديميين المتخصصين في التصوف عبارة عن مجرد تخصص علمي يركز على الجانب اللفظي فقط، لأن الجانب العملي العميق من التصوف -للأسف- يكاد يكون من الأمور التي عفا عليها الزمن، وصار جزءًا من التاريخ.

وعلى الرغم من أن التجربة الصوفية قد حافظت على وجودها من خلال تقاليد الطرق الصوفية إلى العصر الحديث، فإنه لا يمكن الحديث بسهولة "في تركيا بالأخص" عن تجربة طريقة صوفية ثرية قادرة على استخدام جميع البنى التحتية المفاهيمية التي اطلعنا عليها من خلال ما وصل إلينا من الأدبيات الصوفية. ومن الممكن مناقشة مدى كفاية كثير من المشايخ والمرشدين الذين يواصلون تقاليد التكايا والزوايا "في تركيا على وجه الخصوص"، كما أنه من الصعب الحديثُ عن اطلاعهم الواسع وأهليتهم في العلوم الظاهرة والباطنة، فهناك المئات من المشايخ "في بلادنا" غافلون عن العلوم الظاهرة، بل إن منهم من يعجزون عن تفسير الفاتحة بل قراءتها قراءة صحيحة، ناهيك بممارستهم ومعاناتهم لتلك التجارب الروحية العميقة الواسعة المرهقة، بل إنهم ليس لديهم اطلاع واسع حتى على الجانب النظري والحرفي من هذه الساحة.

وليس في كلامي هذا ما يشير ولو ضمنا إلى شخصٍ بعينه ولا إلى طريقة صوفية بعينها بأي شكل من الأشكال، ولكنَّ إلقاء نظرة عابرة إلى ما وقع في سوق اليوتيوب من مقاطعِ الفيديو المتضمنة لحلقات الذكر والدرس التي ينظمها هؤلاء المشايخ، سيكون كافيا لإعطاء فكرة عن الأزمة الروحية والأخلاقية التي سقطت فيها مؤسسة "الطريقة" في عصرنا.

إن جميع الطرق تقريبًا في بلادنا "تركيا" من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب لا ترى بأسًا في أن تَعرِض مَحارمَها من حلقات ذكرها ومجالسها العرفانية على واحدة من أقسى أدوات السوق الرأسمالية الحديثة: "اليوتيوب"، ومن المفارقة أن اللجنة العلمية القيِّمة التابعة لرئاسة الشؤون الدينية والمكلَّفةَ بحماية الدين والعلوم الدينية وتطويرِها، تعمِد إلى دروس الأستاذ المطابِقة تمامًا للقواعد العلمية والأصول

الأستاذ كولن في كل مَواقفه وخطاباته يظل تابعًا لأصول "الفقه والكلام والعرفان"، ويراعي قواعدها التعبيرية والفكرية بدقة فائقة، فلا يمكن إخراج أقواله وكتاباته عن نطاق القواعد الأساسية للإسلام السني وتقاليده المعرفية.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

nesemat.com نسيمات nesemat.com

لقد كان الأستاذ يحاول في مقالاته التي كتبها لسنوات عديدة في مجلة سيزِنْتِي أن يتناول المفاهيم التي استخدمها الصوفية في مؤلفاتهم، ويعالجَها في ضوء قواعد العلوم الإسلامية وأصولها، ويشرحَها وفقًا لتجاربه وإحساساته الروحية.

العرفانية، فتأخذ منها مقاطع مبتورة من سياقها لتجمع منها أفكارًا صوفية ضالة، في حين تظل صامتة تجاه ما تتعرض له هذه المؤسسات التاريخية والمحاضنُ التربوية الروحانية من ابتذال وتسويق في الأسواق الشعبية.

لقد كان الأستاذ يحاول في مقالاته التي كتبها لسنوات عديدة في مجلة سيزِنْتِي (Sızıntı) أن يتناول المفاهيم التي استخدمها الصوفية في مؤلفاتهم، ويعالجَها في ضوء قواعد العلوم الإسلامية وأصولها، ويشرحَها وفقًا لتجاربه وإحساساته الروحية، وقد نُشِرت هذه المقالات في سلسلة كتب تسمى: "تلال القلب الزمردية". وقد استَوعب هذا العمل الموسوعي جميع المصطلحات الصوفية تقريبًا، ولكنه لم يَحصر تلك المفاهيم والمصطلحات في سياقها التاريخي فقط، بل مَزَجَها بما لديه من سطلة علمية واطلاع علمي واسع، بالإضافة إلى تجربة قريحته المعنوية وممارساته، فقام بتحديثها أيضًا إن صح التعبير.

ولو قُدِّر لهذا العمل أن يُنجَز قبل ثلاثة أو أربعة قرون، لكُتب عليه العشرات من الشروح والحواشي، لأن النصوص العرفانية قابلة بطبيعتها للشروح والحواشي. ولو أن اللجنة العلمية التابعة للشؤون الدينية بتركيا استطاعت أن تنأى بنفسها عن التحرك بدافع من الكراهية والافتراء، لِتقتربَ من الموضوع من منطلق علمي وأخلاقي، لاستطاعت أن تجد في هذا العمل الموسوعي ما يُلقي الضوء بكل وضوح على تلك المثالب التي تزعم أنها اطلعت عليها في دورس الأستاذ ومقالاته التي اقتطعتْها من سياقاتها وبتَرْتْها من فكرتها الرئيسية.

إن السمة الأساسية لهذا العمل هي أن المؤلِّف عندما عالج "العرفان الإسلامي" تَناوَله وشرَحَه من منظور كلي يشمل سائر التخصصات الإسلامية (وعلى وجه الخصوص الفقه والأصول والكلام)، بمعنى أن هذا العمل في هذا العصر وكأنه نسخة معاصرة للرسالة القشيرية للقشيري، واللُمَع للسرَّاج، والتعرف للكلاباذي، وكشف المحجوب للحجوري. فهو يؤصل للتجربة العرفانية الإسلامية من خلال الجمع بينها وبين سائر العلوم والتخصصات عند أهل السنة والجماعة. والسبب في مقارنتنا هذه معلوم لدى أهل الفن؛ فمن المعلوم أن التجربة الإسلامية الصوفية عاشت في تاريخها بين حين وآخر حالة فصام أخلاقي ومعرفي بينها وبين تخصصات العقيدة والكلام والفقه؛ فأصبحتْ في كثير من الأحيان مدار انتقادات واتهامات علمية بل وشعبية بدافع الحاجة إلى تصحيح بعض أفكارها وممارساتها التي اعتُبرت خارج الحدود المقبولة، فقد أُلفت الكتب التي سردنا أسماءها آنفًا من أجل إعادة إنشاء أدبيات

"العرفان الإسلامي" الذي تَعرَّض للانحرافات المعرفية والأخلاقية والعقدية، حتى يتم تصحيح مساره وإعادةُ ربطه بفهم أهل السنة والجماعة وما لهم من النظام المعرفي الكلامي. فسلسلة "تلال القلب الزمردية"، هي أيضا قد أُلِّفت بالدوافع المشابهة لتلك، وأرى أمانة للبحث العلمي أن أنقل عن أحد تلاميذ الأستاذ الذين لازموه أثناء كتابة هذه المفاهيم وهذه العبارات: "لقد تمت كتابة كل واحد من تلك المصطلحات في جوٍّ مشحونٍ بألفِ معاناة ومعاناة روحية، ونتيجةً لتأملات داخلية عميقة ودقيقة للغاية، ولقد عشنا مرارًا وتكرارًا في تلك الأيام التي كان الأستاذ يكتبها مدى انعكاس أجوائها على نفسية الأستاذ وأطواره وحالته الروحية، وكيف أنها كانت تُلْقِي بظلالها على أسلوبه في الجلسات الروحانية والحلقات العلمية التي كان يعقدها مع تلاميذه وأصحابه في نطاق ضيق.

وأعني بذلك أن الأستاذ عندما تناول هذه المفاهيم لم يتعامل معها بمجرد تفسيرها تفسيرًا حرفيًّا والوقوفِ عند حدود الألفاظ والتراكيب، بل فَسَّر كل مصطلح في جوٍّ مشحونٍ بمشاعر المراقبة الجادة والتأمل العميق. ولقد شاهدنا مرارًا بكاءه المتواصل لأيام عديدة جرَّاء تأثره بهذه المصطلحات، فمهما كان هناك مصطلحات تبدو وكأنها مدخل من مداخل أيٍّ موسوعة، إلا أنها بسبب كونها متعلقة بالصفات الإلهية وأسمائه وذاته العلية، كانت تثير في روح الأستاذ حالةً مثيرة للعجب من الحذر والانتباه الشديد واليقظة البالغة"، وبالتالي فإنا نستطيع القول بأن هذا العمل يُقدِّم لنا صورة متواضعة ولكن حية عن "العرفان الإسلامي" المؤسَّس على قواعد سائر التخصصات الإسلامية الأخرى، ويقدم لنا نموذجًا يثبت مدى إمكانية تطبيقه بعمقه الكامل في العصر الحديث أيضًا.

"تلال القلب الزمردية" تأليفٌ موسوعيٌّ جادٌّ ومطبوعٌ ألفه الأستاذ وتناول فيه العالَمَ المفاهيمي للمصطلحات الصوفية،وقد تم تأليفه وإعداده بالاستناد إلى معاناة وخبرة عرفانية طويلة دامت أعوامًا طويلة.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

بعض المفاهيم الصوفية التي بَتَرَها تقرير الشؤون الدينية عن سياقها وحرَّفها

إن أكثر المواضيع والمفاهيم التي تعرضت للتشويه هي الكلمات التي يستخدمها الأستاذ من المفاهيم العرفانية والمصطلحات المستخدمة في الأدبيات الصوفية، مثل: المشاهدة، الحضور، الكشف، الرؤيا، المعية، القرب، السر، الغيب، التجلِّي، الإنسان الكامل، الاتصال بالشخصية المعنوية للرسول ﷺ. وكما ذكرنا آنفا: إن التجربة الصوفية في معظمها تجربةٌ معنوية قلبية وحاليَّة، وبما أن لسان الظاهر لا يكفي في كل وقت للتوضيح والتعبير بشكل تام عن هذه التجربة العميقة، لجأت الصوفية في كثير من الأحيان إلى استخدام الوسائل الأدبية مثل الرمز والإشارة والتشبيه والمجاز والشعر، فعندما يقول

هدف أعضاء لجنة الشؤون الدينية من التأكيد على ما في خطاب الأستاذ من المفاهيم الصوفية والعرفانية هو سهولة تحريف المفاهيم التي تستخدمها اللغة العرفانية على لسان العوام وأذهانهم.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

جلال الدين الرومي: "إن لسان الظاهر هو العقل، ولسان الباطن هو الذوق" فإنما يعني أن هذه التجربة ممارسة حاليَّة وذوقية. ولم يزل الصوفيون منذ رعيلهم الأول يبحثون عن سبل لنقل التجربة التي عاشوها إلى الآخرين، لأن التصوف في فتراته الأولى لم يكن منهجيًّا ومنضبطًا مثل أي تخصص آخر، إذ كان لا يزال يعيش مشكلة المشروعية، بمعنى أن الصوفية كانوا من ناحية يبحثون عن حلٍّ لمشكلة المشروعية، ومن ناحية أخرى كانوا يريدون أن يصوغوا نظامًا تعبيريًّا يستوعب تجربتهم العرفانية ويمكِّنهم من نقلها إلى الآخرين بشكل مفهوم. وقد كان علماء الصوفية في القرن الرابع الهجري يتوخون من وراء مصنفاتهم التغلب على هاتين المشكلتين، فقد كتب السَّرَّاج، والقشيري، والحجوري، والكلاباذي مؤلفاتهم بأسلوب مفاهيمي حتى يتمكنوا من تأسيس مشروعية التصوف على قواعدِ أهل السنة والجماعة، بالإضافة إلى وضع تعبيرات يستطيعون من خلالها نقل هذه التجربة الحاليَّة والذوقية إلى الآخرين بلغة مفهومة.

والواقع أن التصوف على الرغم من تأخره قليلاً بالمقارنة مع سائر التخصصات الإسلامية الأخرى، لكنه مع ذلك نجح في تأسيس لغته ومنهجيته ونظامه المفاهيمي، ومن المؤكَّد أن لغة التجربة الصوفية وعالَمها الذهني والمفاهيمي لم تتوقف عند ذلك العصر، بل إن الصوفية من أمثال الغزالي وابن عربي وتلاميذهما قاموا بتطوير لغة هذه التجربة وتوسيعها، ووضعوا أوسع تجاربهم وإنجازاتهم في حقل "العرفان الإسلامي".

وقد انتشر بعد الغزالي استخدام "العالِم العارف" في الأدبيات الصوفية، بينما شاع بينهم وانتشر بعد ابن عربي شخصية "العالِم العارف الحكيم"، وهذا يعني أننا نستطيع القول بأن الإسلام قد استقرت قواعده على ثلاثية: "العلم-العرفان-الحكمة".

إننا لا نستطيع أن نفهم ونفسر العبارات والمفاهيم الصوفية الميتافيزيقية الصعبة المعقدة التي تكونت في مدة تزيد على ألف عام (من الرموز والإشارات والمجاز والتشبيه بل والشطح) إلا من خلال الاطلاع على هذه التقاليد والأدبيات، وعلى الرغم من أنها أدت أحيانًا إلى بعض الإشكالات، فإنه لم يتسن حل لغة التجارب الصوفية وفهمها إلا في قوالبِ تقاليدهم العلمية. ويمكن القول بأنه لو لم تكن لهذه التقاليد معالمها ورموزها العلمية والأخلاقية والعقدية واللغوية والذهنية لما أمكن السيطرة على التجربة الصوفية الواسعة والحفاظُ عليها في حدود مشروعية الإسلام السني، أما في عصرنا هذا فلم يعُد من الممكن ممارسة تجربة

عرفانية صحيحة ولا التعريفُ بها مع تجاهل هذا التراث المعنوي الطويل.

إن الإنسان قد يعيش الإسلامَ في أدق تفاصيله ولكنه لن يستطيع أن يصف تجربته العميقة هذه بلغة ظاهرة إلا في حدود تقاليد الإسلام العلمية والعرفانية والحِكْمية؛ فأيُّ تجربة لا تتوافق مع تفسيرات هذه التقاليد وقواعدها التعبيرية فإن مشروعيتها ستكون معرَّضة للنقاش ومثارًا للشكوك.

وكذلك الأستاذ فتح الله من حيث إنه يتمتع -لا محالة- بشخصية "العارف" و"الحكيم" أيضًا فإنه يستخدم كل الوسائل المعنوية الذوقية والحاليّة واللغوية التي نشأت في النظام المرجعي للعرفان الإسلامي التقليدي، كما أن آفاقه العرفانية تستوعب كلاً من الجانب التطبيقي لهذا النظام المرجعي المعنوي، وبُعدِه اللغوي-الكتابي. صحيح أن الأستاذ شأنه كشأن سائر الخطباء صدرت منه حالات حماس وجيشان، وتعبيرات عاطفية متدفقة، ولكن لم تصدر منه قطعًا تعبيرات تُشَمُّ منها رائحة الحلول والاتحاد مثل ما كان يجري على لسان بعض الصوفية في الماضي من شطحات، بل إنه حتى في مثل هذه اللحظات الهائجة المائجة لم يتفوه بجملة واحدة تتصادم مع الكتاب والسنة وما تأسس عليهما من قواعد أهل السنة والجماعة العقدية والكلامية، والمبادئ الفقهية، والمعايير العرفانية. فهو شخصية "عالِمةٌ-عارفة-حكيمة" أخذت في كل ممارساتها ودروسها وخطاباتها أقصى درجات الحذر والحيطة بعين الاعتبار.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

كل من له دراية بالأدبيات الصوفية يعلم أنهم قد استندوا في تصورهم عن الله ﷻ إلى تعبيرات قريبة ومألوفة وغير متعالية، بدلاً من تصور يتعذر الوصول إليه كما فعل أهل الفقه والكلام.

إن معظم الألفاظ التي تناولها "التقرير" ليست من قبيل المفاهيم الصوفية الخطيرة ذات الشحنة العالية، بل إنها مفاهيم وتعبيرات عرفانية يكاد عوام الناس يستخدمونها في لغة الحياة اليومية، بالإضافة إلى أن كلاً منها إما تفسيرات مستندة إلى نص قرآني صريح أو رواية نبوية وإما اقتباسات عن الأدبيات الصوفية السنية، ولكلٍ مِن تلك المفاهيم في تقاليدنا العرفانية تاريخ يستند إلى ما يقرب من ألف عام.

وهذا يعني أنه لا حاجة -من أجل فهم معاني تلك المفاهيم فهمًا صحيحًا- إلى تفكير عالٍ للرقي إلى عالَم رمزيات التصوف ومجازاته، ولا إلى بذلِ مزيد من الجهد لتأويلها أو تفسيرها.

أجل، كثيرًا ما تتكرر في خطابات الأستاذ وكتاباته المفاهيمُ الصوفية والعرفانية من أمثال: المشاهدة، القرب، المعية، السر، الحضور، الأنس، الوصال، الزهد، الفقر، المحاسبة، المراقبة، المحوية، التواضع، المسامحة؛ لأن الأستاذ كلما تطرق إلى موضوع فقهي أو اجتهادي أو حدث يومي أو مسألة علمية فإنه يتطرق إلى جانبه الأخلاقي والمعنوي، ولذلك يجد المستمع إليه في جلساته ودروسه دائما الذوقَ العرفاني

nesemat.com نسمات nesemat.com

إن لجنة الشؤون الدينية تحاول أن تستخرج من هذا الكيان المتواضع والمعنوي فوضى معنوية وأخلاقية والأسوأ أنها حرَّفت المفاهيم العرفانية التي أنتجتها التجربة الصوفية الإسلامية التقليدية عن مسارها وسياقاتها.

الصوفي، وليس هذا محصورًا في طريقة حديثه وأسلوبه، بل هو طريقته وأسلوبه في الحياة أيضًا.

إن الأستاذ شخصية "عالمة-عارفة-حكيمة"، ونلمس دائمًا آثار هذه الأمور بشكل صريح أو ضمني في محادثاته وتصرفاته، ومنذ أربعين عامًا لا يزال يتردد إليه عدد كبير من المثقفين والعلماء والمفكرين وشخصيات من عالم الأدب والفن، بل والسياسة. والأستاذ -كما عبر كثير منهم- ليس ذا يد طولى في العلوم الظاهرة فقط، بل إنه يتمتع بهوية روحية وأخلاقية وميتافيزيقية عميقة. وعلى العكس من ادعاءات لجنة الشؤون الدينية، لم يَدَّعِ أحدٌ ممن زاره من هذا العدد الكبير من زائريه أنه صدر منه قولٌ أو فعلٌ يتنافى مع الموازين العقلية والأسس العقدية والمبادئ الأخلاقية والإسلامية. كما أنهم لم يلمسوا فيه أي إيماءة تدل على الكبر والغرور، ولا بأي نوايا مبطنة حول ترؤس أي جمهور وقيادتهم. ولكن يا للمفارقة! لقد شعرت لجنة رئاسة الشؤون الدينية بما لم يشعر به الآلاف بل الملايين من الناس (بمن فيهم رئيس الشؤون الدينية)، وفاجأتنا باكتشافها عشرات من المثالب العلمية والعقدية والأخلاقية ونقاط الضعف الشخصية.

ولم يحدُث إلى الآن أن انزعج أحد أو تضرر من هذه اللغة وهذا الأسلوب العرفاني المعنوي المكثف، إلى أن جاءت هذه اللجنة فحكمت بتضرر الملايين من محبيه تضررًا معنويًّا وعقديًّا.

وهل كان لأفراد هذه الجماعة الضخمة البالغ أعدادهم الملايين أن يصبروا هذا الصبر الأخلاقي ويعكسوا هذا الكمال الإنساني تجاه ما انهالت على رؤوسهم من هذا الكم الهائل من أشكال الظلم والقمع والتعذيب والافتراءات والأكاذيب والمؤامرات التي حاكتها لهم البؤر السياسية العميقة، لولا أنهم تدربوا تحت إرشاد الأستاذ وتنورت عقولهم وأذهانهم بتوجيهاته العلمية والمعنوية والأخلاقية السامية؟!

إن لجنة الشؤون الدينية تحاول (وفقا للمهمة التي وُسِّدت إليها) أن تستخرج من هذا الكيان المتواضع والمعنوي فوضى معنوية وأخلاقية، والأنكأ للجرح أنها إذ أدت مهمتها هذه قامت بتحريف المفاهيم العرفانية التي أنتجتها التجربة الصوفية الإسلامية التقليدية عن مسارها وسياقاتها.

وكان بإمكان اللجنة المكلفة بإعداد التقرير أن تكتفي بمراجعة الموسوعة التي أعدتها رئاسة الشؤون الدينية للاطلاع على المعاني الاصطلاحية التي تعنيها مفاهيم مثل: المشاهدة، القرب، الأنس، المعية، السر، الحضور، الوصال، في الأدبيات الصوفية، ناهيك بمراجعة المراجع الصوفية التقليدية، أو

معاجم المصطلحات المتخصصة؛ فأعضاء "الهيئة العلمية" المحترمون عندما حرفوا هذه المصطلحات الصوفية التي استخدمها الأستاذ، تعمدوا أن لا يرجعوا حتى إلى الموسوعة التي أعدتها المؤسسة التي يتبعون لها، وبدلا من ذلك لجأوا إلى أسلوب سوقي مبتذل، بطريقة قراءة النوايا وتحميل عباراته معاني لم يقصدها، بشكل يتنافى مع المبادئ الأخلاقية والعلمية. فإذا تفضَّل القارئ المتحمس للحقيقة بالرجوع إلى الموسوعات والمعاجم المنشورة على الإنترنت للاطلاع على المواد ذات الصلة بالموضوع، فهم مدى الجهد الذي بذله أعضاء اللجنة في التزوير وقراءة النوايا بدافع من الفساد الديني والأخلاقي. والحال أن هذه المفاهيم هي من قبيل المفاهيم التي اندرجت في الأدبيات العرفانية في بدايات القرن الثاني الهجري التي كانت المفاهيم الصوفية حينها في أولى مراحل نشأتها، ومعظم هذه المفاهيم تعابير معنوية وحاليّة وذوقية تفسر القرب من الله ﷻ في إطار العبودية الكاملة لله تعالى وحياةٍ مشحونة بالزهد في الدنيا ومتاعها. وإذا قمتم بتكييف التجربة التوحيدية التي يعيشها العارف وترجمتِها إلى لغة الذوق والحال، فإن المفاهيم التي ستخرج أمامكم هي: المشاهدة، والقرب، والأنس، والمعية، والحضور وأمثالُها وما يقابل كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) هو قولهم: "لا مشهود إلا هو". فليس همُّ الصوفية مجرد أن يجعلوا اللسان يقر بكلمة التوحيد ويجعلوا القلب يصدّق بها، بل هدفهم -إلى جانب

لم يَدَّعِ أحدٌ ممن زار الأستاذ من هذا العدد الكبير أنه صدر منه قولٌ أو فعلٌ يتنافى مع الموازين العقلية والأسس العقدية والمبادئ الأخلاقية والإسلامية. كما أنهم لم يلمسوا فيه أي إيماءة تدل على الكبر والغرور.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

ذلك- أن يضعوا هذه الحقيقة في مركز تصورهم حول جميع الكون باعتبارها ذوقًا روحانيًا.

ويمكن أن نلاحظ هنا أن الصوفية قد وصلوا إلى تصور ميتافيزيقي جديد وواسع حول الوجود، بمعنى أنهم لا يكتفون بما فعله الكلاميون في بيان العلاقة بين الله-الوجود-الإنسان، من وصف الله ﷻ بـ"الخالق" فحسب، فيقولون: "صحيح أن الله تعالى هو القدرة الخالقة الوحيدة، ولكنه في الوقت ذاته حقيقة كل شيء". وهناك فرق بين أن يكون "خالقَ كل شيء"، وبين أن يكون "حقيقةَ كل شيء". ويقول الصوفيون: "إنكم إذا قلتم: "إن الله حقيقةُ كل شيء" تكونون قد دخلتم في مجال العرفان الحقيقي والتوحيد الذوقي". فهذا هو المعنى العرفاني الذي حمَّله الصوفيون على مفهوم التوحيد: أن تشاهد الله ﷻ بذوقك باعتباره حقيقة كل شيء، فما دام "السالك" حبيس حدود العقل والتوحيد الكلامي فلن يتمكن من الانفتاح إلى التوحيد الشهودي والذوقي، ولذلك ينبغي للصوفي أن يتخطى حدود الإدراك العقلي والحسي، ليتوصل إلى إمكانيات الإدراك الذوقي والعرفاني التي ليس لها حدود. فلا يمكن التوصل إلى الإدراك

كثيرًا ما تتكرر في خطابات الأستاذ وكتاباته المفاهيمُ الصوفية والعرفانية، لأنه كلما تطرق إلى موضوع فقهي أو اجتهادي أو حدث يومي أو مسألة علمية تطرق إلى جانبه الأخلاقي أيضًا، وهذه طريقته عمومًا.

nesemat.com نسمات nesemat.com

الذوقي والعرفاني بالاستدلال والاستخراج والاستنباط وأمثالهما من الأدوات العقلية والمنطقية، وإنما يمكن التوصل إليه بإمكانيات القلب والروح الشهودية.

فعندما تعاملت اللجنة المكلفة بإعداد هذا التقرير مع المفاهيم التي استخدمها الأستاذ من أمثال: المشاهدة، القرب، الأُنس، المعية، السر، الحضور، الوصال وأمثالها تجاهلت عمدًا المعانيَ اللغويةَ والاصطلاحيةَ والعرفانيةَ لهذه المفاهيم، ولكن الأمر الذي تجاهلته في الحقيقة هو كون هذه المفاهيم عرفانية أساسية بَنى عليها الصوفية تصورهم عن التوحيد، فلولا هذه المفاهيم لما كنا نتمكن من الفهم الحقيقي لمفهوم التوحيد ولا الذوق ولا الشهود ولا غيرها من الأفكار الأساسية في التصوف الإسلامي.

والحال أن جميع هذه المفاهيم تقريبًا قد استُخرِجت من نصوص القرآن وألفاظه، بمعنى أنها تعد مفاهيم قرآنية، فكل من له دراية بالأدبيات الصوفية يعلم أنهم عندما عبروا عن تجاربهم ووضعوها في القوالب اللفظية، قد استندوا في تصورهم عن الله ﷻ إلى تعبيرات قريبة ومألوفة وغير متعالية، بدلاً من تصور يتعذر الوصول إليه كما فعله أهل الفقه والكلام فإن الله تعالى قد وصف ذاته في القرآن الكريم بأنه أقرب إلينا من حبل الوريد. فهناك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾(ق:١٦). وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(الحديد:٤). وغيرها من عشرات الآيات التي استشهد بها الصوفية.

صحيح أن بعض هذه الآيات يمكن تصنيفها في ضمن الآيات المتشابهة وبعضها الآخر في ضمن التعبيرات المجازية، ولكن اللغة الصوفية قد طوَّرت أساليب وأدوات وأصولاً تستعين بها على تفسير هذه التعبيرات المجازية بشكل لا يتعارض مع المبادئ الكلامية والعقدية السنية. والحقيقة أنه ليس هناك صوفي يريد -عندما يستخدم هذه التعبيرات- أن يتصور الله تعالى بتجسيم ظاهر، بل إنه يحاول التعرف إلى الله تعالى والتعبيرَ عنه في حدود التشبيه والتنزيه ومبادئهما التي وَضع العرفان الإسلامي مناهجها.

إن علم الكلام انطلاقًا من شدة حرصه على التنزيه قد بالغ في الأمر فقام بتجريد "تصوُّر الإله وجعله أمرًا نظريًّا"، في حين أنه نشأ في صفوف الصوفية تيارات وشخصيات قدَّموا تصورًا عن الله ﷻ المتجلي في الوجود بعلمه وإرادته وقدرته وإحسانه.

ومع أن هذه الظاهرة تسببت في مناقشات لا

زال لهيبها مشتعلاً في بعض التيارات إلى يومنا هذا فإنها بالمقابل أدت إلى نشوء أدبيات ضخمة للتأليف بين هذين المنظورين المختلفين (الظاهر-الباطن)، وإيجاد تصور وتفسير مشترك يوحِّد الكلمة بين هذين التيارين. ورغم كل هذه الأدبيات العملاقة التي تكوَّنت نتيجةَ الجهود الرامية إلى تقارب الرؤى وإيجادِ تفسير مشترك بين هذين التيارين لم يزل هناك مِن أصحاب السلطة العلمية مِن الفقهاء والمتكلمين مَن تعصبوا للحفاظ على ظواهر النصوص وحدودها، وبالمقابل كان هناك في صفوف الصوفية الذين كانوا يعيشون تجارب مبالغًا فيها مَن كانوا يتصرفون وكأنهم يتحدَّون ظواهر النصوص الشرعية فاستخدموا تعبيرات وقاموا بادعاءات تُوهِم بالحلول والاتحاد. وفي الخط الممتد من منصور الحلاج إلى ابن الفارض وابن السبعين، ومن النسيمي الشاعر إلى نيازي المصري، ومن السشتري وابن عربي إلى يونس أَمْرَه وجلال الدين الرومي قُدمت نماذج رائعة من الشعر الصوفي طُوِّر فيها فهم توحيدي مختلف مشحون بمشاعرِ العشق والفناء. ومع هذا الضغط الكبير لاقى التصوف الإسلامي قبول الأمة الإسلامية[٣].

إن التجربة الصوفية الإسلامية تستدعي مستوى عاليًا ومختلفًا من المعرفة والمشاعر. وأعتقد أن هذا الجانب العرفاني العميق لـ"فتح الله كولن" يستحق دراسة مفصلة، وأي تحليل مصطلحي للصوفية، لا يستطيع التعبير عن مثل هذه التجارب الروحية تعبيرًا وافيًا. قد يمكن لي -كدارس متخصص في العلوم الإسلامية- أن أتحدث عن بعض جوانب الأستاذ كولن العلمية المتميزة في العلوم الإسلامية، وقدرته البارعة في تحليل المعاني والاجتهاد والتفسير، لكني لا أعتقد أنني أستطيع قول شيء حول مدى عمق تجربة الأستاذ كولن الروحية. فهو من الناحية الشخصية مسلم سنِّي عادي يعيش ضمن جو روحاني عالٍ، ويعرف كل القريبين منه بأن من لا يملك سعة وغنى في القلب والروح والذهن، لا يتحمل مشاركته في عالم المشاعر هذه، ولا يصمد على هذا المستوى مدة طويلة. وخطابه للقريبين منه والموجودين حواليه يتضمن إيقاعًا معنويًّا عميقًا. فطراز حياته المتسم بالحساسية، وعلاقته بالموجودات، بل حتى علاقته الجمالية بالمكان المحيط به، يقدم صورة عن جانبه العرفاني العميق. ■

الهوامش

(١) نشرت رئاسة الشؤون الدينية التركية في ١٤ يوليو ٢٠١٧م تقريرًا بعنوان "تحليل أربعين عامًا لحركة كولن" امتلأ بمزاعم عديدة ضد حركة الخدمة ورائدها الأستاذ فتح الله كولن خلال الأربعين عاما الماضية. تزامنًا مع الذكرى الأولى لمحاولة الانقلاب الفاشلة، وقد صدر هذا التقرير بناء على تعليمات رئاسية صدرت من رئيس الجمهورية إلى رئاسة الشؤون الدينية، ضمن الحملة الموسَّعة التي بدأها أردوغان ضد حركة الخدمة في كافة القطاعات منذ عمليات الفساد في ديسمبر ٢٠١٣م، ثم زادت وتيرتها وتصاعدت حدتها عقب محاولة الانقلاب المشؤومة في يوليو/تموز ٢٠١٦م. (المحرر)

(٢) يقصد بالعلماء المدنيين أو العالم المدني في المقال العلماء المستقلون عن السلطة، أو العلماء غير الرسميين وغير المنخرطين في الإدارة أو السلك البيروقراطي. (المحرر)

(٣) الترجمة عن التركية: صالح جمال أوغلو.

نسمات

دراسات حول مشروع الخدمة
إصدارة علمية بحثية متخصصة
www.nesemat.com

جميع الحقوق محفوظة، ولا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو نقله بأي شكل أو بأية وسيلة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير الفوتوغرافي أو التسجيل أو وسائل تخزين المعلومات وأنظمة الاستعادة الأخرى بدون إذن كتابي من الناشر.

إعداد وإشراف
صابر المشرفي

اللجنة الاستشارية العلمية
د. محمد إقبال عروي
د. محمد جكيب
د. سعيد بويزري
د. محمد باباعمي
د. أبو زيد عبد الرحيم
د. هدى درويش
د. سليمان الدقور
د. باسم عيتاني
د. جمال السفرتي
د. فؤاد البنا
د. عبد الله الدعجاني

تصميم فني
نور الدين محمد

غلاف
محمد أشرف

البريد الإلكتروني
nesemat@yahoo.com

القاهرة - مصر

نسمات

إصدارة علمية بحثية متخصصة

نسمات إصدارة علمية بحثية متخصصة في دراسة مشروع الخدمة والرؤية الإصلاحية للأستاذ فتح الله كولن في أبعادها الفكرية وتجلياتها التطبيقية. وهي تندرج في إطار الأعمال البحثية الميدانية المتخصصة في ظاهرة اجتماعية ما، تسلط الضوء عليها، وتسبر أغوارها بعمق، وتكشف عن حيثياتها ومآلاتها، وتعقد صلتها بخبرة الماضي، وتدرس فاعليتها في الحاضر، وتستشرف امتدادها في المستقبل، لتخرج بنتائج علمية تشكل إضافة نوعية إلى المعرفة الإنسانية والخبرة البشرية.

يهدف مشروع نسمات إلى سبر أغوار نموذج الخدمة والرؤية الحضارية للأستاذ فتح الله كولن ودراستها من زوايا شتى، سواء من الناحية النظرية الفكرية، أو من الناحية العملية التطبيقية. ومن ثم تحث الباحثين في المجال الفكري الحضاري على السعي معها في هذا المضمار، وترحب بكل عمل جاد يساعدها على تحقيق مبتغاها.

شروط النشر

- أن تكون المشاركة جديدة لم يسبق نشرها.
- أن تكون دراسة متصلة بمشروع الخدمة وفكر الأستاذ فتح الله كولن.
- أن تكون المشاركة إسهاما إيجابيا مثريا، تشكل إضافة نوعية في القراءة والنقد والتحليل وتتوافق مع المعايير العلمية المعروفة.
- ألا تقل عن ١٥٠٠ كلمة وألا تزيد على ٧٠٠٠ كلمة.
- أن يرسل الباحث ملخصا لمشاركته في حدود ٢٥٠ كلمة.
- تخضع المشاركات المعروضة للنشر لموافقة لجنة استشارية علمية، وللجنة العلمية أن تطلب من الباحث إجراء أي تعديل على المشاركة قبل إجازتها للنشر.
- هيئة التحرير تلتزم بإبلاغ أصحاب المشاركات بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ هيئة التحرير بحقها في نشر المشاركات وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- المشاركات التي تنشر في نسمات تعبر عن آراء كتابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.
- لـ«نسمات" حق إعادة نشر المشاركات منفصلة أو ضمن مجموعة من الأبحاث، بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أي لغة أخرى دون حاجة إلى استئذان صاحبها.
- نسمات لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.
- يرجى من الباحث أن يرفق مع المشاركة نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية مع صورة واضحة مناسبة للنشر.
- يرجى إرسال جميع المشاركات إلى العنوان الآتي: nesemat@yahoo.com

كيف نفهم روح القرآن؟

كيف نحسن تنزيل معانيه الخالدة إلى حياتنا المعاصرة؟

مدخل إلى عالم القرآن الذهبي..

جديد

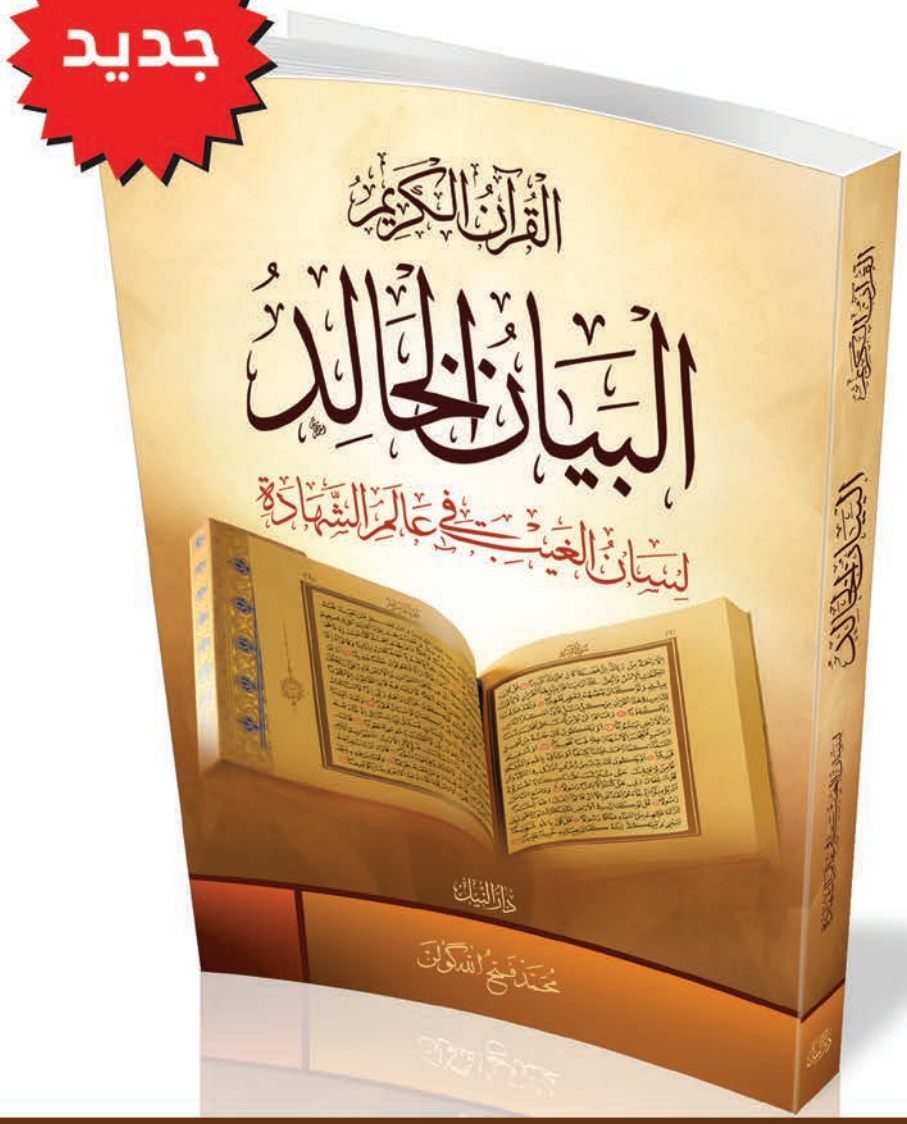

مركز التوزيع: دار النيل للنشر | info@daralnile.com | 00201023201002

مركز البيع الإلكتروني: www.neelwafurat.com | www.souq.com

مركز البيع المجلد العربي: 01275470090 | دار أصول الدين: 01115534566

جوامع الكلم: 01150726663 | دار السلام للنشر: 0222873246 | @nilepublishing | @daralnilemasr

التعليم هو أساس الإصلاح، فعندما تُربّي إنسانًا صالحًا، فإنك تُربّي سياسيًّا صالحًا واقتصاديًّا صالحًا ومثقفًا صالحًا ومن ثم مجتمعًا صالحًا.

وجد الأكراد من خلال أنشطة الخدمة بديلًا إيجابيًّا جديدًا في الحياة غير الموت الذي يقدمه لهم استمرار النزاع المسلح، وفرصًا تعليمية وتدريبية مناسبة وفرتها لهم مؤسسات الخدمة.

الإرهاب من شأنه أن يولد العداوة بين أفراد المجتمع الواحد، ويزرع أسباب الفرقة، وينشر أسباب التوتر الدولي.